

أزمة نظام

الرأسمالية والعولمة في مأزق

د. عبد الحي يحيى زلوم

عن الكاتب والكتاب

- في كتاب نذر العولمة سنة 1998 ، بين الكاتب أن النظام الرأسمالي المالي قد ركب ثورة المعلومات لينتج عنه اقتصاد سماه الكاتب بالنظام المعلوماتي ، بحيث أصبح هناك اقتصادان : اقتصاد حقيقي منتج، واقتصاد طفيلي معلوماتي يعيش على المضاربة على الاقتصاد الحقيقي ليربكه وينهكه، وليحول أسواق المال إلى كازينوهات للمقامرة تصب في جيوب بارونات المال العالميين في وول ستريت.
- وبين ذلك الكتاب بأن هذا النظام الطفيلي قد تم فرضه على العالميين تحت اسم العولمة ، وتم مهاجمة جميع الأنظمة المغايرة لهذا النظام المعلوماتي الأنجلوساكسوني بوتيرة تسارع بعد انبعاث الاتحاد السوفيتي . وكانت مؤسسات صندوق النقد الدولي والبنك الدولي ومنظمة التجارة الحرة أدوات استخدمت في عملية التطويع هذه تحت اسم العولمة – والتي عرفها الكاتب في محاضرة له في جامعة هارفارد بأنها العملية التي تسعى لتطويع الدول لتصبح جمهوريات موز في خدمة الإمبراطورية الأمريكية وبارونات المال العالميين.
- في كتابه إمبراطورية الشر الجديدة (2003) بين الكاتب أن الاقتصاد الأمريكي خرج من التسعينات من القرن الماضي منهكاً بفقاعة اقتصادية كانت أشبه بفقاعة العشرينات من القرن الماضي التي سبقت الكساد الكبير . وأوضح الكاتب أن ما أسمي الحرب على الإرهاب أو ما يسميه آخرون حرب الإرهاب كان حروباً لمحاولة الهروب إلى الأمام من تلك الفقاعة.
- في كتابه حروب البترول الصليبية (2005) ، بين الكاتب في فصل الكتاب الأخير وعنوانه "الإمبراطورية الأمريكية : نهايتها بأزمة قلبية اقتصادية" بأن الاقتصاد الأمريكي غارق ومدمن على الديون ، والتي وصلت إلى حدود غير مسبوقة لا يتحملها أي اقتصاد، وتنبأ بأن فقاعة العقارات ستكون الشعرة التي ستقضم ظهر البعير.
- في هذا الكتاب "أزمة نظام" يبين الكاتب أن هذا النظام قديمه جديد وجديده قديم ، يعيش على الحروب والصلب لثروات الشعوب، وأن "تاريخ صلاحيته" قد انتهت، وأن نظاماً اقتصادياً سياسياً اجتماعياً آخر أصبح الآن مطلباً عالمياً ، وهو في مرحلة آلام المخاض في هذه الأيام.

د. عبد الحي زلوم : أنهى دراسته الابتدائية والثانوية في القدس ، والجامعية الأولى والعليا في الولايات المتحدة . ولقد تعايش وخبر النظام الأمريكي لأكثر من نصف قرن ، كما عمل مع العديد من الشركات العبرقراطية في الولايات المتحدة وأوروبا ، كما عمل مستشاراً عالمياً في قطاع النفط وله ستة مؤلفات في الاقتصاد السياسي.

إنها أزمة نظام ...

البروفيسور جيفري غارتن ، أستاذ علوم التجارة والتمويل الدولي في جامعة ييل Yale ومساعد وزير التجارة الأمريكي الأسبق في إدارة كلينتون ، يرى أن ترليونات الدولارات التي تم ضخها لتاريخه لم تخفف من الانحدار السريع للاقتصاد الدولي ، ويرى أن الجواب هو ضخ ترليونات أخرى وبأقصى سرعة ، وهذا بعض ما جاء في مقالة له في عدد نيوزويك 2008/12/22:

"أصبح الآن واضحاً بشكل يثير الذعر أن خطط الإنقاذ العالمية الدراماتيكية غير المسبوقة في حجمها أو ما حوته من ابتكارات خلاقة ما زالت غير كافية وأنها غير مناسبة على الإطلاق ... إننا نقف على شفا مصيبة سوف لن تقف فقط عند انهيار النظام البنكي وتعميق التباطؤ الاقتصادي العالمي ، والتي سيتمخص عنها قلاقل وحالة من عدم الاستقرار السياسي كبيرة". يقول غارتن إنه يكتب هذا وهو يعلم أن ما قدمته الحكومة الأمريكية لتاريخه من دزينة من حزمات الإنقاذ ، والتي شملت 200 بليون دولار لإنقاذ شركتي رهن العقارات : Fannie Mae و Freddie Mae بالإضافة إلى ما قدمته من ضمانات بـ 1.4 تريليون دولار للقروض بين البنوك ، ويضيف: "هذه هي المشكلة . وبناءً على كيفية احتساب المبالغ فهي تصل إلى 8 تريليونات دولار ... أي أكثر من مجموع مشاريع الحكومة الاتحادية كافة طوال القرن العشرين بأكمله ، بما في ذلك تكاليف غزو العراق ومشاريع الصفقة الجديدة أيام الكساد الكبير ، وخطة مارشال لأوروبا بل وأكثر من مصاريف الحرب العالمية الثانية ، والتي كلفت بدولارات اليوم 3.6 تريليون دولار ... أما أوروبا فلم تكن أقل اندفاعاً ... حيث إن مجموع ما ضخته أوروبا لبنوكها كان 3.36 تريليون دولار ، مقابل 3.35 ضخته الولايات المتحدة".

"إن الأنظمة المنافسة للنظام الرأسمالي من فاشية واشتراكية وشيوعية قد انهارت جميعها . ولكن ، بالرغم من أن المنافسين قد أصبحوا طي الكتمان في كتب التاريخ فإن شيئاً ما يبدو وكأنه يهز أركان النظام الرأسمالي نفسه "

البروفيسور ليستر سي ثورو

كتاب : مستقبل الرأسمالية (1997)

الفهرس

9	التمهيد
11	هل أذاك حديث مادوف Madoff وبلاغوجيفيتش ؟ انه حكاية النظام كله
14	الإصلاح في عالمنا العربي
18	المقدمة
19	الهوة بين الحقيقة والواقع
21	صدام المصالح الإمبراطورية لا صراع الحضارات
22	العولمة (G of Globalization)
25	حروب النفط والموارد الطبيعية
25	تجارة الرعب : حرب على الإرهاب أم حرب إرهاب
27	تجار الحروب : الرابحون والخاسرون من الحروب
31	إسرائيل : كلب حراسة وُظف لخدمة الإمبراطوريات
33	الإمبراطورية الأمريكية : صيحة حربها : ديمقراطية امبريالية سريعة الذوبان
35	المهمة المستحيلة : القرن الأمريكي الجديد
38	الفصل الأول
	الرأسمالية : قديمها جديد وجديدها قديم.
39	تجارة حرة بقوة السلاح قبل منظمة التجارة الحرة
43	صدام حسين ومحمد علي : مقارنة
44	في الرأسمالية: الحكم لأصحاب رأس المال وشركائهم
45	الاقتصاد الجديد قديم
49	شركات التجمع الصناعي العسكري خططت وروجت لاحتلال العراق.
51	خداع وقفاعات المراهبين وأسواق المال هي ذاتها منذ مئات السنين
55	الفصل الثاني
	في الرأسمالية : العبودية أساس الملك
	من كولومبوس حتى أوباما (1)
56	الاقتصاد الرأسمالي الغربي قام على مؤسسة العبودية
57	الثورة الأمريكية : أسبابها وقادتها
59	بدايات بورصة نيويورك
59	العبودية بعد الاستقلال
61	الإضطراب الاقتصادي والسياسي في القرن التاسع عشر
62	الاضطرابات المالية والاقتصادية
62	الفساد سيد الموقف
63	العبودية تحت أسماء أخرى
64	حزب الشعب : حلول لا رأسمالية
67	عقد التسعينات من القرن التاسع عشر
69	بداية عصر الإمبريالية الأمريكية : الحرب الأمريكية الإسبانية
70	قانون نظام الاحتياط الفدرالي / البنك المركزي الأمريكي

73 73 75 76 77 78 80 83 85 86	الفصل الثالث الإمبراطورية الأمريكية : حصان بارونات المال العالمي الجديد من كولومبوس حتى أوباما (2) إنتاج المستهلكين عبر ثقافة استهلاك جديدة هل أنت ثقافة الاستهلاك بالسعادة؟ العشرينات الهادرة الكساد الكبير اجراءات روزفيلت للخروج من الكساد الكبير دراسات "الحرب والسلام" مؤسسات عالمية جديدة لنظام استعماري جديد "معهد بحوث السياسة الخارجية" أمريكا تطبع دولارات أكثر من تعهدها ، وتلغي التزامها
91 91 93 101 102 103 104 105 108 110	الفصل الرابع نذر العولمة بعد عشر سنين عن كتاب نذر العولمة (1998) عن كتاب إمبراطورية الشر الجديدة الصادر سنة 2003 : من الفصل الثامن : ازدهار اقتصاد الكذب. وجاءت أحداث سبتمبر عن كتاب حروب البترول الصليبية الصادر سنة 2005 الفصل الرابع عشر إمبراطورية هالكة أقيمت على رمال متحركة ديون الإمبراطورية فقاعة الديون الأمريكية غرينسبان في مصيدة الديون التسعينات كانت كالعشرينات : نفس الأسباب تعطي نفس النتائج
113 113 115 117 119 122 123 125 126 130 132 134 135 136 138	الفصل الخامس احتلال العراق والسيطرة الأمريكية على النفط واشنطن في خدمة التجمع العسكري الصناعي الاستيلاء على النفط العربي مسرحية حرب أكتوبر سنة 1973 تدوير أموال البترودولارات كينسنجر : خطوة خطوة لاحتلال مصادر البترول سيناريو حرب الخليج الأولى خطط لها قبل 12 سنة وضع فريد : قوة عظمى وحيدة بدون نفط التخطيط للقرن الأمريكي الجديد مركز الكرة الأرضية النفطي في الخليج بول بيرمير : مندوب سامي أمريكي ! العراق على بحر من النفط من مونرو إلى بوش الأمس كالليوم انهيار الإمبراطورية الأمريكية إدارة رايحتها النفط
140 145	الفصل السادس النظام المارق عماده الحروب والعبودية والكذب الأمريكيون ضحايا نظامهم كما الآخرون

147	لا أحد اشد عمى من أولئك الذين لا يريدون أن يبصروا
151	بيرل هاربر Pearl Harbor – الوجه الآخر للحكاية
158	الفصل السابع
	أمريكا والعالم ... إلى أين؟؟
159	بوش هرب من فقاعة إلى أخرى أكبر منها
159	قصة سيتي غروب Citigroup هي قصة أمريكا :
161	من هو بن شلومو برنانكي؟
163	براك أوباما او ايهود باراك : لا فرق
165	ولكن من هو باراك أوباما.
167	أجندة قوة النخبة الممسكة بزمام أمور أمريكا :
167	أجندة أوباما الاقتصادية والسياسية
170	ثم ماذا ؟ انها ازمة نظام

من كتب د. عبد الحي زلوم

ولقد ارتقى أهل النظام المعلوماتي الانجلوأميركي - بالمادية والنمو الاقتصادي ليجعلا منهما ديناً ما أنزل الله به من سلطان ، وبدلاً من أن يُسَخَّرَ النمو لخدمة المجتمع ، سُخِّرَ المجتمع لخدمة النمو ، وجيّر ب كله إلى طبقة الواحد بالمائة . إن نظاماً آخر يجمع بين النمو والعدل والأخلاق قد أصبح مطلباً عالمياً وفي عالم القرية الصغير فإن البحث عنه يجب أن يكون عالمياً .

من كتاب نذر العولمة (1998)

لقد كان النظام المالي الأنجلو- أميركي يعاني من أزمة، والحروب التي ستلي 11 سبتمبر قد تساعد على إعادة صياغة النظام العالمي الجديد. إن من طبيعة الرأسمالية الانجلو- أميركية أن تروّج للحروب كحلّول لمعالجة حالات الكساد والركود الاقتصاديين وربما الإخفاق الحالي للنظام كله. وكانت مظاهر ضعف النظام بكليته وهشاشته صارخة الواضوح، فقد أظهرت النتائج المالية للربع الثالث من عام 2001 قبيل 11 سبتمبر ما يدعو إلى قرع جرس الإنذار....

وفي 2001/4/16، قارن تشامبرز ما يحدث حالياً وبين "فيضان لم نشهده منذ 100 عام" يضرب صناعة التقنية. ولم تقتصر أهمية ذلك على أنه حدث خلال حياتنا، بل لأنه جاء بزيادة 5 أضعاف عما كنا نتوقعه... لم نبن أبداً أنماطاً بإمكانها مواجهة كارثة بهذه الضخامة...".
وخلال الفترة بين 10 مارس 2000 ونهاية الربع الاول من 2001، تراجعت قيمة أسهم ناسداك Nasdaq السوقية من 6.7 تريليون دولار إلى 3.3 تريليون دولار. وهبطت أكبر ست شركات على مؤشر ناسداك من مستوياتها العليا في عام 2000 (2.362 تريليون دولار) إلى 914 مليار دولار

من كتاب إمبراطورية الشر الجديدة الصادر سنة 2003

هناك أربعة أو خمسة من بنوك نيويورك تتحكم بتجارة الأسهم ، أكبرها سيتي غروب Citigroup ، ومورغان تيشيز، وتملك هذه البنوك تأثيراً هائلاً على النظام المالي العالمي، وفي حالة انهيارها كما حصل مع LTCM ، سينهار النظام المالي العالمي برمته.

من كتاب حروب البترول الصليبية الصادر سنة 2005

غير أن معدلات الفائدة العالية تهدد الاقتصاد الغارق في الدين ، وبخاصة الديون العائلية الخاصة وديون رهن المنازل . ففي الأشهر الأخيرة ، كانت 70% من إجمالي ديون رهن المنازل مسجلة بمعدلات دين عائمة . وإذا كانت معدلات الفائدة منخفضة ، وكذلك معدلات الكلفة حالياً ، فإن ارتفاع هذه المعدلات سيجعل أصحاب المنازل في وضع لا يسمح لهم بتسديد الأقساط الشهرية ، الأمر الذي سيتسبب بأمواج من الإفلاسات كما حصل في الثلاثينات ، ولكن على نطاق أسوأ...

وفي حالة حصول ارتفاع ملحوظ في معدلات الفائدة الأمريكية ، فإن ملايين العائلات الأمريكية الغارقة في الديون ، ستجد نفسها فجأة مجبرة على التخلي عن منازلها بعد أن أصبحت غير قادرة على تحمل كلفة الفائدة العالية . مثل هذا الوضع سيضرب البنوك ، التي ستجد نفسها أمام رهونات عقارية بمليارات الدولارات ، وقد أصبحت غير ذات قيمة ، وهو ما سبق وحصل في الثلاثينات .

من كتاب حروب البترول الصليبية الصادر سنة 2005

وكمعظم الإمبراطوريات التي توالى في التاريخ ، فإن الإمبراطورية الأمريكية زرعت بذور فنائها بنفسها فالعطرسية التي تميز ممارسات النخب التي تتحكم بها ، وكذلك الإدمان المتعاطف على التعامل مع العالم من منظور القوة العالمية المهيمنة ، أعمت أنظار النخبة السلطوية عن العواقب المترتبة على طموحها الجامح . فهؤلاء يعيشون وهماً كبيراً ، يقوم على الاعتقاد بأن القوة العسكرية المتفوقة ، وبخاصة بعد انهيار الاتحاد السوفياتي ، تعوضهم عن الاقتصاد الداخلي المتراجع ، والقاعدة الصناعية الآخذة في الانهيار ، والديون المحلية المتضخمة إلى درجة الانفجار . مثل هذا الوهم إنما يعمي النخبة الأمريكية المتنفذة عن رؤية الكتابة الواضحة على الحائط أما كم من الديون الشخصية يستطيع الأمريكيون تحمله قبل أن يصلوا مرحلة التوقف عن السداد ؟ فالسقف واضح ، وسيكون لهذا الوضع انعكاساته على العالم كله .

من كتاب حروب البترول الصليبية الصادر سنة 2005

سيكون انهيار الإمبراطورية الأمريكية مفاجئاً وسريعاً على غرار انهيار إمبراطوريات شركاته
العلاقة، كما انهارت شركة ENRON أو شركة LTCM . شركتا السيارات العملاقة جنرال
موتورز وفورد هما على شفا الانهيار ، ولقد تم تصنيف سنداتهما مؤخراً بأدنى الدرجات Junk
Bonds في حين أن أرباحهما تأتي من فروعهما المالية التي تعمل بالإقراض وأعمال المال
الأخرى .

من مقدمة كتبها الدكتور عبد الحي زلوم لكتاب "لكي نفهم العراق" سنة 2006 للكاتب الأمريكي المعروف البروفيسور ويليام بولك ، أستاذ التاريخ السابق بجامعة هارفارد ومساعد وزير الخارجية الأمريكي الأسبق.

تمهيد

في كتابنا "نذر العولمة" بيّنا أن الرأسمالية المعلوماتية قد مزجت بين قوة المال وقوة الإعلام وقوة علوم التسويق للبضائع والسياسيين ، وهذه العناصر أسميناها في كتابنا إياه بالإنجليزية The Three M's لأنها جميعاً تبدأ بالحرف M (Marketing، Media،Money) .

وحيث تم تغيير مفهوم المال حتى أصبح بدوره سلعة من السلع ، صار وهماً ونبضة في كمبيوترات البنوك والشركات المالية ، وصار غسل دماغ الجماهير الدعامة الأساسية لهذا الثلاث ، وذلك النظام ، فأصبح دور الإعلام طاعياً، مما جعل أصحاب البيوتات والمؤسسات المالية وأصحابها يهرعون لاحتكار أجهزة الإعلام المختلفة ليتقلص عدد شركاتها الكبرى من 30 إلى 5 خلال آخر عقدين ، تربع على رأس هؤلاء الشركات الخمس أصحاب البنوك أنفسهم . وحين كتابة هذه السطور كان رؤساء هذه الشركات الخمس من ملة واحدة!

عندما زار وفد صحفي من الاتحاد السوفيتي الولايات المتحدة في الثمانينات من القرن الماضي ، وقبل مغادرتهم ، سأل أحدهم ضيوفه الأمريكيان : "كيف تستطيع ماكينة الإعلام الأمريكية أن تتحكم لهذه الدرجة ، حيث إننا وجدنا الرسالة نفسها، و النص نفسه في سائر أنحاء الولايات المتحدة ومن مؤسسات الإعلام كافة، وبطريقة لم نستطع نحن في الاتحاد السوفيتي تحقيقها رغم تمرکز آلة الإعلام بأيدي حزبنا".

نقتبس في هذا الكتاب قول البروفيسور كويغلي Quigly من جامعة جورج تاون ، والذي علّم طلابه (ومنهم بيل كلينتون) أن برامج الحزبين الأمريكيين في جوهرهما برنامج واحد في خطوته العريضة ، وأن الإدارات التي تأتي للسلطة تأتي لتنفيذ تلك المخططات مع حرية حركة تكتيكية محدودة. وتتحمل الإدارات الأمريكية كل "أوساخ" تلك البرامج باعتبارهم المسؤولين عنها ، وذلك بمنأى عن أصحاب النظام الحقيقيين الذين جبروا تلك البرامج لمصالحهم الضيقة . جاء كلينتون وراح كلينتون ، جاء بوش ، وراح بوش ، وجاء أوباما وسيروح أوباما ، وقد علقت بهم كل أوساخ النظام لفترات حكمهم لكن أصحاب النظام الحقيقيين باقون، يلعنون مع الجمهور "وساخة" هذه الإدارات ، وتبدأ ماكينة إعلامهم بالتبشير أنه ما علينا إلا أن

ننتظر الإدارة التي ستأتي حتى تصبح كل الأمور على ما يرام! فالمشكلة في هؤلاء (الأوغاد) كما أسماهم البروفيسور غويغلي! . هذا ما يريد أصحاب النظام أن يوحوا به، مع أن المشكلة والأزمة هي أزمة نظام.

سببين هذا الكتاب أن الرأسمالية منذ نشأتها قبل 500 سنة عاشت على الأكاذيب والحروب والعبودية واستعباد الشعوب ، تديرها فئة قليلة جداً من بارونات المال العالميين . ولقد وظف هؤلاء في خدمتهم الإعلام على مدى القرون فملكوه وأداروه ، سواء عندما كان يعتمد على الشائعات الكاذبة أو الصحف أو على الإذاعة والتلفزيون . كانت أضخم صفقة نفذها روتشايلد هو بمعرفة نتائج معركة وترلو قبل الآخرين ، فادّعى أن انكلترا قد خسرت الحرب وباع بعض أسهمه، مما سبب انهيار البورصة . عندها قام بشراء كميات هائلة من الأسهم بأبخس الأسعار التي ارتفعت إلى سابق عهدها ، بعدما تبين أن بريطانيا هي التي ربحت تلك المعركة. يقول روتشايلد مفتخراً: "لقد كانت هذه صفقة عمري". كان الحمام الزاجل هو من أوصل خبر نتيجة معركة وترلو لورتشايلد. وما إن ما بدأت التقنية الحديثة بدءاً بالتلغراف حتى قام أصحاب النظام الرأسمالي بتأسيس المؤسسات الإخبارية ووكالات الأنباء وسائر وسائل التأثير الجماعي . كان من أوائل هؤلاء إسرائيل بير جوزيفات (Israel Beer Josephat) والذي اقتضت متطلبات المهنة أن يغير اسمه إلى رويتر ، وديانته من اليهودية إلى الكاثوليكية ، كما فعل الرئيس البريطاني دزرائيلي ذلك في عهده ، وكما فعلت مدلين اولبرايت ووالدها جوزيف كوربل من بعده. وصاحبنا هو مؤسس وكالة رويتر للأنباء . ولقد اهتم هؤلاء بالاستيلاء على مصادر الأخبار ثم أدوات نشرها ، فلقد تعلموا من تجاربهم أن ذاكرة الشعوب قصيرة المدى واعتمدوا مقولة اكذب اكذب يصدقك الناس. ولكي يعطوا أكاذيبهم طابع الصدق والعدل بل القداسة ، وظفوا كهنة لنظامهم أسموهم "الاقتصاديين" ، والذين كانوا وما زالوا يزاولون دور وعاط السلاطين بإصدار الفتاوى من نوع "ادفع وارفع".

وفي كل عصر وحقة من الزمن نجد بأن بارونات المال هؤلاء قد "لمّعوا" أحد هؤلاء ليضيفوا عليه هالة القداسة ، وأنه إذا "قال فصدقوه". عند انهيار النظام كما حصل أيام الكساد الكبير ، كان هناك جون مينارد كينز John Maynard Keynes ، والذي نظّر بضرورة تدخل الدولة لتقليم أظافر السوق وكذلك بالإففاق عن طريق العجوزات أثناء الأزمات إلى أن يتم إنقاذ النظام . وما فتئ النظام بعد ذلك إلا أن أخرج كبير كهنة جديداً، فجاء ملتون فريدمان يقول: إن تدخل الدولة هو أبو الشرور ، فتم فكفكة ما تم وضعه من قوانين معتمدة على الأرذوكسية الكينزية خصوصاً في عهد ريغان ، ثم جاء رئيس البنك المركزي بول

فالوكر ومن بعده آلان غرينسبان ، والذي حكم النظام المالي الأمريكي ومن ثم العالمي 16.5 سنة ليقول لنا أمام لجنة تقصي حقائق عن أسباب الأزمة الاقتصادية في الكونغرس في أكتوبر سنة 2008: "إنني مصاب بالذهول ... فأنا أعرف بأن هناك خطأ ما في النظام ... لكني لا أعرف ما هو ...". لا فُضّ فوه!

لكن السؤال : لماذا علينا أن نصدق فولكر أو غرينسبان أو حتى بن شلومو برنانكي ، الذي جاء وول ستريت به لينقذ مؤسساته المالية؟ فشلومو برنانكي كانت رسالة الدكتوراة خاصته عن الكساد الكبير ... يا للصدفة جاء قبل أن يُعلن للملأ عن كساد كبير أو تباطؤ كبير ... سمه ما شئت! أم هي صدفة إن جيئ به هذه الأيام وهو الذي وصل إلى نتيجة في رسالة دكتوراه مؤداها أن أم المشاكل هي السماح بانهييار البنوك ، وعلى الدولة حمايتها بسائر الوسائل ، وهكذا انقلبت الدولة الرأسمالية التي كانت تلعن تدخل الدولة وجعلته من المحرمات على دول شرق جنوب آسيا أثناء أزمة التسعينات ، مُعلنة أن على البنوك الضعيفة والشركات الضعيفة أن تنهار ، حيث ما لبت أن ذهب بارونات المال العالميون لشرائها بأبخس الأثمان . لكن اليوم ، أصبحت تلك المحرمات حلالاً ، وبدأت الحكومة بشراء الحصص وضخ المليارات لوقف الانهيارات لمؤسسات باروناتها! ورسالة دكتوراه برنانكي كانت من أشهر الجامعات الأمريكية MIT ، وكان المشرف عليها الأستاذ في تلك الجامعة آنذاك البروفيسور ستانلي فيشر Stanley Fisher ، والذي انتقل ليصبح نائب مدير صندوق النقد الدولي وهو اليوم رئيس البنك المركزي لإسرائيل !

إذا كان الأمر بهذا الوضوح فهل علينا أن نبقي كتنابل السلطان نسير من أزمة إلى أزمة ... إلى حتفنا ... أم إن علينا إصلاح ذات بيننا وتفحص ما يجري حولنا؟

هل أتاك حديث مادوف Madoff و بلاغوجيفيتش Blagojevitch ؟ انه حكاية النظام كله

برنارد مادوف هو ابن وول ستريت البار . أسس سنة 1960 شركة برنارد مادوف للاستثمار عندما كان في الثانية والعشرين من عمره وكان رأسماله حينئذ 5000 دولار . بقي مادوف رئيس مجلس إدارة هذه الشركة حتى 11 ديسمبر 2008 حينما ذهب وأخبر اولي الأمر أن شركته كانت تمارس الخداع والغش

والكذب خلال سنوات عملها ، وكان قد أخبر بعض مدراءه الشيء نفسه قبل يوم من افصاحه عن سوء أمره قائلاً : "كان الأمر كله كذبة كبرى". وصل مادوف إلى أعلى المراكز في وول ستريت بما في ذلك رئاسة مجلس إدارة ناسداك Nasdaq أهم سوق مالي لشركات التكنولوجيا في العالم لعدة سنوات . كان لآخر أيامه ممن يسمون في وول ستريت "صناع السوق". (خسائر) مادوف كانت 50 مليار دولار أي 50.000.000.000 دولار عدأً ونقداً !!! ... وما كادت الفضيحة أن تتكشف حتى أفصحت العديد من البنوك العالمية داخل الولايات المتحدة وخارجها في بريطانيا ، وإسبانيا ، وفرنسا ، وإيطاليا وهولندا وغيرها انها قد أصابها خسائر جسيمة لأنها كانت تستثمر مع مادوف . كان مادوف ، حسب صحافة وإعلام وول ستريت رجلاً تقياً نقياً طاهراً ورعاً ، حيث أنه كان كثيراً لأعمال الخير خصوصاً للمؤسسات اليهودية وإسرائيل.... بل وكان في مجلس امناء إحدى الجامعات اليهودية.

حسب ما نقلته وكالة الصحافة الفرنسية AFP في 2008/12/18 فلقد ظهر على الإنترنت طوفان من الرسائل "المعادية للسامية" وهنا نضع معادية السامية بين قوسين قالت وكالة الأنباء هذه بأن "مادوف ، ذو السبعين عاماً ، يهودي الديانة ، وعضو بارز في الجالية اليهودية الأمريكية ذات النفوذ القوي". ثم تقتبس الوكالة ما قالته "رابطة الدفاع ضد التمييز" اليهودية ADF عن هذا الموضوع : "قام البعض بكتابة تعليقات بالغة الإهانة عن علاقة اليهود والمال حتى أن بعضهم قال أنه لا يستطيع أحد القيام بعملية غش كهذه إلا اليهود كما أن آخرين ادعوا (في نظريات مؤامرة) بأن سرقات اليهود هذه إنما هي لمساعدة إسرائيل". واستطرد الناطق بإسم رابطة ADL أنه حتى بعض الجرائد ، وليس مواقع الإنترنت فقط، قد كانت من أولئك الذين انضموا إلى تلك الحملة ومنهم نيويورك بوست ، ومجلة فوربس. لكن الغريب أن مواقع جريدة هارتس والجيروسالم بوست كانا ضمن تلك المواقع التي ورد فيها مثل هذه الإتهامات "اللاسامية". إذن مهاجمة الغش والخداع والسرقة هي (لا سامية) و(نظرية مؤامرة) حتى ولو كان على موقع جريدة إسرائيلية! أليس هذا هو الإبتزاز بعينه؟؟

بينما في هذا الكتاب أن ممارسات أسواق المال منذ كان هناك أسواق مال هي نفسها ، جديدها قديم ، وقديمها جديد. بينا أن الفقاعات الاقتصادية كانت تُمارس حتى قبل 300 سنة حيث بيّنّا فقاعة شركة بحر الجنوب سنة 1720 والتي يُظن أنها قد حدثت بالأمس. حتى أن ممارسات مادوف ما هي إلا نسخة طبق الأصل عن ممارسات تشارلز بونزي Charles Ponzi في العشرينات من القرن الماضي.

بدأ بونزي فقيراً معدماً كما كان الحال مع مادوف ، إلى أن عمل مع أحد أصحاب البنوك "الفاستين" في كندا حيث تعلّم منه آخر علوم النصب ، و النصب هو أحد علوم مهنة أسواق المال وأصحابها التي ورثوها أباً عن جد على مدى التاريخ. ما تعلمه هو ما يسمى Pyramid Scams وملخصها الدفع للمستثمرين القدامى من أموال المستثمرين الجدد بناءً على مشاريع وهمية . ووعد بونزي بدفع فائدة 50% على أي مبلغ استثمار لمدة 90 يوماً فقط. خلال سبع شهور جمع 30000 مستثمر دفعوا 9 مليون دولار وهو مبلغ ضخم في تلك الأيام . ذاع صيته في كل مكان . وبعد أن بدأ عملية احتياله وبجييه دولارين فقط ، امتلك قصرأ

وسيارات فارهة إلى أن تم اكتشاف أمره بعد أن كان ما كان! وهذا ما قام به مادوف ... بل هذا ما تقوم به شركات المال وبارونات العالميين.

نقتبس هنا وصف أستاذ الاقتصاد وعميد سابق بكلية الإدارة في جامعة MIT (Lester C. Thurow) أيديولوجية وأخلاق الرأسمالية في كتابه "مستقبل الرأسمالية" بقوله: "من سوء الحظ أن أيا من الرأسمالية والديمقراطية ليست أيديولوجية قادرة على الدمج والتوحد، إذ أن كليهما أيديولوجية عملية تقول بأن الإنسان سيكون في وضع أفضل إذا اتبع الإجراءات التي توصي بها. ولا تقدم أي منهما أية أهداف عامة يمكن للجميع أن يتبنوها ويتم تطبيقها بشكل جماعي، وتتضمن كل منهما التأكيد على الفرد لا على المجموعة ... وفي أدق التعبيرات عن المبادئ والأخلاقيات الرأسمالية، تعتبر الجريمة نشاطاً اقتصادياً آخر يمكن مقارفته مقابل ثمن باهظ، إذا ما وقع صاحبه في قبضة رجال الأمن. وليس هناك من شيء يمتنع القيام به، ولا وجود للواجبات والالتزامات. ما هو موجود فقط هو عمليات السوق "

إذا كان الأمر كذلك فإن ممارسات مادوف هي ضمن إطار هذا النظام الرأسمالي. وحيث أن الرجل ذو أخلاق عالية ومن المحسنين، ولم تكتشفه السلطات (مع أن البعض قد حذرنا مراراً وتكراراً خصوصاً خلال آخر عشر سنين) لذلك نقترح أن تقدم له الحكومة الأمريكية صندوق إنقاذ كما قدمته لعشرات بيوتات المال الأخرى، فهي ليست أكثر منه احساناً ، ولا تمارس لعبتها خارج القواعد التي لعب بها مادوف. وهذه المساواة تتماشى مع اصول الديمقراطية الغربية !!

إذا كانت أخلاقيات نظام السوق الرأسمالي تسمح ببيع السلع والسياسيين واقتراف الجريمة باعتبارها عمليات سوق لا تخضع لمعايير أخلاقية ، فدعنا نرى كيف ينطبق ذلك على بيئة شيكاغو وحزبها الديمقراطي الذي أوصلت ماكنته السياسية باراك اوباما إلى أعلى مناصب الدولة.

يقول ديك سمبسون Dick Simpson أستاذ العلوم السياسية بجامعة إلينوي في شيكاغو أن أكثر من ألف شخص قد تم ادانتهم على خلفية جرائم سياسية اقترفت منذ السبعينات من القرن الماضي كان منهم ثلاثون ممن وصلوا إلى مراكزهم عبر صناديق الاقتراع إلى مناصب عامة وهامة. كان آخر هؤلاء حاكم ولاية إلينوي الحالي (بلاغوجيفيتش Blagojevitch) والذي تم اعتقاله وإطلاق سراحه بكفالة في 2008/12/9 . وهذا ما نقلته وكالة الأسوشيتيد برس في 2008/12/24 : "أوقف بلاغوجيفيتش في التاسع من كانون الأول وأفرج عنه بكفالة. وكشفت نصوص الاتصالات الهاتفية التي نشرها مكتب التحقيقات الفدرالي (اف بي آي) أنه حاول بيع مقعد سناتور إيلينوي الذي بقي شاغراً بعد انتخاب أوباما رئيساً للولايات المتحدة. وكشف التنصت على مكالمات حاكم إيلينوي أنه كان غاضباً لأن فريق أوباما لم يقدم له سوى التقدير مقابل تعيين هذه الشخصية أو تلك ... ويعود إلى حكام الولايات المتحدة تعيين أعضاء مجلس الشيوخ الذين تصبح مقاعدهم شاغرة، بانتظار الانتخابات المقبلة لمجلس الشيوخ بعد سنتين.

ويُمكن أن يحكم بالسجن على بلاغوجيفيتش المتهم بالإحتيال والفساد والذي يخضع لتحقيق حول قضية أخرى مما يفسر تمكُّن مكتب التحقيقات الفدرالي من التنصت على اتصالاته بإذن من القضاء".

إذن ، منصب أوباما السابق والذي وصل إليه أوباما عبر ماكينة الحزب الديمقراطي السياسية والتي أوصلت أوباما إلى البيت الأبيض هو الآن معروض للبيع ... عدّاً ونقداً ، كما بينته تسجيلات مكتب التحقيقات الفدرالي ... ولكن أليست هذه حالة فريدة أردنا أن نعمل بها "من الحبة قَبّة"؟ يقول البروفسور سيمبسون أنه حين أدانة الحاكم الحالي ودخوله السجن سيكون أربعة من أصل آخر ثمانية حكام لهذه الولاية قد دخلو السجن على خلفية الفساد والإختلاس والابتزاز ... أربعة من ثمانية تعني 50% - أي النصف. لكن لماذا علينا نحن "أصحاب نظريات المؤامرة" أن ننظر إلى نصف الكوب الفارغ، فهناك نصف ملآن؟! ثم تفاءلوا بالخير تجدوه عند أوباما ... وإلا فالذي بعده أو الذي بعد الذي بعده ! أوليس من الأفضل أن نحمد الله كثيراً أن بلاغوجيفيتش لم يكن هو الذي وصل إلى الرئاسة الأمريكية ؟ لكن هل كان ذلك ممكناً؟ تقول مجلة الإيكونوميست (عدد 2008/12/13) : "تم انتخاب بلاغوجيفيتش إلى كونغرس ولاية إلينوي (الذي انتخب إليه أوباما سابقاً أيضاً) سنة 1996 عن الحزب الديمقراطي (حزب أوباما) ثم انتخب حاكماً لولاية إلينوي سنة 2002 حيث كان عنوان حملته السياسية هو الإصلاح الأخلاقي". وتضيف الإيكونوميست : "حينما دخل بلاغوجيفيتش السياسة (في إلينوي) كان نجماً صاعداً حتى أن الكثيرين كانوا يهيمسون بإمكان وصوله إلى رئاسة البيت الأبيض". هكذا وصفت مجلة نيوزويك (2008/12/22) الساسة والسياسة الأمريكية: "في ولاية إلينوي فالقاعدة في السياسة هي إدفع وارفع Pay to Play فإذا لم (تتبرع) في الحملات الانتخابية فلا تتوقع عقوداً من الحكومة ولا امتيازات ، ولكن ، فالأمر كذلك في معظم الولايات ، بل حتى في الكونغرس. هناك يتم تلطيف الاسم الذي يطلق على الشيء نفسه: إدفع للحصول على حظوة لتبقى على اتصال (Access)".

نطالب بالرأفة لـ بلاغوجيفيتش ، فهو قد لعب ضمن قواعد اللعبة في الرأسمالية الأمريكية كما وصفها الأستاذ ليستر ثورو وكما وصفتها النيوزويك، لكنه لسوء حظه قد انكشف أمره.

المحزن أن خسائر الدول العربية وخصوصاً الصناديق السيادية لدول النفط العربية قدرت بحوالي 2600 مليار دولار من جامعة الدول العربية ، وهو مبلغ يزيد مرة ونصف عن جميع موجودات البنوك العربية مجتمعة من المحيط إلى الخليج، بل ويزيد عن مجموع الدخل القومي السنوي للدول العربية مجتمعة من المحيط إلى الخليج ، بما في ذلك الموارد من النفط والغاز. أما ما قدرته الأمم المتحدة من الخسائر العربية حتى منتصف ديسمبر / كانون أول 2008 فكان 650 مليار دولار، خمسة بالمئة من هذه الخسائر لو تم استثمارها في الزراعة في بلد كالسودان، لأصبح سلة غذاء للعالم العربي بأجمعه ، أو 10% من هذه الخسارة كان يمكن أن يقيم قاعدة صناعية حقيقية في هذا البلد العربي أو ذاك. بل كان يمكن بأقل من

عشرين بالمئة من هذه الخسائر أن تقوم بسداد كافة الديون عن الدول العربية. هذه الخسائر في وقت تعاني شعوب منطقتنا من الجهالة والفقر وفي وقت سيدخل فيه سوق العملة العربي 80 مليون طالب عمل جديد خلال العشر سنوات القادمة.

أخو نابليون كتب إلى أخيه ناصحاً : حذار إذا جاءت الجماهير ! سؤالنا : لماذا على دول النفط أن تنتج من النفط أكثر من احتياجاتها للتنمية فتحول هذه المادة الثمينة من كنز ترتفع أسعاره مع الأيام باقياً آمناً تحت أراضيها، إلى أوراق كسندات خزانة في أمريكا أو كإستثمارات عند مادوف ومن على شاكلته؟ ولماذا لا تستثمر هذه الفوائض في بلدانها و/ أو بلدان أشقائها لتصبح ثروة حقيقية منتجة لا أوراق تتأكل لألف سبب وسبب؟ أم أن سؤالنا قد أخطأ العنوان؟ فالجواب في مكان آخر... هناك !....

ما قاله مادوف عن شركته "كان الأمر كله كذبة كبرى" يمكننا قوله عن النظام كله .

الإصلاح في عالمنا العربي

عندما سألتني إحدى الصحف عن ضرورة الإصلاح في عالمنا العربي ، كتبت مقالاً خلطت به الجد مع الهزل هذا نصه:

"بعد أن قسم حلفاؤنا بلادنا إلى نيف وعشرين دولة ودويلة ، تغير اسمنا من العالم العربي أو بلاد العرب أو الوطن العربي فأصبحنا الشرق الأدنى. ثم لما جاءت أيام الحرب الباردة والأحلاف ، تم ضم تركيا وباكستان وإيران إلينا فأصبحنا (الشرق الأوسط). وبعد انتهاء الحرب الباردة وضع حليف حلفائنا خريطة ومواصفات (الشرق الأوسط الجديد). وعندما تم توسيع القيادة العسكرية المركزية الأمريكية Central Command وأصبحت تشمل (الشرق الأوسط) وشمال أفريقيا ، أصبح اسمنا مينا (MENA Middle East & North Africa). غاب ذكر هويتنا العربية أو الإسلامية عن كل تلك الأسماء الجميلة والتي تم تصديرها إلينا ، ونحن ردّناها كالبيغاوات . نحن نستورد كل شيء ، القمح ، والشعير ، والحذاء والدواء ، وكذلك الأفكار والمصطلحات. ألم تصبح المقاومة للاحتلال هي وبطش المحتلين سواءً بسواء عنفاً وعنفاً مضاداً ! ثم لماذا نريد الإصلاح وهناك كثير من المصلحين والصناديق تأتي إلينا بإصلاحاتها مثل صندوق النقد الدولي وصندوق العجائب ؟ مادامت الأمور الهامة بألف خير ، فلماذا نهتم بصغائر الأمور ، مثل احتلال فلسطين ، أو احتلال العراق أو قتل مليون من مواطنيه وتهجير 5 ملايين آخرين ، أو الوقوف طوابير للحصول على الخبز الرديء بعد أن شتمنا أنظمة كانت تضطرننا إلى الوقوف طوابير للحصول على الدجاج!

نحن شعب نؤمن بان ما فات مات. نقبل إمارة يهودية على حدودنا ولا نقبل قيام إمارة إسلامية على تلك الحدود.

ألسنا بألف خير ونحن نمتلك مفاتيح أعظم موارد الطاقة في العالم – النفط – والتي يمكن أن تكون أسلحة دمار شامل حقيقي ضد أعدائنا وآلته الحربية والصناعية ، في حين نستحلفهم بالله بأن يقبلوا مبادرتنا والتي تتسم بكرمنا العربي بدءاً من الولايم وحتى الأوطان؟ ألا يدخل كل يوم أو يفترض أن يدخل كل يوم وبأسعار اليوم للبترول 2.5 مليار دولار ثمن ما نصدره من البترول – أي بلغة الأصفار 2.500.000.000 \$ كل صباح ، وبالرغم من ذلك فلدينا من أعلى نسب الفقر والبطالة والجهالة في العالم ! وبالرغم من فقر شعوبنا وجهالتها أفلا نمارس مكارم الأخلاق بحرصنا على (نمو الاقتصاد العالمي) ونرسل له جل مدخراتنا لاستثمارها في اقتصادهم أو سد عجوزات خزائهم؟ أليس ذلك من مكارم أخلاق الجاهلية وكرمها الحامي بالنوم جياً لإطعام الآخرين؟ هل قلنا جاهلية ؟ هل نحن في جاهلية أخرى؟

لكن لماذا هذا التجني ؟ صحيح أن عائدات النفط والتي كونها الله تحت أراضيها عبر مئات ملايين السنين تذهب إلى الغرب بسرعة 186000 ميل في الثانية ، وهي سرعة الضوء وسرعة انتقال الأموال بالكمبيوتر هذه الأيام. وصحيح أيضاً أن سايكس بيكو قد قسمنا إلى فئتين : الأولى ضئيلة السكان غنية الموارد ، والثانية غنية السكان فقيرة الموارد- ولكن ألا يقوم الغرب بحماية الفئة الأولى لعجزها عن حماية نفسها . وإقراض الفئة الثانية بشرط تقديم سيادتها كرهينة لسداد ديونها التي لا تنتهي – أليست تلك الأموال من فوائض بترودولاراتنا قد رُدَّ بعضها إلينا ؟ فلماذا إذن الاهتمام بالتفاصيل ؟ المهم أن مال العرب قد رجع إليهم.

دعنا نكن واضحين : هناك هذا الطريق الذي نحن فيه في عالم متعولم ، وهو يكاد يكون وضع كثير من الدول النامية في عهد ما بعد الاستعمار ، أو عصر العولمة . ولقد عرّفت العولمة في محاضرتي بجامعة هارفارد / قسم دراسات الشرق الأوسط وكلية كينيدي للسياسة بأنها "هي تلك العملية التي تسعى لتحويل دول العالم إلى جمهوريات موز عن طريق الحكم غير المباشر إن أمكن ، أو الاحتلال أو الحروب الاستباقية إن

لم يمكن ، لتصبح في خدمة الإمبراطورية الأمريكية" إذا قبلنا دخول بيت الطاعة هذا فعلينا قبوله بقده وقديده. علينا أن نقبل أن شارون هو رجل سلام ، وأن المقاومة هي إرهاب ، وعلى الإمبراطور أن يقرر كم ندفع للزكاة ولمن ندفعها ، بالإضافة إلى كيف نأكل وكيف نلبس وأي من آيات القرآن يفضل عدم قراءتها، أو إعادة كتابة التاريخ ليصبح احتلال العراق تحريراً ، واغتصاب فلسطين وعداً الهياً ! واستيرادنا للـ Aids حضارة وحقوق إنسان.

بعد سايكس بيكو جاء عهد الاستعمار وعصر شبه الاستعمار ، وعصر ما بعد الاستعمار ، أو ما يسميه البعض أحياناً بعصر الاستقلال. سمّه ما شئت وبالطريقة التي تدخل السرور إلى قلبك ، عملاً بحرية الرأي والرأي الآخر . منذ ذلك الحين رأى البعض كم كان حكيماً سعد زغلول عندما قال لزوجته: "غطيني يا صافية، ما فيش فايده" نام هؤلاء وما زالوا حتى يوم القيامة. هؤلاء قناعتهم هي ليس بالإمكان أفضل مما كان. فهل هذا "الأفضل مما كان" والذي نحن فيه قابل للاستمرار والحياة ؟

لعل أحد أساتذة جامعة MIT الأمريكية ليستر ثورو Lester Thurow قد أجاب عن هذا السؤال نيابة عني بأن الوضع الراهن ، غير قابل للحياة لهم ولنا ، حين ذكر مثلاً صينياً يُشَبَّه الأوضاع في عصر عولمتنا هذه "كسمكة كبيرة أخرجت لتوها من الماء تتحرك بعنف عليها تستطيع استعادة مكانها . وفي هذه الحالة لا تسأل السمكة إلى أين تأتي بها حركتها التالية لأنها تشعر فقط أن وضعها الحالي لا يمكن احتماله ، وهو أصلاً غير قابل للاستمرار". المفكرون بالغرب أيضاً هم لا يرون إمكانية معالجة هذا النظام من داخل منظومته . هذا ما كتبه Willis Harman " إن النظام الحالي شأنه شأن المريض الذي يذهب إلى الطبيب فيقول للطبيب إنه يقاس من عمله الذي يضنيه، لكنه يحب ما يتعاطاه من الكحول في المساء فهي تنسيه هموم النهار، وهو يدخل ثلاث علب سجاير في اليوم ، وهو يطلب العلاج ولكن دونما أي تغيير في عمله أو شربه أو دخانه! ويضيف: "ويتعمق شعور الشعوب في العالم الحالي بأنهم أصبحوا بلا حول ولا قوة.. وهم في أكثر الأحيان يعززون تلك المشاعر لإخفاق سياسات قوى النفوذ أو إلى اليساريين المتعصبين، أو إلى الرأسماليين الجشعين، ولكن حقيقة الأمر هي أعمق من ذلك وتتطلب تغييراً عميقاً أساسياً في المفاهيم والافتراضات (للنظام نفسه)"، وقال عنه بطريقة مشابهة Roger Terry "يعرف الأمريكيون أن هناك خطأ ما في أمريكا، ولكنهم لا يعرفون ما هو، ولا يعرفون لماذا ذاك الخطأ، والأهم من كل ذلك فهم لا يعرفون كيف يصلحون ذلك الخطأ..

وكل ما بإمكانهم هو الإشارة إلى أعراض المرض فقط... وفي الحقيقة فإن بعض مما يسمى حلوياً يزيد الطين بلة، ذلك أن تلك الحلول تحاول أن تغير نتائج النظام دون تغيير النظام الذي أفرز تلك النتائج".

ليست المشكلة بالآخرين وحدهم ، فنحن ما بين فئة قليلة تطابقت مصالحها مع من هم خارج أوطانها أو ممن شغفهم الغرب حباً ، وهؤلاء قال عنهم ابن خلدون قبل بضع مئات من السنين بأن "عبودية العقل هي أقسى أنواع العبوديات"، وبين فئة جمدت حضارتنا العظيمة في ثلاجة الزمن البعيد ، دون الأخذ بأدوات التحديث والعصر في حضارة حثت على الأخذ بالعلم حتى ولو في الصين.

هل هناك شرق أوسط جديد ؟ الجواب نعم ، هناك طفل قد يكون اسمه الشرق الأوسط الجديد وقد لا يكون ! وهو – كما قالت عنه كونداليزا رايس – في مخاض آلام الولادة . هو لن يكون بمواصفات رايس أو شمعون بيريز . لا أدري مَنْ غيرُ الله يدري كيف سيكون هذا الوليد لأنه من أطفال الأنابيب ، وهو قادم من رحم قانون "العواقب غير المحسوبة The Law of Unanticipated consequences لا من واشنطن ولا من أحبانها.

ليس للأباطرة أصدقاء ولا صداقات. مات ماركوس في منفاه، وضاعت الأرض بما رحبت لقبرٍ يُوارى به جثمان شاه إيران. جندت الولايات المتحدة ألوف المتطوعين البسطاء ليجاهدوا معها ضد الكفار السوفييت في أفغانستان. وبعد أن قضى الأمر، أين أصبح هؤلاء؟ منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر في غوانتانامو! ثم أين هو سوهارتو؟ وأما مانويل نورييغا فلقد بدأ حياته مخبراً ثم عميلاً من الدرجة الممتازة لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية ، حيث أوصلته إلى حكم جمهورية بنما. أما اليوم فهو السجين رقم 41586 في أحد سجون ميامي الفيدرالية بولاية فلوريدا".

المقدمة

بدعوة من جامعة هارفارد / كلية John F. Kennedy School of Government ومركز دراسات الشرق الأوسط Center for Middle East Studies ، ألقى د. عبد الحي زلوم محاضرة بتاريخ 2008-3-18 الساعة الرابعة بعد الظهر، وقدمه للحضور البروفيسور أوين Owen الأستاذ في جامعة هارفارد والأستاذ السابق بجامعة أوكسفورد . وكان الحضور متميزاً خصوصاً من أساتذة كليات هارفارد ، بما فيها كلية الدراسات السياسية للجامعة . وقدم البروفيسور أوين د. زلوم للحضور كآتي:

"أكمل عبد الحي زلوم دراسته الجامعية الأولى والعليا في جامعات الولايات المتحدة ، بما فيها هنا في هارفارد ، كلية الدراسات العليا للإدارة . عمل حوالي خمسين سنة في صناعة البترول مستشاراً عالمياً معروفاً ، وساهم في تأسيس العديد من شركات نفط أوبك الوطنية . سيحدثنا عن موضوع آخر كتبه : حروب البترول الصليبية : أمريكا بعيون عربية ، والذي تم نشره في المملكة المتحدة من Pluto Press ، وفي الولايات المتحدة من دار النشر لجامعة ميتشغن University of Michigan Press.

عندما تم اقتطاع فلسطين من الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى ، قرر مؤتمر فرساي للسلام تشكيل لجنة كنف كرين King Crane Commission وذلك لاستشارة أهل فلسطين وسوريا الكبرى بشأن تقرير مصيرهم . وكانت نتائج زيارات هذه اللجنة ، كما جاء في تقريرها ، بأن الغالبية لشعب سوريا الكبرى بما فيها فلسطين تحبذ الاستقلال ، وإذا كان لا بد من انتداب ، فلتكن الولايات المتحدة هي دولة الانتداب لتساعدهم على تحقيق أحلامهم في الاستقلال.

وحتى بعد ذلك بعقود، وعندما قام جمال عبد الناصر سنة 1952 ذو الاثنين وثلاثين عاماً ، وذو إخلاص ووطنية لا شك بهما ممزوجتين بسذاجة سياسية وقلة خبرة آنذاك، وكان على اتصال مع السفارة الأمريكية قبل وأثناء وبعد انقلابه على الملك فاروق، متوهماً بأن الدولة الأمريكية ستساعد على تحقيق أحلامه في التخلص من الاحتلال البريطاني لوجه الله تعالى وحباً للخير، والذي هو من طباعها كما كان يظنها

الكثيرون. حتى إن عميد المخابرات CIA كيم روزفلت Kim Roosevelt الذي قاد الانقلاب على محمد مصدق في إيران كان له مكتب يجاور مكتب جمال عبد الناصر لبعض السنوات بعد الانقلاب.

وحيثما تخرجت من المدرسة الثانوية في القدس سنة 1954 ، رأى والدي أن أكمل دراستي الجامعية في الولايات المتحدة ، حيث هناك العلم والحرية والعدل وطريق السعادة . فهذه الولايات المتحدة، بالرغم من قوتها وجبروتها، لم تدخل حرباً (إلا لإنهاء الحروب كافة) كما أعلن الرئيس الأمريكي ويلسون (Wilson) عندما دخل الحرب العالمية الأولى . هكذا كانت أمريكا بالعيون العربية والإسلامية .

الهوة بين الحقيقة والواقع

توجهت سنة 1954 من مطار القدس الشرقية (فلندينيا) متوجهاً للولايات المتحدة . وحين توجهت بالباص إلى الجامعة في ولاية تكساس، أثار اهتمامي جلوس السود في المقعد الخلفي للباص فقط ، فقلت – إنها صدفة. لكنني لاحظت غيابهم أيضاً عن صفوف التسجيل ، فعلمت بعد استفساري بأن هذه الجامعة الحكومية هي مخصصة للبيض فقط ، ولا يسمح (للزواج) بالدراسة فيها. وزاد استغرابي عندما ذهبت إلى مركز المدينة فوجدت إشارات ولافتات في المحال العامة ، والمطاعم، والمتنزهات (للبيض فقط) أو (لا للزواج). عندئذٍ انتابني شعور بأن أمريكا الحقيقية هي ليست كأمريكا الكتب ولا أمريكا التي كانت في مخيلتي.

لعل صدمتي هذه كانت مماثلة لما رواه كولن باول Collin Powel عن تجربته في منتصف الخمسينات أيضاً من القرن العشرين، في معسكرات التدريب العسكري في ولاية جورجيا في جنوب الولايات المتحدة ، كما رواها في كتابه (رحلتي الأمريكية). كان على باول الأسود أن يذهب بعيداً لقدس الأحد في كنيسة للسود، وقام المعسكر بتعيين سائق أبيض ليوصله للكنيسة . سأله السائق إن كان يمكن أن يحضر القداس معه ، فاستمهله لحين استئذان راعي الكنيسة والذي أخبره بدوره "إنه عادة سيكون ذلك من دواعي سرورنا لولا أن الأمر سيسوء المواطنين البيض ، فالأفضل أن يبقى السائق في السيارة" . يقول باول:

"إن الحقيقة التي أردت اغفالها بدأت تضغط على حياتي ، هذا النظام الذي يجعل من غير المسموح لرجلين أن يعبدا الله في بيت واحد ، أو يأكلا في مطعم واحد ، بل وحتى استعمال المرحاض الواحد نفسه".

كفلسطيني المولد ، ذهلت من ادعاء الصهاينة بأن فلسطين هي "أرض بلا شعب ، لشعب بلا أرض". لكن ذهولي الأكبر كان تبني أجهزة الإعلام الأمريكية هذا الادعاء الكاذب . كان العرب يمثلون 95% من شعب فلسطين سنة 1893 في بدايات المشروع الصهيوني ، حتى وإن نسبة اليهود بعد حوالي 55 سنة من الهجرة من أرجاء العالم لم تصل إلى 35% من نسبة سكان فلسطين لسنة إنشاء الدولة اليهودية سنة 1948، كما أن اليهود كانوا يمتلكون أقل من 7% من أراضي فلسطين . شاهدت التطهير العرقي الذي مارسته الدولة اليهودية في حربها سنة 1948 ، مما نتج عنها تفرغ فلسطين من أكثر عربها ، والذين هم اليوم لاجئون بالملايين. أما من بقي من عرب فلسطين فلقد تم ضدهم التمييز العنصري وأصبحوا مواطنين من الدرجة الثالثة . كانت عمليات التطهير العرقي والعقاب الجماعي تتبع تعليمات بن غوريون كما دونها في مذكراته في 1948/1/1:

"إذا اتهمنا عائلة (فلسطينية بمعادتنا) - علينا إيذاؤهم جميعاً دونما رحمة - بمن في ذلك النساء والأطفال ... وعلينا ألا نفرق بين مذنب أو غير مذنب " . عملت جهدي لأعرف لماذا تساند الولايات المتحدة هكذا نظام وهكذا عنصرية، وهي تدعي أنها تحمل أعلام الحرية والمساواة والعدل ، وأردت أن أعرف سر هذه التوأمة بين إسرائيل وأمريكا .

قررت منذ ذلك الوقت نسيان كل الأفكار المسبقة التي أتيت بها، وأن أتفكر وأمحص ذلك النظام الذي شاهدته وكتب عنه باول ، في صورته المتغيرة منذ كريستوفر كولومبوس وحتى جورج بوش، سواءً في أي صورة من صورته المتحركة من عبودية ، إلى فصل عنصري، إلى واجب الرجل الأبيض المقدس، إلى الانتقائية والاستثنائية وازدواجية المعايير ، وإلى الأحادية والحروب الاستباقية في يومنا هذا. لقد وصلت إلى نتيجة : أن كتب التاريخ ووكالات الأنباء يمكن أن تكذب ، فأصبحت لا أقبل الأمور دونما بحث وتدقيق. ووجدت أن لكل أمر حكايتين على الأقل ، إذن ، فهذه حكايتي.

صدام المصالح الإمبراطورية لا صراع الحضارات

في كتابي : حروب البترول الصليبية : أمريكا بعيون عربية ، بينت أن العلاقة بين العرب والمسلمين ، وبين الغرب تحركه خمسة عوامل كلها تبدأ بحرف G : أديان الله God ، الجغرافيا Geography ، السياسة الجغرافية Geopolitic ، الجيولوجيا Geology وأخيرا العولمة Globalization . أما الـ G المسيطرة فكانت تنتقل مع الأيام حسب الترتيب المبين هنا ، علماً بأن أكثر من عامل واحد كان يتفاعل مع الآخر. أما اليوم فعاملا الجيولوجيا (النفط والموارد الطبيعية) ، و العولمة هما المسيطران . ولنقلها بصراحة فعاملا الاستيلاء على النفط والمصادر الطبيعية ، وعولمة العالم ليصب في خانة المصالح الأمريكية أولاً وأخيراً وهما محور السياسة الأمريكية هذه الأيام.

حسب حكاية صامويل هانتغتون، البروفسور في هذه الجامعة ، صاحبة دعوتي لهذا الحديث ، وكذلك برنارد لويس وجوقته من المستشرقين والمحافظين ، فإن العالم يحكمه صراع حضارات ، أشدها الصراع بين الحضارة الغربية وحضارة الإسلام . ويبدو لي أن نظرية هانتغتون للصراع هذه قد ركزت على G الأديان، وقللت كثيراً من G العولمة . يقول هانتغتون :

"إن المشكلة بالنسبة إلى الغرب ليست مشكلة الأصوليين الإسلاميين ، بل المشكلة بالإسلام نفسه ، الذي يمتلك حضارة مختلفة يؤمن أصحابها بتفوقها في الوقت الذي يتألمون من ضعف أحوالهم. والمشكلة للمسلمين هي ليست وكالة المخابرات المركزية أو وزارة الدفاع الأمريكية ، المشكلة في الغرب نفسه ذو الحضارة المختلفة والتي يؤمن أصحابها بتفوقها وصلاحياتها كنظام عالمي ، يرغبون في فرض هذه الحضارة على العالم ". ودعني أقل إن هذا القول لا يفسر الأمور المعقدة إلا بطريقة سطحية.

حقاً ، فلقد قامت الحروب بين المسلمين والنصارى بين الحين والآخر منذ بزوغ فجر الإسلام . ولكن أيضاً فالصحيح أن حروباً نشبت في الوقت ذاته بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية ، وبين دول الكنيسة الواحدة مع الأخرى . فمنذ ما يسمى عصر التنوير استعرت المعارك بين دول أوروبا المسيحية نفسها على المغنم

والموارد والمستعمرات . ألم تكن الحرب العالمية الثانية أعنف الحروب وأشرسها في التاريخ قتل بها أكثر من 50 مليون شخص، ألم تكن هذه الحرب بين المسيحيين والمسيحيين ، وبين المسلمين وغير المسلمين من اليابان؟ ألم تكن الحرب الباردة بين الغرب المسيحي والاتحاد السوفياتي ذي الأغلبية المسيحية الأرثوذكسية؟

إذا لم يكن هذا هو صراع حضارات ، فهو صراع ماذا إذن ؟

إنه صراع المصالح الإمبريالية في عصر العولمة.

العولمة (G of Globalization)

بعد عشر سنوات مضت على كتابي نذر العولمة ، فإن تعريفي للعولمة ببساطة : هي العملية التي تسعى لتحويل دول العالم إلى جمهوريات موز في خدمة الإمبراطورية الأمريكية ، وذلك عن طريق المؤسسات الدولية مثل صندوق النقد الدولي ، ومنظمة التجارة الحرة ، والأمم المتحدة إن أمكن ، وعن طريق القوة العسكرية عند اللزوم.

سنبين هنا أن العولمة، بمفهومها الاقتصادي اليوم، هي تطور حتمي لطبيعة النظام الرأسمالي الغربي الذي تطور من اقتصاد محلي إلى اقتصاد إقليمي ، فاقتصاد وطني ، وأخيراً إلى اقتصاد العولمة هذه الأيام . ذلك لأن عماد هذا النظام هو النمو الدائم وما يتبع ذلك من التوسع بسائر الوسائل. فعند استقلالها كانت الولايات المتحدة تتكون من 13 ولاية في القسم الشرقي من القارة الأمريكية الشمالية. إلا أنها ما لبثت بالتوسع بحروب إبادة على السكان الأصليين ممن أسموهم بالهنود الحمر ، ثم بالحروب على الجوار حتى امتدت الولايات المتحدة لتشمل الأراضي الممتدة ما بين المحيطين الأطلسي والباسيفيكي. ولقد تم هذا التوسع تحت ادعاءات مختلفة وبوسائل مختلفة كانت مزيجاً من البارود والدولار ، فاشترت العديد من أراضي الولايات

من فرنسا فيما أسمى Louisiana Purchase واشترت ألاسكا من روسيا ، وانتزعت بالحروب بقية الأراضي من المكسيك من تكساس وحتى كاليفورنيا . ولقد أشعل تسارع الثورة الصناعية والإنتاج الغزير بعد إنتاج النفط سنة 1859 بطرق الحفر الحديثة، وبعد أن وصلت حدود الولايات المتحدة من المحيط إلى المحيط داخل القارة الأمريكية، بدأت الولايات المتحدة عهدها الإمبريالي – كما تسميه الانسايكلوبيديا بريتانيكا – في نهاية العقد الأخير من القرن التاسع عشر، حين شنت الولايات المتحدة حربها على الممتلكات الإسبانية ابتداءً من كوبا سنة 1898 وحتى الفلبين، والتي بقيت محتلة حوالي 50 سنة حتى نهاية الحرب العالمية الثانية . كانت الولايات المتحدة تعاني حينئذٍ من كساد كبير ، فوجدت النخبة الحاكمة أو البارونات اللصوص، كما تسميهم كتب التاريخ الأمريكية، نفسها بحاجة إلى حرب للخروج من الكساد الاقتصادي وما صاحبه من اضطراب اجتماعي. لم يكن غزو العراق هو الأول الذي قام على ادعاءات كاذبة ، وإنما كذلك كانت الحرب الأمريكية الإسبانية حين ادعى الرئيس ماكنلي McKinley أن الإسبان قد أغرقوا المدمرة الأمريكية USS Maine في ميناء هافانا بكوبا – وبعد أن تم احتلال المستعمرات الإسبانية أقرت لجنة تحقيق بعدم ثبوت الادعاء بأن الإسبان هم مسؤولون عن التفجير، والذي قد يكون لأسباب ميكانيكية . ومنذ ذلك التاريخ أصبح العالم كله مسرحاً حراً لبارونات وشركات الولايات المتحدة المتعددة الجنسيات ، وبالتدريج بدأت الولايات المتحدة بتحويل ما أمكنها من العالم ، إلى جمهوريات موز في عصر العولمة الأمريكي.

لكن العولمة صاحبته تغيرات هامة . فبعد تجديد نظام التجارة الحرة وحرية تنقل رؤوس الأموال ، بدأ الرأسماليون في وول ستريت استثماراتهم حيث العمالة الرخيصة والربح الأعلى ، ونتج عن ذلك أنه من بعد أن كانت الولايات المتحدة تمثل حوالي نصف الإنتاج الصناعي في العالم ، أصبحت اليوم مضطرة لاستقطاب حوالي 3 مليارات دولار يومياً من الخارج لتمويل عجوزاتها وحروبها . ولقد كان عجز المدفوعات لسنة 2005 يقارب 800 مليار دولار ، وأصبح لزاماً على الولايات المتحدة عولمة الاقتصاد العالمي لتعاد فوائض الدول الصناعية ذات النمو السريع خصوصاً في آسيا ، وكذلك البترودولارات. مما استدعى الولايات المتحدة إلى نشر قواعدها العسكرية في أكثر دول العالم، واستعمال قوتها العسكرية متى وكيفما تشاء هذه الأيام.

في دراسة شارك بها توماس بارنت Thomas Barnett، الباحث الاستراتيجي والبروفيسور في الكلية البحرية الأمريكية، نشرت في مايو سنة 2003 في مجلة (Military Officer Magazine) جاء فيها :

"على الولايات المتحدة أن تبذل نصيب الأسد في المجهود الأمني لدعم التقدم في وتيرة العولمة والتي نحن أكثر المستفيدين من نشرها ... وكما تدل عجوزات التجارة بوضوح ، فإننا نعيش فوق إمكانياتنا الذاتية. وعملياً، فإننا نعتمد على العالم أجمع ليقوم بتمويل عجوزاتنا ... وليس هناك ما يدعو للشكوى حول هذه المقايضة التي نبادل بها قصاصات ورق (دولارات وسندات خزينة) مقابل بضائع حقيقية".

ولكي تستمر وتتنامى عملية "مبادلة البضائع" بما فيها النفط ، مقابل قصاصات الورق، فعلى العالم أن يتبنى مبادئ العولمة ، لكن المشكلة بالنسبة للعالم بأن هذه المبادئ جاءت من كتاب "وول ستريت" غير المقدس ولم تأت من أي من كتب الله . ودعنا نبين هنا أن هذا القول هو حقيقة لا مجاز ، فجاء في كتاب "خرائط البنتاغون الجديدة" لـ Barnett الذي صدر سنة 2004 ما يلي:

"إن ورشات العمل التي جمعت بين كبار رجالات وول ستريت ورسميين من أجهزة الأمن الوطني ، وكبار الأساتذة من الأكاديميين ومراكز الفكر، كان مشروعاً مشتركاً لوضع أسس ما تم تسميته مشروع القوانين الجديدة". هذه القوانين التي تم فرضها على العالم المتعولم.

إذن:

عقدت هذه الاجتماعات في وول ستريت . لقد فرض الإسلام على أتباعه أن يقبلوا ويحترموا كتب اليهودية والمسيحية المقدسة ، لكنه لم يأمرهم بالإمتثال لقوانين الـ وول ستريت غير المقدسة، والتي وضعت ليقوموا باستبدال بترولهم ومواردهم لقاء قصاصات ورق لتمويل العجوزات الأمريكية أو تغيير ثقافتهم ودينهم في كل ما يخالف ثقافة وقوانين العولمة، وقوانين اقتصاد الكازينو الذي يديره الـ وول ستريت.

كان وما زال العرب والمسلمون يحترمون الشعب الأمريكي، لكنهم يعلمون أن نظام الرأسمالية المتعولم الذي تريده واشنطن لحساب بارونات المال، لا يسبقه أحد عندما يتعلق الأمر بتكوين الثروات، وهم يعلمون أيضاً بأن ذلك النظام لا يسبقه أحد أيضاً في الابتعاد عن العدل الاجتماعي والاقتصادي.

حروب النفط والموارد الطبيعية

The G of Geology

في دراسة قامت بها جامعة MIT المشهورة في بداية عقد السبعينات من القرن الماضي ، تم نشرها في كتاب عنوانه "حدود النمو Limits of Growth" ، تنبأت هذه الدراسة أن النظام الاقتصادي المبني على النمو الدائم، في ظل الأنماط الاستهلاكية الحالية والزيادة في عدد السكان، سيصطدم حتماً مع ما تستطيع الطبيعة أن تقدمه من الموارد قبل منتصف القرن الواحد والعشرين . وهناك الكثير من الخبراء ، وأنا منهم ، يتنبأون بأن الموارد النفطية وإنتاجها قد وصل أو قارب للوصول إلى قمته ليبدأ معه ارتفاع شاق في الأسعار وانحدار تدريجي في عهد عصر النفط . وكنت قد تنبأت منذ سنوات بحتمية وصول سعر البترول إلى المئة دولار للبرميل قبل سنة 2010. ولعل ما صرح به الرئيس جورج بوش في مايو سنة 2001 كان واضحاً وصريحاً إيداناً لبداية نهاية عصر النفط وإن لم ينتبه له الجميع، حيث قال :

"يجب على الناس أن تسمع بصوت واضح وقوي بأن موارد الولايات المتحدة من الطاقة (النفط) هي في مرحلة النضوب". ولقد كان احتلال العراق من قبل الولايات المتحدة من ضمن هذا السياق . وهذا رئيس البنك المركزي الفدرالي الأمريكي السابق Alan Greenspan يصرح في كتابه سنة 2007 "عصر الاضطراب" :

"يحزنني أنه من غير اللائق من الناحية السياسية الاعتراف بالشيء الذي يعرفه الجميع : بأن حربنا على العراق كانت أساساً بشأن النفط" . وربما كان صحيحاً بأن الكل يعرف هذه الحقيقة ... إلا الشعب الأمريكي، والشكر أولاً وأخيراً لإعلامه المتواطي.

حينما يصل إنتاج النفط إلى الذروة ، سيتبعه خلل في معادلة العرض والطلب مالم يتم ادخال بدائل طاقة جديدة . ولعل دراسة أعدت لوزارة الطاقة الأمريكية سنة 2005 تبين هذا الأمر دونما التباس:

"سيواجه العالم والولايات المتحدة تحديات غير مسبقة عند وصول الإنتاج النفطي إلى ذروته ، عندئذٍ ستبدأ أسعار النفط بالارتفاع والتذبذب الكبير ، وإذا لم يتم إدخال البدائل بطريقة متزامنة فإن كلفة النتائج

الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ستزيد . هناك بدائل على طرفي معادلة العرض والطلب ، ولكن ليكون لها نتائج يجب البدء بها قبل عشر سنوات على الأقل من الوصول إلى ذروة الإنتاج. وسيكون التعامل مع الوضع حينئذٍ بالغ التعقيد يحتاج حرفياً إلى تريليونات الدولارات وسنوات من الجهد الشاق. وسيكون تدخل الحكومات ضرورياً؛ لأن النتائج الاقتصادية والاجتماعية ستكون في غاية الفوضى في حال لم تتدخل الحكومات". فهل أصبح واضحاً لماذا هذه الهجمة المجنونة على العراق ونفط الشرق الأوسط؟

كان أول ظهور للنفط في كتب التاريخ قبل 5000 سنة في العراق ، ولربما تكون آخر قطرة منه من العراق والجزيرة العربية، والتي يكون مخزونها حوالي 70% من المخزون العالمي. وستبقى هذه النسبة في ازدياد في الوقت الذي تتضاءل به احتياطات الآخرين. فاحتياط العراق من حقله الـ 18 الحالية يزيد على احتياط الولايات المتحدة وبريطانيا وأوروبا الغربية كلها وآسيا كلها بما فيها الهند والصين عدا آسيا الإسلامية وروسيا. ويوجد في العراق 62 حقلاً لم يتم استغلالها بعد، مما يضاعف على الأقل احتياط العراق المذكور. كما أن نفط العراق هو من أقل أنواع النفط كلفة لإنتاجه.

صدق بيل ردتشاردسون ، وزير الطاقة الأمريكي حين قال سنة 1999 : "كان النفط في العقود الماضية هو الأساس الذي بُنيت عليه سياساتنا الاقتصادية والأمنية".

إذن ها نحن أمام أقوى إمبراطورية عرفها التاريخ ، جائعة للمادة التي تحرك صناعتها، وأساطيلها تغزو دولة ظنت أنها فريسة سهلة ليس فقط لتأمين احتياجاتها النفطية ولكن للسيطرة أيضاً على هذه المادة الاستراتيجية، عبر قواعد في العراق ستبقى حتى آخر قطرة من بترولها، وذلك لتفرض هيمنتها الإمبراطورية على الآخرين، وتقرر في عصر ما بعد الذروة من يأخذ كم وبأي سعر؟ ومن يقوم بتحويل فوائضه المالية لسد عجوزات الخزانة الأمريكية ... ومن لا يقوم ؟

وهكذا استقدمت المؤسسة الرأسمالية الدائمة إلى إدارة الولايات المتحدة "رئيس حرب" هو رجل نفط وابن رجل نفط اسمه جورج دبليو بوش ، ونائباً له كان لتوه الرئيس التنفيذي لأكبر شركات خدمات النفط في

العالم ومركزها تكساس ، واسم هذا النائب ديك تشيني ، ووزيرة خارجية / مستشارة للأمن القومي من مجلس إدارة كبرى شركات النفط التي دشنت إحدى ناقلات النفط العملاقة حاملة اسمها : كونداليزا رايس . إنه فريق متميز جاء ليدبر حروب النفط تحت هذه الذريعة أو تلك!

تجار الحروب :

الرابحون والخاسرون من الحروب

بعد سنة واحدة من غزو العراق ، وحسب ما ورد في صحيفة الفاينانشال تايمز، زادت أرباح شركة هاليبرتون 80% ، وزادت أرباح شركة بكتل 158% ، وزادت أرباح شركة شيفرون تيكسيكو 90% ، أما أسهم شركة صناعة الأسلحة لوكهيد مارتن فزادت 300% منذ تولى جورج بوش الحكم وسنة بعد غزو العراق. وهكذا يبدو أن التجمع العسكري الصناعي وفئة الواحد بالمئة من الأمريكيين الذين يمتلكون أكثر مما يملك 80% منهم ، هم الرابحون . ولكن من هم الخاسرون ؟ إنهم بقية الشعب الأمريكي الذي يخوض أكثر وأكثر في بحر الديون . دعونا نفتبس ما جاء في الصفحة الأولى من جريدة USA Today عدد 31 أغسطس لسنة 2006 في صفحتها الأولى بعنوان "البنتاغون يرى خطراً في المفترسين من مقرضي الجنود" :

"إن واحداً من كل خمسة من أفراد القوات المسلحة يتم اصطيادهم من مراكز للقروض يتم اقامتها بالقرب من القواعد العسكرية حيث يتم إقراض عائلات الجنود ذات الحاجة الماسة للنقود بفوائد تصل إلى 400% أو أكثر ، كما بينه تقرير جديد للبنتاغون".

إن هؤلاء الجنود المساكين وجلهم من الفقراء ، وهؤلاء العراقيون والأفغان والفلسطينيون واللبنانيون والآخرين هم الذين يدفعون ثمن هذه الحروب بالدم، كما يمولها ويمول عجوزاتها البترودولارات والدولارات الفائضة من دول آسيا النامية وسريعة النمو. لقد وصف الجنرال الأمريكي سميدلي بتليز في كتابه سنة 1930:

"الحرب هي الفساد . هكذا كانت دائماً . إنها لربما الأقدم ، والأكثر ربحاً ، والأعظم قساوة . إنها التجارة الوحيدة التي تكون أرباحها بالدولار وخسائرها بالأرواح".

لكن لسوء الحظ فإن النظام الرأسمالي الغربي والذي يتم فرضه على العالم هو نظام يكاد لا يعيش بدون حروب. وهذا دين رسك Dean Rusk وزير خارجية الرئيس الأمريكي كندي يبرر هجوم خليج الخنازير على كوبا، بقوله أمام الكونغرس، بأن الولايات المتحدة قامت بـ 102 تدخل عسكري وحرب خلال القرن التاسع عشر . ولقد أرسل لي وليام بولك بالبريد الإلكتروني نسخة عن خطابه أمام الكونغرس بعد خطاب الجنرال بتريوس سنة 2007 ، يقول فيها : إن الولايات المتحدة قامت بأكثر من 200 حرب وتدخل عسكري في تاريخها القصير. وبولك هو حفيد أحد الرؤساء الأمريكيين وبروفيسور للتاريخ بجامعة هارفارد. فهل يا ترى نستطيع أن نستنتج ونتفق مع ما قاله الرئيس الأمريكي لنكولن قبل قرن ونصف من الزمان :

"لقد تم تنويع الشركات ... وإن عهداً من الفساد في المراكز العليا سينتج عن ذلك وسينمو بارونات المال على حساب الشعب ... حتى تتمركز الثروة في أيادٍ قليلة ... وتصبح الجمهورية حطاماً ...".

تجارة الرعب

حرب على الإرهاب أم حرب إرهاب

دعنا من البداية ندين قتل المدنيين الأبرياء تحت أي حجة أو تحت أي اسم أو عنوان ، سواءً كان ذلك الاسم جهاداً أم حرباً صليبية ، اغتيالاً مستهدفاً أو غير مستهدف في الحروب، سواء قام به أفراد أم جماعات أم دول. لكن ليس هذا هو قناعات قيادات إسرائيل من قول وعمل بالأمس واليوم. إسحق شامير والذي أصبح رئيساً لوزراء إسرائيل، بعد أن كان على رأس منظمة إرهابية اغتالت مبعوث الأمم المتحدة الكونت برنادوت يقول :

"لا عقيدتنا اليهودية ولا تقاليدنا تمنع استخدام الإرهاب بوصفه إحدى وسائل القتال". كما كان رئيس الوزراء الإسرائيلي ليفي اشكول ينادي مناحيم بيغن **"بالإرهابي"** كونه كان على رأس قائمة الإرهابيين المطلوبين في بريطانيا العظمى، وهو وعصابته هم الذين فجروا فندق الملك داود.

مدير سابق لوكالة الاستخبارات الأمريكية سمى الحرب على الإرهاب بالحرب العالمية الرابعة ، معتبراً الحرب الباردة حرباً عالمية ثالثة. ويدعي بعض المسلمين أن هذه هي حرب صليبية، مستعيرين الكلمات

نفسها التي استعملها الرئيس الأمريكي بوش ، أما آخرون فيعتبرونها إرهاب دولة للاستيلاء على المصادر الطبيعية ومنها وأبرزها البترول. ومن المفارقة أن أسامة بن لادن وجورج بوش يتقاسمان صفتين هامتين ؛ أولهما أنهما ينحدران من عائلات بالغة الثراء ، وثانيهما باعتقادهما بأنهما مفوضان من السماء لشن حروبهما المقدسة. فأَي من هؤلاء وهؤلاء نُصدق؟

ومع أن أكثر الناس في العالم قد نددت بأحداث 11 سبتمبر ، لكن العالم طالب أن تُعرّف الولايات المتحدة ما تعني بالإرهاب ليشاركوها حربها هذه ، لأنه دونما تعريف فكأنما تطلب الولايات المتحدة من العالم أن يحارب شعباً. ومع أن بعض المسؤولين الأمريكيين قد صرحوا بأن هذه هي حرب أجيال، إلا أن الإدارة الأمريكية رفضت تعريف ما تعني بالإرهاب . لكن يبدو أنها لم تكن أول إدارة أمريكية ترفض تعريف الإرهاب.

في مقابلة تلفزيونية مع Amy Goodman صرح Edward Peck إدوارد بيك ، رئيس بعثة الولايات المتحدة في العراق سابقاً ، ونائب مدير لجنة مكافحة الإرهاب في البيت الأبيض أيام الرئيس ريغن بالآتي:

"في سنة 1985 عندما كنت نائباً لمدير لجنة مكافحة الإرهاب في البيت الأبيض في عهد الرئيس ريغان ، طلبوا منا ... أن نعرف الإرهاب بحيث يتم استعماله في وزارات الإدارة كافة. وقمنا بتقديم ستة خيارات للتعريف ، وفي كل مرة تم رفضها لأن القراءة المتأنيئة لها تبين بأن بلادنا كانت تمارس بعضها ...".

هل لنا أن نفترض أن إدارة بوش لم تقبل تعريف الإرهاب لمثل هذا السبب؟ في مقال زينغيو بريجنسكي ، وهو مستشار الأمن القومي السابق ، في "الواشنطن بوست" بتاريخ 28 فبراير 2008 بعنوان "كيف أضرت جملة من ثلاث كلمات (الحرب على الإرهاب) بأمريكا " : "... إن الغموض في هذه الجملة سواء نتج عن تخطيط أو بالسليقة كما حسب له مخطوطه ... قد خلق ثقافة رعب . والرعب يُغَيِّب العقل ، ويشير العواطف ، ويسهل على السياسيين تجنيد الجماهير لسياسة يريدونها ". إن تجارة الرعب هذه ، وبمساعدة مقالولي أجهزة الأمن والإعلام تزيد هذا الطين بلة.

هل يُسمّى يا ترى من يقاوم الاحتلال اللاشرعي من إسرائيل في فلسطين إرهابياً؟ أم هل هي إسرائيل التي تقوم بأعمال إرهاب الدولة ضد شعب أعزل؟ هل كان ياسر عرفات إرهابياً؟ إذن لماذا نال جائزة نوبل للسلام؟ هل كان مناحيم بيغن، وهو الذي ظهر على قائمة الإرهابيين الكبار المطلوبين من دولة بريطانيا العظمى، وقاد منظمة إرهابية فجرت فندق الملك داود – هل كان إرهابياً، إذن فلماذا تم منحه جائزة نوبل للسلام؟ إن ما يسمى بالإرهابيين للبعض هم طلاب حرية للآخرين . ومع إدانتنا للإرهاب بسائر أشكاله إلا أننا نرى أن هذه الحرب المسماة الحرب على الإرهاب هي حرب موارد ونفط في جوهرها في عصر عالم متعولم . إذا كان الأمر كذلك ، فهل يا ترى هناك من يكذب علينا وعلى شعبه وعلى العالم بأنه يكافح شعباً اسمه الإرهاب ، ألم يكن هناك إرهاب McVay في أوكلاهوما والفيالق الحمر في ألمانيا وإيطاليا ، والتاميل في سيرالينكا وغيرها، وغيرها ... فلماذا لم تبدأ الحرب على الإرهاب عندئذٍ إلى بداية نهاية عصر النفط في أيامنا هذه ؟

جاء في تقرير لـ Associated Press بتاريخ 24 يناير سنة 2008 أن مؤسستي The Center for public integrity and the Fund for Independence in Journalism وجدتا بأن الرئيس بوش وكبار مساعديه قد كذبوا 925 مرة بعد أحداث 11 سبتمبر، وذلك لتسويق خطر العراق على الأمن القومي الأمريكي. ولقد خلص التقرير أن تلك الأكاذيب "كانت جزءاً من حملة متناسقة سمّرت الرأي العام الأمريكي ، وبذلك ، قادت الأمة إلى الحرب تحت أسباب كاذبة قطعاً".

هل لنا أن نسمي هذا التناسق لتسويق الحروب بين أعضاء فريق الإدارة الأمريكية مؤامرة؟ هل نستطيع أن نسمي تواطؤ الإعلام المملوك من الشركات الكبرى والمستفيدة من الحروب مؤامرة؟ هل سيتم محاسبة من قاد حرباً قتل فيها مليون عراقي، وقتل فيها 4000 أمريكي، وأصيب أكثر من 100 ألف أمريكي آخرين بعاقة أو بأخرى، وذلك بناءً على أسباب كاذبة؟ وهل أعطت أو ستعطي أجهزة الإعلام لهذه المؤامرة من التغطية بعضاً ما أعطته من تغطية لممارسات جنسية لرئيس أمريكي مع شابة عاقلة راشدة شاركته في الحب هذا راضية مرضية؟

إسرائيل : كلب حراسة وُظف لخدمة الإمبراطوريات (G – Geopolitics)

كواحد من تلامذة المدارس الابتدائية في القدس ، فإن أستاذ مادة التاريخ قد شرح لنا عن الوثيقة التي كتبها اللورد بلفور وزير الخارجية (وعد بلفور البريطاني) إلى لورد بريطاني آخر يعده فيها بخلق وطن قومي لليهود في وطن أناس آخرين ، وبالنسبة لعقلي الفتى الفضولي تساءلت كيف يمكن لسياسي بريطاني (لورد بلفور) أن يعد متمولاً بريطانياً (لورد روتشيلد) بإعطائه بلد شخص آخر ، وقد صادف أن يكون هذا البلد هو بلدي أنا؟! ولقد تم إخباري فيما بعد أن فلسطين قد تم منحها لليهود من قبل الله ! وتساءلت حينها عما إذا كان الله يعمل في تجارة الأراضي ! وها نحن مرة ثانية نرى كيف أن الأباطرة يجندون اسم الله العادل ليبارك آثامهم الإمبريالية .

ومرة أخرى أخبرت أن الأذى الذي لحق بالفلسطينيين – بإعطاء بلدهم لشعب آخر – إنما كان نتيجة الأذى الذي ألحقه المسيحيون الأوروبيون باليهود الأوروبيين ! منطق غريب وعجيب. أما دافيد بن غوريون الصهيوني العتيد ، أحد الآباء المؤسسين للصهيونية وأول رئيس وزراء إسرائيلي فهو أكثر إدراكاً ، إذ يقول كما روي عنه في دراسة ميرشيمر – والت عن اللوبي الصهيوني في آذار 2006:

"لو كنت قائداً عربياً (فلسطينياً) لما تصالحت أبداً مع إسرائيل ، وإنه لأمر طبيعي : لقد أخذنا بلادهم نحن من إسرائيل ، ولكن قبل ألفي سنة خلت ، وأية دلالة لهذا عندهم ؟ لقد كان هناك معاداة للسامية ، وكان النازيون ، وكان هتلر ، وأوشفيتز، ولكن هل كان ذلك خطوهم ؟ إنهم يرون شيئاً واحداً فقط : لقد جننا هنا وسرقنا وطنهم . لماذا عليهم أن يقبلوا ذلك؟ " لقد كان بن غوريون على صواب ولو لمرة واحدة . لماذا يترتب عليهم أن يقبلوا ذلك؟

لا يهتم الفلسطينيون والعرب والمسلمون بالتبريرات والادعاءات أيّاً كانت بشرعية طردهم من أرضهم، ولا بهلوسة المتشددین من المسيحيين الصهاينة الجدد، الذين يساندون يهود إسرائيل انتظاراً ليوم الآخرة، فإما أن يتم تنصيرهم أو قتلهم ، وكل ما يراه العرب والمسلمون أن هناك دولة تم بناؤها على أراضيهم وأجسادهم ، وتعيش بدعم مالي زاد على 160 مليار دولار من الولايات المتحدة ، ودعم سياسي بلا حدود اشتمل على استعمال الفيتو 42 مرة حماية لممارسات إسرائيل العنصرية والمنافية لحقوق الإنسان.

ومع تقدمي في السن، تعلمت أن الإمبراطوريات تُسوّق أجنداتها تحت أقنعة مختلفة ، إذ لا يجب النظر إلى ما يقوله الأباطرة ، وإنما إلى ما يفعلون ، واعتقد أن إسرائيل الآن ليست سوى إرث امبريالي جيوبوليتيكي، وليست نبوءة كتابية توراتية ، إنها مجرد صنعة إمبراطورية ، لقد قصد بها أن تكون إسفيناً بين دول آسيا وأفريقيا العربية ، كذلك أن تعمل كحامية عسكرية قوية يُستخدم أهلها لشن حروب بالوكالة بينما يقومون بدور رجال الشرطة بالنيابة عن الإمبراطورية . وسواءً كانوا يدرون أم لا يدرون فإن غالبية الإسرائيليين هم أنفسهم ضحايا هذه الخطط الاستعمارية ، فقد عاشوا وسيستمرون في العيش في حالة من الحروب المستمرة بينما تم تحويلهم من مضطهدين إلى مضطهدين في دولة تفرقةٍ عنصرية كما ألمح الرئيس كارتر، وكما خبرت أنا عن كذب.

كأنه لم يكف إسرائيل سلب أراضي فلسطين ، لكنها جردتهم من حقوقهم الإنسانية ، ومارست ضدهم أقصى أنواع العنصرية . استمعوا إلى بعض أقوال قادة إسرائيل، وكما ورد في كتاب The Israel Lobby (2007):

"قال ميناخيم بيغن مرة بأن الفلسطينيين بهائم تمشي على قدمين . أما رئيس الأركان السابق رافائيل ايثن فقال عنهم إنهم صراصير ... داخل زجاجة. أما رئيس أركان آخر هو موشي يعلون فقال إنهم سرطان وإن عملياته ضدهم هي عمليات كيميائية" فهل هناك عنصرية مثل هذه العنصرية ؟ .

ممارسات إسرائيل هذه لا تتنافى مع القوانين الدولية وإنما مع الأخلاق الإنسانية والقوانين السماوية . هذا ما قاله كبير الحاخامات الدكتور جوناثان ساكس في بريطانيا، كما نقلته صحيفة الغارديان اللندنية بتاريخ 27 أغسطس 2002:

"لا نستطيع إهمال أوامر تكررت 36 مرة في كتبنا المقدسة. لقد تم نفيكم لكي تشعروا كيف يشعر المهجرون". وأضاف : "وبناءً عليه اعتبر الوضع الراهن كارثياً ، لأنه يجعل من إسرائيل ممارسة لأعمال تتنافى في المدى البعيد مع أعمق مبادئنا".

حيث إن الفلسطينيين هم من الساميين ، فهل لا يمكننا أن نسمي ممارسات إسرائيل من قول ، وتفريق عنصري ، وتطهير عرقي ، وانتهاكات لحقوق الإنسان ضد الفلسطينيين هي درجة متقدمة جداً من "معاداة السامية" ؟

الإمبراطورية الأمريكية : صيحة حربها : ديمقراطية امبريالية سريعة الذوبان

ما كنت أسمح لنفسي بأن أبحث النظام السياسي والاقتصادي للولايات المتحدة لو كان لكل منا سبيله . ولكن حين جعلت العولمة والإمبراطورية الأمريكية الكونية مني مواطناً في هذه الإمبراطورية ، ولو مكرهاً ، وعندما أصبح (من ليس منها فهو علينا) ، أصبح لي الحق بأن أدلي بدلوي وأبين رأيي.

بداية دعنا نصف أخلاقيات نظام هذه الإمبراطورية وعمادها الرأسمالي ، هكذا وصفه البروفيسور الأمريكي Lester Thurow في جامعة MIT ، والكاتب المعروف في كتابه "مستقبل الرأسمالية":

"في أخلاقيات الرأسمالية ، فإن الجريمة هي ببساطة أحد الأنشطة الاقتصادية والتي قد تكون كلفتها عالية – السجن – فيما لو اكتشف الأمر . ليس هناك ما يجب عدم عمله ، ليس هناك واجبات ... كل ما هناك هو قوى السوق وصفقاته".

إن مثل هذه الأخلاقيات والأنظمة خلقت أكثر من 40 مليون أمريكي تحت خط الفقر حسب الإحصائيات الأمريكية الرسمية نفسها، وذلك في أغنى بلد في الكرة الأرضية. كما أن نسبة الفقر عند الأطفال الأمريكيين هي 22.4 بالمئة بينما هي 5.1 بالمئة بالدنمارك ، 4.4 بالمئة في بلجيكا، 4.3 بالمئة في بريطانيا و 2.6 بالمئة في السويد. هذا في الوقت الذي يمتلك واحد بالمئة من الأمريكيين أكثر مما يمتلكه 80 بالمئة من الشعب الأمريكي ... إن واجب حكومات الإمبراطوريات الغربية هو حماية مصالح هذه الفئة من أصحاب وول ستريت والبارونات للصوص منذ أيام شركة الهند الشرقية حتى أمثال شركات شيفرون وهالبرتون في أيامنا هذه ، لأنها هي التي توصلهم إلى الحكم وهي التي تسقطهم عنه عند الضرورة.

في محاضرة تمت هنا ، في هذه الجامعة (هارفارد) وهذه الكلية (كلية جون كندي للشؤون الحكومية)، ألقى وزير الأمن الداخلي الأمريكي في إدارة بوش الحالية بتاريخ 12 فبراير 2008 محاضرة بعنوان "لماذا لا تعمل واشنطن بكفاءة " قال فيها الوزير مايكل شيرتوف:

"إن العقبات في طرق التغيير في واشنطن هي أساساً هيكلية (وأفسر ذلك بأن العقبة بالنظام) لا حزبية ... (وأفسر ذلك بأنه لا يهم أي حزب يأتي للحكم)، إن العقبات في وجه التغيير هي المصالح الضيقة لأفراد ومجموعات متنفذة تجعل عملية التغيير الكبير في واشنطن بالغة الصعوبة، مما يُرجح هذه المصالح الضيقة على المصالح ذات النفع العام".

دعنا نجعل شيخ الرأسماليين العالميين جورج سورس يجيب السيد شيرتوف، كما جاء في كتابه "أزمة الرأسمالية العالمية" يقول:

"الرأسمالية والديمقراطية يتبعان قوانين مختلفة ... المصالح التي تخدمها الرأسمالية هي المصالح الخاصة ، أما المصالح التي تخدمها الديمقراطية فهي المصالح العامة ، وهذا التناقض يلخصه المثل الدارج عن تناقض المصالح ما بين Main Street ويعني الصالح العام، و Wall Street أي المصالح الخاصة". ولعل هذا هو أفضل جواب للسيد شيرتوف.

لكننا نسأل : هل من الممكن أبداً أن تخدم واشنطن المصالح للعامة إذا كان هناك 70 عضواً من مجلس الشيوخ يمكن أن يوقعوا على ورقة كلينكس خلال 24 ساعة ؟

جاء في كتاب الأستاذين من هارفارد وجامعة شيكاغو عن اللوبي الإسرائيلي بأن Steven Rosen، أحد أعضاء ذلك اللوبي، خاطب Jeffrey Goldberg مراسل مجلة New Yorker بأن وضع ورقة كلينكس بيضاء على الطاولة، وقال: **"خلال 24 ساعة نستطيع الحصول على توقيع 70 من أعضاء مجلس الشيوخ على هذه الورقة البيضاء"**، وكما يتبين من سجل واشنطن وهذا اللوبي فعلينا أن نصدق السيد روزن.

يعتقد العرب والمسلمون أن (ديمقراطية صوت لكل دولار) قد صممت خصيصاً لأصحاب من يملك الدولارات ، ولذلك نقول للسيد شيرتوف بأننا نخالف رأيه لأننا نعتقد بأن واشنطن تعمل جيداً لخدمة مصالح الأقلية – الواحد بالمئة – بارونات المال والتجمع الصناعي العسكري. ولعل هذا ما عناه الكاتب المعروف William Grieder كما جاء في كتابه "من سيخبر الشعب؟":

" إن الرسالة الصريحة لهذا الكتاب هي أن الديمقراطية الأمريكية في مأزق عميق أكبر مما يتصوره الناس ... ففي أعلى مراتب السلطة في الدولة ، فإن قوة القرار قد انتقلت من الشعب إلى فئة قليلة".

ولعل الكاتبة الهندية المبدعة Roy Arundhati قد وصفت الوضع جيداً بخطابها سنة 2003 في نيويورك حين قالت :

"وهذا نحن ، تجابهنا إمبراطورية منحت نفسها حق إعلان الحرب متى شاءت ... والديمقراطية هي صيحة حربها ، ديمقراطية يتم ايصالها إلى عتبات البيوت بواسطة الصواريخ ، أما الموت فهو ثمن بسيط لشرف تذوق هذه الديمقراطية الإمبريالية سريعة الذوبان ، والتي يمكن شراء واحدة منها وأخذ الأخرى بالمجان".

المهمة المستحيلة : القرن الأمريكي الجديد

كتب Henry Luce سنة 1941 مؤسس مجموعة مجلات Time في مجلة Life التابعة لتلك المجموعة، مقالاً بعنوان "القرن الأمريكي" جاء فيه :

"علينا أن نقبل بشكل كامل واجبنا وفرصتنا كأقوى دولة في العالم ، وبناءً عليه، أن نفرض على العالم نفوذنا لأي غرض نختاره ، وبأي طريقة نراها مناسبة". ولعل مبدأ بوش لسنة 2002 وجماعة "القرن الأمريكي الجديد" التي جاءت بأغلبية المحافظين الجدد لإدارة بوش هو تكرار لما قاله Luce ، فلا عجب فكلاهما من أعضاء جمعية الجماعم والعظام Skull \$ Bones الفائقة السرية التابعة لجامعة Yale ... وهكذا أصبحت هذه الأحلام الإمبراطورية سياسة أمريكية رسمية ، فهل سيكتب لها النجاح ؟

يعتقد المؤرخ العالمي المشهور Eric Haubsawn كما جاء في محاضرة ألقاها هنا بجامعة هارفارد بتاريخ 20 أكتوبر 2006 بأن الجواب – لا – وهذا ملخص ما جاء بمحاضراته "لربما تسبب الإمبراطورية الأمريكية الفوضى والبربرية بدلاً من حفظ النظام والسلام". وقال "إن هذه الإمبراطورية سوف تفشل حتماً"، ثم أضاف "هل ستتعلم الولايات المتحدة الدروس من الإمبراطورية البريطانية أم إنها ستحاول المحافظة على وضعها العالمي المتآكل، بالاعتماد على نظام سياسي فاشل وقوة عسكرية لا تكفي لتنفيذ البرامج التي تدعي الحكومة الأمريكية بأنها قد صممت من أجلها؟".

علمنا التاريخ الحديث بأنه يمكن للإمبراطوريات أن تنهار بين عشية وضحاها كما في الاتحاد السوفياتي . إن النظام الإمبراطوري الأمريكي وعماده هو الشركات العملاقة قد بدأ ينوء تحت وطأة الانهيار المفاجئ للشركات ، فهذه شركة LTCM، وهذه Enron، وهذه شركة وول ستريت العملاقة Stearns تنهار قبل أيام وتهبط قيمتها السوقية 93% خلال أقل من أسبوع .

مستقبل إمبراطوريات هذا الزمان هو الموت المفاجئ ، بسكتة قلبية اقتصادية.

المسلمون والعرب وأكثر العالم يتمنون على أمريكا أن تقرأ كتبها المقدسة جيداً لتعلم أفضل الطرق لمحاربة الإرهاب . فقبل آلاف السنين قال إيسياه " إنه فقط بزرع العدل يمكن أن يعم السلام".

ملاحظة: تم إلقاء المحاضرة شفهيًا دون الرجوع إلى النص الحرفي إلا في حالة الاقتباس.

" إن الرأسمالية والديمقراطية تتبعان مبادئ مختلفة ومتنافرة تمامًا. إن أهداف هذين المبدأين مختلفة: ففي الرأسمالية الغاية هي الثروة، أما في الديمقراطية فالغاية هي السلطة السياسية. كما أن معايير هذين المبدأين مختلفة: ففي الرأسمالية يعتبر المال هو وحدة القياس، أما في الديمقراطية فهي صوت المواطن. إن مصالح هذين المبدأين مختلفة أيضًا: ففي الرأسمالية تعتبر المصالح الشخصية الخاصة هي الأهم، أما في الديمقراطية فلا شيء فوق صوت المصلحة العامة. وفي الولايات المتحدة، يتمثل هذا التوتر بين الرأسمالية والديمقراطية في الصراع الأزلي بين بارونات المال والشعب".

جورج سوروس George Soros

أزمة الرأسمالية العالمية *The Crisis of Global Capitalism*

الفصل الأول

الرأسمالية : قديمها جديد وجديدها قديم

مع أن الناس قد أصبحوا واعين لظاهرة ما أسموه بالعولمة في الربع الأخير من القرن العشرين ، إلا أن ذلك كان نتيجة السرعة التي طرأت على عملية وديناميكية العولمة ، والتي تسارعت نتيجة تسارع الاكتشافات التكنولوجية في الفضاء ، والاتصالات ، وتقنية المعلومات . ولقد كانت عملية العولمة بطيئة ، تكاد تكون بشكل غير محسوس، إلا أن تسارع الأحداث والاكتشافات قد جعلت ملاحظتها أمراً لا يمكن تجنب رؤيته أو ملاحظة تأثيراته ، لأنها قد أصابت دروب الحياة كافة. وما ندعيه هنا أن عملية العولمة كانت عملية تتطور ببطء على مدى التاريخ إلا أنها أخذت وتيرة ثورية في العقود القليلة الماضية .

إن عملية العولمة هي تطور طبيعي ، اللهم إلا أن الاختلاف هي في النظم التي تتحكم بها . فهي مثل جهاز الكمبيوتر ، المهم ما هو النظام Soft Ware الذي يتم تشغيله على هذا الجهاز. وكما يقال عن الكمبيوتر Garbage out،Garbage in ، أي إذا كانت المدخلات خاطئة ، ف كذلك ستكون النتائج. وإن مدخلات عولمة الرأسمالية التي تعتمد على الجشع والكذب والمادية المجردة والمضاربات والحروب لا يمكن لمخرجاتها إلا أن تكون ما نرى عالمنا عليه أيامنا هذه.

قبل أكثر من مئة وخمسين سنة ، وتحديداً في سنة 1848 نظّر كارل ماركس أن ضرورات الإنتاج الرأسمالي ستدفع بالرأسماليين للذهاب إلى كل مكان، وأن يؤسسوا التجارة في كل مكان ، مما حدا بـ Paul Lewis بول لويس أن يكتب في النيويورك تايمز بتاريخ 27 يونيو 1998 "عندما يزور القراء (المانيفستو

الشيوعي) في عامه الخميس بعد المئة، يفاجأ القراء سواءً كانت ميولهم نحو اليمين أم اليسار بدقة تعريف كارل ماركس للاقتصاد العالمي هذه الأيام". يبدو أن ماركس عرف الداء لكنه لم يعرف الدواء.

كان الانتقال من الاقطاعية إلى الرأسمالية في أوروبا ناتجاً عن تغيرات ايدولوجية وتكنولوجية . كانت الثورة البروتستانتية ، أو ما أسماه البعض "عصر التنوير" هو الغطاء الأيديولوجي الذي حلل الربا، والذي حرّمته الشرائع الدينية كافة من الإسلام إلى المسيحية وحتى إلى اليهودية، التي سمحت به فقط على الغوييم من غير اليهود وحرّمته بين اليهود أنفسهم.

أما الاختراعات التكنولوجية فكانت استعمال البخار في الصناعة ، والقطار ، ومحرك الاحتراق الداخلي ، والكهرباء ، والطاقة النووية وأخيراً الذكاء الاصطناعي والكمبيوتر. نتج عن هذه الاختراعات تطوير الأسواق من محلية إلى اقليمية إلى قومية ثم إلى عالمية، فتم تركيب مبادئ الرأسمالية على أدوات العولمة هذه، مما نتج عن ذلك ما أسلفنا من نتائج هي من طبيعة ذلك النظام من الإنتاج الكمي ، ومن حروب واضطرابات ومصائب، فتقدم الوسائل وقوتها جعل من كل حرب أشرس مما قبلها، ومن كل كارثة اقتصادية أشدّ ضراوة وقسوة من سابقتها ، ومع أن كلمات العولمة قد كثر استعمالها مؤخراً إلا أنها كانت تتطور مع الزمن ابتداءً من طريق الحرير وحتى اليوم . لقد ترجم المسلمون علوم وفلسفة اليونان والرومان وأضافوا عليها كعلم الجبر ، بل اختراع "الصفر" ، وبدونه فإن علوم الكمبيوتر والتي تعتمد عليه ما كان لها أن تنطلق وتطلق عصر معلوماتنا هذا. كما ترجم الأوروبيون أعمال المسلمين العلمية والأدبية وأضافوا عليها.

كانت سرعة الحركة والانتقال وسرعة تطور العولمة تتطوران تطوراً طردياً . فحتى القرن التاسع عشر كان الحصان هو السرعة القصوى للانتقال، إلى أن جاء القطار فأصبحت سرعته تصل إلى 150 كيلو متراً في الساعة ، ثم السيارات فالطائرات والصواريخ. وكان إنتاج النفط بكميات كبيرة وبوسائل حديثة سنة 1859 نقطة حاسمة، بحيث يمكن الادعاء أننا في آخر سنوات القرن التاسع عشر وحتى اليوم نعيش ما يمكن تسميته عصر النفط، وبعد انطلاق الثورة الصناعية أصبح ما يسميهم المؤرخون الأمريكيون أنفسهم بالبارونات اللصوص، خلفاً لبارونات الإقطاع، وأصبح هؤلاء هم عماد النظام الرأسمالي الصناعي، فالرأسمالية قد اشتقت اسمها من الرأسمال وسُخر النظام كله لخدمة رأس المال وأصحابه.

تجارة حرة بقوة السلاح قبل منظمة التجارة الحرة

بينما كان التنافس بين الإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية يزداد حدة ، أبحر نابليون على رأس 40000 جندي تحملهم 300 سفينة لغزو مصر . واحتل القاهرة في 25 يوليو 1798 بعد معارك غير ذي شأن. وتتماماً كما دخل الأمريكيان بغداد في 9 ابريل 2003 أصاب المماليك وجيشهم وأهل القاهرة "الصدمة والرعب"، وهذا كان اسم عملية احتلال العراق الأمريكية لكنها كانت موديل 1798. في البداية نزل الجنود الفرنسيون إلى الشوارع في القاهرة دون سلاحهم ، وكذلك المارينز الأمريكيان في بغداد، فالناس كانوا مازالوا في حالة ذهول ! ولقد اشترى الجنود الفرنسيون كل شيء بأعلى الأسعار ليجذبوا السكان إلى جانبهم، تماماً كما فعل الأمريكيون عند غزوهم بغداد. ولقد أحضر نابليون معه 36 عالماً ليتفهم عقلية المصريين وثقافتهم ولتغيير القانون من الشريعة إلى قانون علماني، وهو هدف واطب عليه الغرب إلى يومنا هذا. وكما أعلن رامسفيلد وزير دفاع الغزو الأمريكي بأن جنوده قد جاءوا ليحرروا العراق ، كذلك أعلن نابليون أنه جاء وأحضر معه "التنوير" والتحرير. وكما حكم بريمير أول مندوب سام أمريكي في العراق بمراسيم تحمل قوة القانون ، كان هذا ما فعله أيضاً نابليون قبله بأكثر من مئتي سنة .

عندما دخل نابليون القاهرة جمع كبار أهل القاهرة وأبلغهم بأنه يريد أن يحكم بواسطة عشرة ينتقيهم منهم، وهكذا أصبح لنابليون ما يعادل CPA أو السلطة المركزية المؤقتة التي أنشأها الأمريكيون بعد الاحتلال. ولقد جعل نابليون من القصر الجديد لحاكم مصر السابق محمد بيه الألفي قصراً لإدارته ، وهكذا أصبح لنابليون "منطقته الخضراء"، كما جعل بريمير من منطقة القصر الجمهوري لنظام صدام حسين منطقته الخضراء!

وعندما أفاق المصريون ، كما أفاق العراقيون من صدمتهم ، لم يعجبهم الاحتلال ... فقاموا بثورة مسلحة أسماها نابليون ، كما أسماها الأمريكيان تمرداً ! ولقد كان رد فعل نابليون بأن وجه مدافعه ضد الأزهر كونه مركزاً للمقاومة ، وعلى غرار جورج بوش كان نابليون مصمماً على الاستمرار في سياسته ، فبدأ بتغيير جنرال وراء جنرال ، فأرسل الجنرال دويوي General Dupuy لوقف "التمرد" حيث تطورت

المظاهرات إلى ثورة في أكتوبر 1798. ولقد قتل الثوار الجنرال دوبوي مع العديد من جنوده ، فرأى نابليون أن يتخذ أشد أنواع العقاب، حيث اعتقل رؤوس المقاومة، بمن فيهم رئيس جمعية المكفوفين والذي تم إعدامه مع أربعة آخرين . صعد الفرنسيون من قمعهم . دسوا السم للكلاب لأنها كانت تعوي وتتنذر المقاومين قبل وصول الجنود الفرنسيين إلى معقلهم! كما دمروا أجزاء من المدينة بأكملها بما فيها المساجد والمنازل والقصور . لا بد أن هذه كانت "فلوجة" نابليون.

لاحظ نابليون أن المماليك والعثمانيين والإنكليز قد كونوا محوراً – لابد أنه كان محور شر ، فرأى بالهروب إلى الأمام فغزا فلسطين ، لكنه هُزم في عكا، وهكذا وفي جناح الظلام سافر سراً إلى فرنسا في أغسطس 22، 1799. وكما كافأ الأمريكيون جورج بوش على خيبته في العراق بولاية ثانية تم تسمية نابليون بعد رجوعه "القنصل الأول". ترك نابليون الجنرال كليبر في القاهرة يتدبر الأمر . لكنه قُتل على يد أحد الثوار المسلمين غير المصريين ويدعى سليمان أليبين (Suleiman Alepin) – هل هذا أحد الأصوليين أم إنه من القاعدة ؟ تم تنفيذ حكم الإعدام بسليمان واثنين آخرين معه، وتم تعيين الجنرال مينو Menou والذي اعتنق الإسلام فيما بعد، حيث أصبح اسمه الجنرال عبد الله جاك مينو ، وتزوج من مصرية وأنجب ولداً أسماه سليمان!. لكن "محور الشر" الثلاثي من المماليك والعثمانيين والإنجليز قد انتصروا أخيراً ورجعت مصر ولاية تابعة للسلطان العثماني سنة 1805.

عمل محمد علي قائداً للجيش العثمانية وعمل بتوافق مع الإنجليز . ويبدو أن تفاهماً ضمناً مكنه من المحافظة على مركزه لاحقاً كحاكم ولاية مصر العثمانية . بقي النفوذ البريطاني مؤثراً في مصر إبان فترة حكم محمد علي، إلا أنه حاد عن الطريق كما سنرى فتحت ازاحته.

عندما احتل نابليون مصر ، كانت مصر على مفترق طرق استراتيجي . ومع أنه لم يُفصح عن أن هدفه الحقيقي كان الوصول إلى الهند درة التاج البريطاني ، إلا أن ذلك كان مفهوماً ضمناً، كما لم يعلن جورج بوش عن هدفه الحقيقي وهو السيطرة على منابع النفط وإن كان أمراً مفروغاً منه عرفه القاصي والداني.

حكم محمد علي مصر 43 سنة (1848 - 1805) . ولعل التدخل السافر للغرب في شؤون العالم الإسلامي كان سبباً رئيسياً للإبقاء على التخلف بهذه الطريقة أو تلك، وضرب كل حركات التحرر أو التقدم الاقتصادي أو الاجتماعي أو العسكري قبل أن تصبح خطراً على مصالح الغرب ، فبعد أن تربع محمد علي على كرسي الحكم وقيامه بمركزة السلطة بين يديه ، قام بثورة صناعية وزراعية طموحة . وفي الشأن الزراعي ، فقد ضاعف المساحات المزروعة وكذلك نوع المزروعات للأنواع القابلة للتصدير ، فأنشأ نظاماً زراعياً مركزياً بحيث حدد مساحة ما يزرعه المزارعون ونوع المحصول لزراعتهم، واشترى محصولهم والذي كان يباع بربح، واستعمل الربح في بناء المشاريع العامة وقنوات الري ، والطرق والسدود، بالإضافة إلى تمويل المشاريع الصناعية وتقوية الجيش . وتم بناء مصانع النسيج والسكر والزجاج وتم شراء الماكينات من الغرب والاستعانة بخبرائهم . وكما كان يفعل الأوروبيون فلقد تم حماية الصناعة المصرية خصوصاً في سنوات تكوينها الأولى ، مما حسن من ميزانه التجاري باستمرار. و كون جيشاً قوياً وبحرية قوية، وكاننا تحت تصرف السلطان العثماني عند الطلب.

أرسل محمد علي جيوشه لقمع حركة الوهابيين في الجزيرة العربية ، كما أرسل جيوشه وأساطيله لمساعدة السلطان في إخماد الثورة اليونانية . أصاب الأوروبيون القلق من تنامي قوة محمد علي البرية والبحرية ، فقام أسطول من تحالف القوى الأوروبية بإغراق أسطول محمد علي في نافرينو Navarino في أكتوبر 24 سنة 1828 جنوب شواطئ اليونان.

بعد أن أثبت قدراته العسكرية شجعت بعض القوى الأوروبية محمد علي على احتلال عاصمة الخلافة العثمانية ، وبعد احتلال بلاد الشام بواسطة إبراهيم باشا، استمر نحو الاستانة حيث دحر الجيش العثماني ولم يوقفه سوى القوى الأوروبية التي أُنذرت والده بالتوقف وإلا محمد علي الألباني الذي لم يتكلم العربية بطلاقة ، وابنه إبراهيم (بالتبني من زوجة يونانية) أراد إنشاء دولة تقوم على العروبة والقومية العربية ، وتتفصل عن الدولة الإسلامية العثمانية ، والتي كانت في حالة وهن وضعف بل "مشروع إمبراطورية جاهزة للسقوط" متى سمحت الجيوبوليتكا بين القوى الأوروبية لذلك . رأى الغرب أن أفضل طريقة لحد قوة محمد علي هي تقنين مصادره المالية . فكما أجبرت بريطانيا الدولة العثمانية على توقيع معاهدة التجارة الحرة بمعاهدة بالتاليمان Balta Liman سنة 1836 بشروط حابت بريطانيا ، فلقد طُلب من محمد علي أن يفعل الشيء نفسه . لكنه لم يستجب حيث أن مثل ذلك سيحرمه من عوائد الجمارك، كما سيعرض صناعته وزراعته إلى

منافسة غير متكافئة مع أوروبا . عندها هاجمته بريطانيا بالتعاون مع العثمانيين في بلاد الشام وتم إخراجها منها بعد حكم دام عقداً من الزمن ، بعد أن قصفت البحرية البريطانية قوات محمد علي في بيروت في سبتمبر 1840 ، وفي عكا في أكتوبر ، وأخيراً رست قطع بحرية بريطانية في ميناء الاسكندرية وتم إجبار محمد علي على توقيع اتفاقية التجارة الحرة سنة 1841 . وبذلك أجبر محمد علي على التخلي عن سائر سياساته الاقتصادية، وأن يخفض الضرائب والجمارك على المنتجات الأجنبية مما أدى إلى اندثار الصناعة المصرية التي بناها خلال عشرات السنين . وكذلك تم وضع حدود لإعداد وعدة جيشه. وكما كان متوقعاً ، فلقد انخفضت إيرادات الدولة بـ 80% بعد سنة من هذه الاتفاقية وبدأ الدين يتراكم على مصر، مما سبب بانهيار عصبي لمحمد علي. وبقيت صحته تتدهور إلى أن تم عزله في يوليو سنة 1848، كما توفي ابنه إبراهيم في نوفمبر من السنة نفسها. وبقي الدين على مصر بازدياد بالرغم من وجود المستشارين الأجانب حتى وصل إلى مئة مليون جنيه سنة 1879 ، الأمر الذي أدى إلى احتلال مصر تحت دعوى إدارة الاقتصاد المصري لسداد ديونه ، الأمر الذي يقوم به هذه الأيام صندوق النقد الدولي ، فبعد إغراق البلدان بالديون ، يأتي صندوق النقد الدولي بشروطه Conditionalities وخبرائه ليضعوا الشروط وليقبعوا في دوائر الدولة لإدارة الاقتصاد والديون . وكما أن البنك الدولي يُشجع الدول النامية على بناء المشاريع من موانئ ومحطات كهرباء ، ثم يأتي الوقت الذي تباع هذه المنشآت نفسها بأبخس الأسعار لسداد الديون تحت برامج الخصخصة، كان الأمر نفسه يتم في السابق ، فبعد أن استدانّت مصر الملايين لمشاريعها ومنها فتح قناة السويس ، اضطرت الحكومة المصرية أن تبيع أسهمها في القناة لقاء 4 ملايين جنيه فقط ، أي 4% من حجم ديونها . استدانّت الإمبراطورية البريطانية هذه الملايين الأربعة من عائلة المرابين العالميين آل روتشايلد ، وكان المستدين رئيس الوزراء البريطاني دزرائيلي!.

صدام حسين ومحمد علي : مقارنة

إذا ادّعينا أن جديد الرأسمالية وإمبراطورياتها هو قديم وقديمها جديد ، فدعنا نقارن بين إمبراطورية بريطانيا بالأمس مع محمد علي وإمبراطورية اليوم الأمريكية مع صدام حسين.

- كان كلاهما رجلاً قوياً ركز السلطة بين يديه وأحياناً بتعسف وقسوة.

- جاء كلاهما بموافقة ولو ضمنية على الأقل من إمبراطورية زمانه .
- وكلاهما كان علمانياً.
- وبنى كلاهما قاعدة صناعية وجيشاً قوياً.
- وكلاهما تخطى حدود القوة المسموح بها من إمبراطورية عصره.
- أمم محمد علي منتج بلاده الزراعي لبناء دولة قوية، وكذلك أمم صدام حسين منتج بلاده الرئيسي النفط للغرض نفسه.
- حارب محمد علي حروباً بالوكالة عن الآخرين في الجزيرة العربية واليونان ، كما حارب صدام حسين من حيث يدري أو لا يدري حروباً عن الآخرين في حربه الإيرانية العراقية.
- تم إجبار محمد علي على توقيع اتفاقية التجارة الحرة وأساطيل بريطانيا جاثمة في الاسكندرية ، كما أجبر صدام حسين على توقيع اتفاقيات عدة تحد من تسلحه وقدراته، نتيجة الاحتلال الأمريكي المباشر لجنوب بلاده، كما كان أحد بل أهم نتائج الاحتلال الأمريكي الأخير، تدمير النظام الاقتصادي السابق واستبداله بنظام التجارة الحرة.

كان انتقال الغرب من الاقطاعية إلى الرأسمالية ، وتزاوج رأس المال والتكنولوجيا ، واستعمار الدول ونهب خيراتها وثرواتها، وخلق طبقة من العملاء الفاسدين في المستعمرات السابقة، كلها مجتمعة سبباً في تخلف العالم العربي والإسلامي والثالث.

في الرأسمالية: الحكم لأصحاب رأس المال وشركائهم

في 31 ديسمبر لسنة 1600 أصدرت الملكة اليزابيث ملكة بريطانيا مرسوماً ملكياً إلى العديد من التجار لتأسيس شركة الهند الشرقية البريطانية، وإعطائها حصر التجارة مع القارة الهندية. وإلى أن تم حلها سنة 1858 مارست الشركة مهام الدولة وامتلكت الجيوش، وأنشأت المدن لخدمة أهدافها، ومنها هونغ كونغ وسنغافورة في الشرق الأقصى، وكذلك المستعمرات بما فيها سانت هيلينا التي تم نفي وسجن نابليون بها ! ولقد كان أحد منتجاتها - الشاي - سبباً مباشراً في إشعال الثورة الأمريكية، حيث قررت أن تعين وكلاء لها في المستعمرات الأمريكية لبيع الشاي وحصر مبيع هذه المادة بمنتجاتها فقط ، مما أثار حفيظة التجار القدامى حيث قاموا بقذف الشاي المحمل على السفن في ميناء بوسطن في البحر . ولعبت هذه الشركة دوراً

هاماً في الطرق المؤدية من أوروبا إلى الهند، فعقدت بواسطة حكومتها في الهند المعاهدات مع شيوخ الخليج العربي، والتي سميت بعد ذلك بالمشيخات المتصالحة ، وذلك لتأمين الطرق عبر العراق والخليج إلى الهند وبالعكس.

شركة أخرى هي شركة الهند الشرقية الهولندية، والتي تم تأسيسها عام 1602، والتي أعطيت حق الاستعمار في آسيا وخصوصاً ما يسمى اندونيسيا هذه الأيام . ولقد استمرت حتى تم حلها سنة 1800 . لقد كانت القسوة والوحشية سمتين لهاتين الشركتين. ففي مايو 1619 تم تعيين جان كوهين Jan Cohen حاكماً عاماً للهند الشرقية الهولندية على سبيل المثال ، فقام باحتلال وتدمير جاكارفارتا وأقام على أطلالها باتافيا، والتي جعلها مقر رئاسة الشركة ، وخلال سنة تم قتل أو تجويع حتى الموت جميع سكان جزر الباندا، وتم استبدالهم برقيق أحضرهم الهولنديون مكانهم . وفي سنة 1669 أصبحت هذه الشركة الأغنى في العالم ، حيث كان عدد موظفيها أكثر من 50000 ، ولها جيش قوامه 10000، وصارت تمتلك 40 قطعة حربية بحرية واسطولاً تجارياً من 150 سفينة، وكانت تدفع إلى المساهمين أصحابها أرباحاً سنوية بمعدل 40% من قيمة أسهمهم!

إن شركات هذه الأيام العبرقراطية ما هي إلا نسخة طبق الأصل عن نماذج شركات الهند الشرقية، اللهم إلا بتباين في الوسائل التي أتاحتها التكنولوجيا الحديثة ، مع الإبقاء على الأهداف واحدة في الحالتين . فقديماً تلك الشركات هو جديد الشركات العبرقراطية.

الاقتصاد الجديد قديم

لقد كان الاقتصاد الجديد إحد أكبر أكاذيب القرن العشرين، فهو لم يكن سوى رخصة "جديدة" لول ستريت لتبرير سرقاتها. ولم يكن هناك أي شيء جديد في هذا الاقتصاد الجديد، سوى أنه أصبح أكثر شدة في مضارباته، وزادت طفيليته بشكل أكبر، حيث بقي جوهر النظام الاقتصادي على حاله.

لقد تكيف هذا الاقتصاد الجديد القديم مع وسائل جديدة تعمل على تعاضد ثروات ومنافع البارونات اللصوص. وقد كانت الحواسيب والإنترنت اختراعات تقنية ثورية في النصف الأخير من القرن العشرين. ولكن هذه

الصفات تنطبق أيضاً على الاختراعات في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مثل الكهرباء والبترول التي كانت اختراعات ثورية أيضاً، ولكن "عبادة الجديد" هي تقليد أميركي قديم. فأميركا هي العالم الجديد، والأمة الجديدة، والقارة الجديدة. أما الاقتصاد الجديد فلم يكن سوى إحدى صرعات أصحاب وول ستريت، والذين يستخدمون طرقاً ووسائل جديدة وتقنيات الكمبيوتر، وتسخير علماء الصواريخ لتعظيم نهيمهم للاقتصاد المنتج.

لقد سئل روبرت صامويلسون (Robert J. Samuelson) في تعليق نشر في مجلة نيوزويك في 2001/4/17: "ما هو الاقتصاد الجديد؟ إنه يبدو في معظمه حالة ذهنية، وقناعة، من خلال معجزات التقنية، بأن الاقتصاد قد دخل مرحلة النعيم الدائم الذي يعج بوعود الخير ويخلو من أية مخاطر. وقد قامت هذه الثقة المفرطة بتغيير النمط السلوكي للاقتصاد، مسببة ازدهاراً في سوق الأوراق المالية وفورة في الإنفاق الاستهلاكي. ويبدو المستقبل غاية في الإشراف، حتى إن الناس باتوا لا يخشون أن ينفقوا بسخاء، وقد أظهر انتعاش السوق المالي الأسبوع المنصرم هذه الثقة بصورة واضحة. ولكن هذا الوضع ينطوي كذلك على خطر الهشاشة. فلو هزّ أي شيء هذه الثقة المفرطة، التي وصلت حدودها القصوى، فإن الأسهم ومبيعات التجزئة قد تنهار أو تنخفض، وبذلك فإن الاقتصاد الجديد سيبدو وكأنه الاقتصاد القديم." لقد قام مالكو وول ستريت ووسائل الإعلام الناطقة بلسانها بدمج قوتهم المالية مع قوتهم المعلوماتية؛ لخلقوا رأسمالية معلوماتية أسموها "الاقتصاد الجديد".

لقد أثبت التاريخ أن مالكي وول ستريت يعتبرون أن القديم جديد والجديد قديم، فاللعبة هي ذاتها دائماً. ولو قمنا بتغيير التاريخ وبعض الأسماء، فلن يعرف أحد ما إذا كانت عملية الاحتيال قد تمت في هذا القرن أو في القرن الذي سبقه. وحتى عمليات الاحتيال والخداع هي ذاتها دائماً. وهذا ما يجعل الانحلال الأخلاقي جزءاً لا يتجزأ، إلى جانب الفضائح، من ثقافة وممارسات وول ستريت وبارونات الأموال اللصوص. وقد كتب غاري وايز (Gary Weiss) قائلاً: "إن فضائح السماسرة الماليين لا تنفك تتكرر مرة تلو الأخرى—مع تغيير أسماء الأشخاص فقط دون المساس بقانون اللعبة... إن الفضائح المتكررة هي جزء من نسيج وول ستريت ونتاج لأخلاقياته والقوانين المطاطة التي تحكم عملياته، والتي تبقى دونما رقابة لسنوات طويلة." وتتماها كما هو حال عمليات الاحتيال في شركات الانترنت التي سادت في العشرينات المدوية والعقد الأول من القرن الواحد العشرين، فإنه كانت هناك عمليات احتيال مشابهة خلال العشرينات المدوية والسنوات الأولى من

الثلاثينيات". ويضيف وايز: "من المؤكد أنه لا توجد عمليات احتيال جديدة في وول ستريت، إنها تلك العمليات القديمة نفسها بعد نفض الغبار عنها. ولو تفحصنا كل الكتب المتاحة للجميع والمنشورة عن وول ستريت، لوجدنا هذا الأمر واضحاً وضوح الشمس، رغم أن صفحات تلك الكتب قد أصبحت صفراء لشدة ما أكل الدهر عليها وشرب. أحد هذه الكتب، الذي يمكن أن يبدو وكأنه قد كتب أمس— مع أنه كتب في الواقع عام 1932— كان بعنوان "ممولون من مختلف الطبقات High and Low Financiers"، وهو استعراض "لبعض المحتالين وممارساتهم التي تسيء إلى نظامنا الحديث المتبع في بيع الأسهم." ويعيد الكتاب إلى الأذهان حالة اتخذت فيها شركة هاردي وشركاه للسمسرة Hardley & Co والتي اندثرت منذ زمن بعيد- مركزاً ضخماً في شركة طائرات، من خلال شراء كمية كبيرة من أسهمها، ثم أصدرت عام 1929 نشرة تحت على الشراء، مع اتباع نمط التسعينات في تحديد السعر المرغوب. علماً بأن الوضع الحقيقي للشركة التي تم إسباغ هذه الأوصاف المشرقة عليها كان في الواقع سيئاً. " وكما قال المؤلف: ألا يبدو هذا القول مألوفاً؟"

يعتمد النظام الرأسمالي الأمريكي ونظامه المالي والاقتصاد برمته على وول ستريت لجمع وتخصيص رأس المال. وقد ظل تضارب المصالح على الدوام جزءاً من وول ستريت. فالبنوك الاستثمارية تقدم خدماتها لطرفين، على الرغم من تضارب المصالح بينهما وهما: الشركات التي تطالب بالمزيد ثمناً لأسهمها وبالتقليل من فوائد السنوات المترتبة عليها، والعملاء الذين تقف مصالحهم على الطرف الآخر، والمتمثلة في أسعار أقل للأسهم وأسعار أعلى لفوائد السندات. وتحقق البنوك الاستثمارية أرباحها على الناحيتين. وتصبح مصالح الطرف الأقوى، سواء أكان العميل أم المستثمر، في الميزان. وإبان فترة الكساد الذي حلّ في الثلاثينيات من القرن الماضي، استحدثت بعض القوانين المصرفية، التي أبطلت خلال فترة تحرير القوانين، والتي ازدهرت في عصر الرئيس الأميركي الأسبق ريغان (Reagan). وخلال الفترة ما بين الربع الأخير من 1998 والربع الأول من عام 2000، قفز مؤشر ناسداك للأوراق المالية من 1500 نقطة إلى أكثر من 5000، وخلال هذه الفترة، حصلت وول ستريت على عمولات بلغت قيمتها 10 مليارات دولار حسب رواية "ثومسون فاينانشال فيرست كول". وجمعت وول ستريت 245 ملياراً من الدولارات لأسهم شركات التقنية المتقدمة. وسرعان ما انفجرت الفقاعة وتم تصفية الكثير من هذه الشركات. وعندما انفجرت الفقاعة هذه في ربيع عام 2000، تبخرت 4 تريليونات دولار من أموال المستثمرين بكل بساطة. وتتناقل طبقة المستثمرين التي تضم ملايين الأشخاص دعاية تقول إن عامل المصبغة قد اتصل بك ليخبرك أن قميصك قد ضاع، والأن اتصل بك سماسرتك في وول ستريت ليبلغوك بأنك خسرت حتى قميصك وإن أموالك قد

تبحرت. ومن هؤلاء المستثمرين ديباسيس كانجيلال (Debases Kanjilal)، وهو طبيب أطفال من نيويورك، وقد فقد نصف مليون دولار. وقد رفع محاميه دعوى ضد ميريل لينش (Merrill Lynch) لأن السمسار في هذه الشركة نصحه بالاحتفاظ بأسهمه، في الوقت الذي كان فيه كانجيلال يريد بيع أسهمه بالسعر السائد عندئذ والبالغ 60 دولاراً للسهم. ولكنه اضطر إلى بيع سهمه بعد أن وصل إلى 11 دولاراً. وقد مسحت موجودات كثير من المستثمرين من هذه الفئة، فيما استثمر فريق آخر بتقبل النصائح والاستشارات الخاطئة، وأشار عليهم بالتريث في البيع، وأن السوق قد عاد إلى الارتفاع. وكلما ارتفع السوق لساعتين من الزمن، كان هؤلاء المحللون يزفون البشرى إلى المستثمرين أن السوق استرد عافيته بكل تأكيد. وكان بعض خبراء وول ستريت يقولون إن هناك ارتفاعاً في أسعار الأسهم في كل يوم، وأن على المستثمرين أن يصبروا وينتظروا. وبين الفترة التي شهد فيها السوق أقصى ارتفاعاته، وستة أشهر قبل أحداث 11 سبتمبر، تبخر ما يزيد على 4 تريليونات دولار من أموال المستثمرين، وهو ما يعادل أربعة أضعاف الثروة التي مسحها انهيار السوق عام 1987، أو نصف إجمالي الناتج المحلي الأمريكي.

وما أسماه وول ستريت "تأثير الثروة" يعتبر عاملاً نفسياً حاسماً في اقتصاد يعتمد إلى حد كبير على الجانب النفسي. وقد أصبح مهدداً مع تزامن سوء الأوضاع في أسهم شركات التقنية. إن الإنفاق الاستهلاكي يهيم على الاقتصاد الأمريكي، والآن باتت ثقة هؤلاء المستهلكين مهددة بشكل خطير. وفي 9 مارس 2001، أصدر مجلس الاحتياطي الفيدرالي أرقامه لعام 2000 التي تظهر لأول مرة منذ 55 عاماً أن القيمة الصافية للموجودات العائدة للأسر الأمريكية تراجعت بمقدار 800 مليار دولار.

وقد أعلن على الملأ، التواطؤ بين المحللين والمصرفيين، من قبل مكتب النائب العام لولاية نيويورك إيلبورت سبيتزر (Eliot Spitzer). ويقوم بالتحقيق مع كل من ميريل لينش، سالومون سميث بارني، مورغان ستانلي، دين ويتز وآخرين كثيرين. وتقوم الآن ولايات كاليفورنيا، ونيوجرسي وتسع ولايات أخرى بالانضمام إلى حملة التحقيق في تضارب المصالح. واعترف ديفيد كومانسكي (David Komansky)، الرئيس التنفيذي لشركة ميريل لينش المصرفية أن شركته "أخفقت في التمشي مع المعايير الراقية التي هي تراثنا. إنني أنتهز هذه الفرصة، لأعرب عن اعتذاري علانية لعملائنا ومساهميننا وموظفينا".

وعلق جاري وايز (Gary Weiss) في 2002/2/25 على ما يمكن أن يفعله الكونغرس بعد انهيار شركة إنرون. وخلص إلى نتيجة مفادها: "إن الكونغرس سوف يطلق العبارات الرنانة دون طائل... لكنه سيفعل القليل إن كان سيفعل شيئاً أصلاً: فضيحة مجلطة، جلسات استماع في لجان الكونغرس، اتهامات جنائية تلوح في الأفق. إنها فضيحة تحدث في شركة إنرون ولكن يبدو أنه في كل بضع سنوات تضرب فضيحة ما الشركات الأميركية. وفي جميع الحالات، غالباً، وبعد أن ينقشع الدخان، لا شيء يتغير على الصعيد الواقعي، حيث ينأى المشرعون وصانعو القوانين بأنفسهم عن الإصلاح الحقيقي، فهل ستكون إنرون مختلفة؟" وأضاف وايز مفسراً هذه الشكوك: "إن ذكريات الجمهور قليلاً ما تعمّر، وطبقة المستثمرين الجدد تبقى غير منظمة... وسيصغي المشرعون بالتأكيد عندما يتحدث القائلون على لوبي وول ستريت مقابل أن يملأوا خزائنهم بالمال ليعودوا إلى المناصب من جديد. إن الفضيحة الأخيرة المتمثلة في إصغاء صناع القانون إلى اللوبي الطبيعي لول ستريت لم تتمخض عن أية إصلاحات، لكنها ولدت العكس تماماً".

إن وظيفة الإمبراطوريات في النظام الرأسمالي هي ثلاثة :

- خدمة المال وشركاته وفتح الأسواق لها في أرجاء العالم كافة، بتطويع قوانين الدول لتنسجم مع متطلبات تلك الشركات العابرة للقارات باسم العولمة.
- عدم السماح بقيام أي مجتمع يمكن أن يمثل نموذجاً ناجحاً يتنافس مع النظام الرأسمالي الأمريكي، والذي وصفته عقيدة بوش الثاني بالنظام العالمي الصالح لكل الدول والأفراد ولكل زمان ومكان.
- الهيمنة الكاملة على دول العالم بأجمعه لتحقيق الهدفين أعلاه.

شركات التجمع الصناعي العسكري خططت وروجت لاحتلال العراق

وفي الوقت نفسه، نجد بأن رئيساً أميركياً هو فرانكلين د. روزفلت كان السباق في انتقاد النظام النازي لانتهاجه سياسة الحروب الاستباقية، وذلك في خطابه الشهير في أكتوبر 1937، الذي قال فيه "بأن الحروب النازية الاستباقية من شأنها أن تخلق عصرًا من الرعب وغياب القانون" من خلال التدخلات غير المبررة في الشؤون الداخلية للدول الأخرى، أو الإقدام على غزو أراض أجنبية". بالإضافة إلى ذلك، فقد نقل عن المدعي العام الأميركي في محكمة جرائم الحرب في نوريمبيرغ القول بهذا الشأن: "موقفنا هو أيًا

كانت المظالم التي تعاني منها دولة ما ومهما بلغ حجم اعتراضنا على واقع معين لديها؛ فإن الحروب العدوانية تظل وسيلة غير مشروعة لمعالجة هذه المظالم أو العمل على تغيير مثل هذه الظروف".

في التسعينات شهدت الولايات المتحدة أكبر فقاعة مضاربة في تاريخ السوق المالي الأميركي. وفي بداية القرن الجديد، ما بين 10 مارس 2000 ونهاية الربع الأول من عام 2001، حيث تهاوت قيمة الأسهم في ناسداك من 7،6 تريليون دولار إلى 3،3 تريليون. وفي ذلك قال ستيف جوبس مؤسس شركة أبل للكمبيوتر أمام المحللين، بأنه يعتقد بأن الاقتصاد الأميركي يعاني من حالة انصهار.

وطبقًا لمفهوم النظام الرأسمالي الأميركي؛ فإنه عندما يعاني اقتصاد ما من مصاعب فإن الحرب (سواء جاءت بفعل تخطيط مسبق أو حدثت بشكل عرضي) تساعد دائمًا على الخروج من الأزمة، خاصة - كما اتضح من مشروع القرن الأميركي الجديد- وأن المسرح قد أعد بالفعل للهيمنة الأميركية على العالم. فمن جانبها عملت "المؤسسة الأميركية" على إيصال "رئيس حرب" إلى البيت الأبيض، وقدمت له الدعم المطلوب لتجني الشركات النفطية وشركات الصناعات والخدمات العسكرية من ورائه عظيم المكاسب. وفوق ذلك فإن العديد من رموز هذه الشركات ظهروا فجأة في البيت الأبيض، بدءًا من نائب الرئيس ديك تشيني، الذي كان قبلها مباشرة الرئيس التنفيذي لشركة هالبيرتون لخدمات النفط، وكونداليزا رايس التي شغلت منصبًا رفيعًا في شركة شيفرون تكسيكو النفطية قبل أن تصبح على رأس مجلس الأمن القومي. وحتى في الخارج نجد بأن الرئيس الأفغاني المعين من قبل الأميركيين حميد قرضاي والسفير الأمريكي في كابول بعد الإطاحة بطالبان، كانا يعملان مستشارين بشركة أونوكال النفطية. (Unicol)

وخلال فترة الإعداد لغزو العراق شكل روبرت جاكسون، أحد كبار المسؤولين في شركة لوكهيد مارتن، ما عرف بلجنة تحرير العراق. وبرز من بين المؤسسين عدد من الأسماء المتنفة في المجمع الصناعي العسكري الأميركي، وضمت اللجنة كذلك وزير الخارجية السابق جورج شولتز (يعمل حاليًا مع شركة بيكتل)، بالإضافة إلى عدد من رموز المحافظين الجدد.

وعليه فلا عجب أن تخرج الشركات المذكورة بحصة الأسد من مقاولات إعادة إعمار العراق، خاصة وأن عقيدة التجارة الحرة والعدالة تختفي عندما يتعلق الأمر بتعرض المصالح للتجمع الصناعي العسكري الأمريكي للخطر. فبعد الغزو وزعت سلطات الاحتلال الأميركي الغنائم على الشركات النفطية، حيث أوكلت لشركة شيفرون تكساكو مسؤولية بيع النفط العراقي، بينما منحت شركتي بيكتل وهالبرتون عقوداً إنشائية سخية، وهذه مجرد قمة الجبل الجليدي الهائل من المكاسب التي حظيت بها الشركات الأميركية المقربة من إدارة بوش. وطبقاً لصحيفة الفايننشال تايمز، فإنه بعد عام واحد من غزو العراق، سجلت عائدات هالبرتون ارتفاعاً بنسبة 80%، بينما قفزت عائدات بيكتل بنسبة 135%. أما شيفرون تكساكو فحققت زيادة في الأرباح بنسبة 90%، وذلك خلال الفترة من الربع الأول لعام 2003 إلى الربع الأول من العام التالي. وفي الوقت ذاته نجد بأن أسهم لوكهيد مارتن لصناعة الأسلحة سجلت خلال الفترة من 2000-2004 (الفترة الأولى من رئاسة بوش) ارتفاعاً بنسبة 300%. وطبقاً للسنتاتور رون وايدن فإن "عملية منح عقود إعمار العراق كانت أقرب إلى حالة الفوضى في مدن الكابوي الأمريكي قبل ظهور أمناء شرطة الدولة".

خداع وفقاعات المرابين وأسواق المال هي ذاتها منذ مئات السنين:

سمعنا ورأينا فقاعة القرن الواحد والعشرين ... كيف أن بعض الشركات كشف زيفها وزيف من ورائها من بنوك الاستثمار ، فهذه شركة ليمان برونر Lehman Brothers تكشف أن موجوداتها لا تزيد عن 60 مليار دولار، في حين كانت قيمتها السوقية قبل انهيارها عشرة أضعاف ذلك أي بحدود 600 مليار دولار . والأمثلة كثيرة ومشابهة إبان الكساد الكبير في الثلاثينات من القرن العشرين . لكن دعنا نبين أن قديم المرابين وأسواق الأموال في النظام الرأسمالي هو جديد وجديدها قديم ، فها نحن نقدم قصة فقاعة كبرى قبل 300 سنة قد لا تختلف عن مجريات فقاعة هذه الأيام . فلو غيرنا التاريخ والاسم لظننا أن هذا الحدث قد حدث بالأمس.

هذه قصة هذه الفقاعة سنة 1720 في رسم بياني:

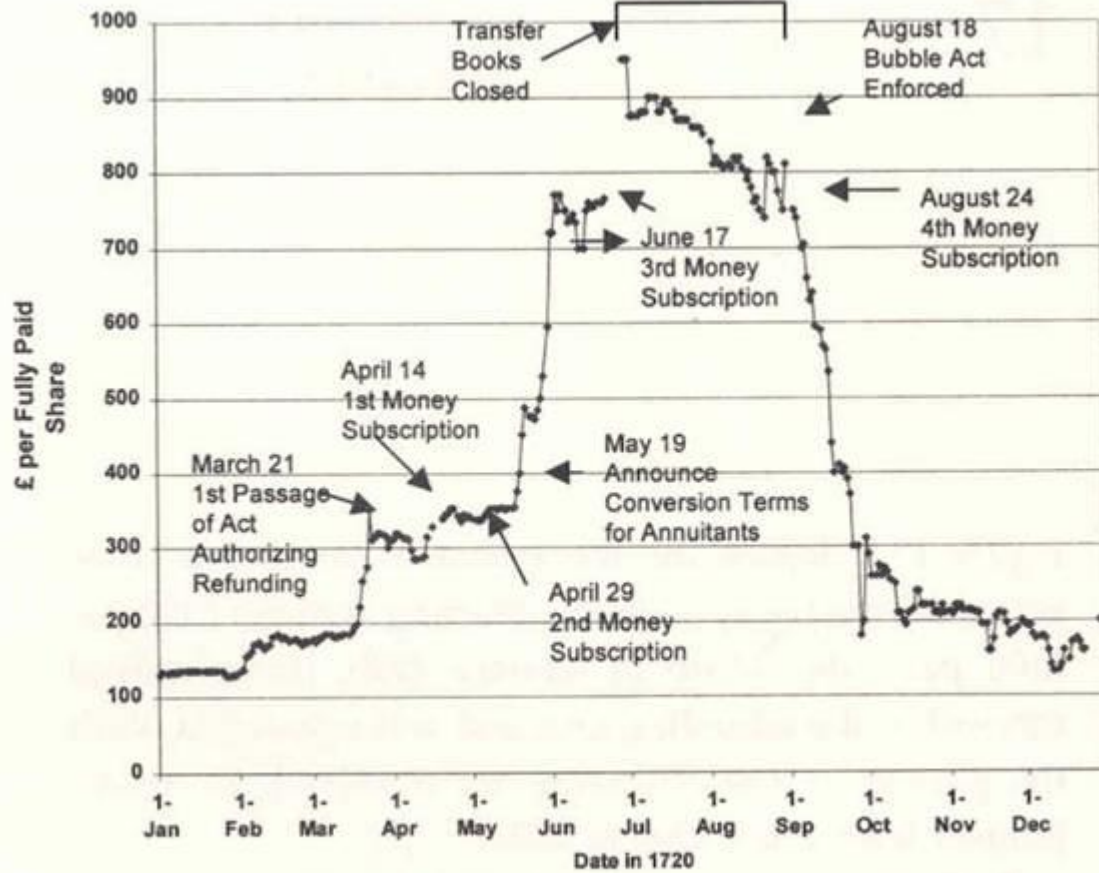


Figure 17.1
Daily South Sea Share Prices, 1720. Data courtesy of Larry Neal.

- أسس التجار والممولون هذه الشركة سنة 1711 أثناء الحرب البريطانية الأسبانية ، أي قبل سنتين من انتهاء تلك الحرب، على فرضية أن تقوم الحكومة البريطانية بوضع شرط على إسبانيا بإعطاء هذه الشركة حصر التجارة بها مع أمريكا الجنوبية ، مقابل تحمل هؤلاء التجار والممولين إدارة ديون الإمبراطورية البريطانية.
- لم تقم الشركة حتى ولو برحلة واحدة حتى سنة 1717 . لكن أهم أعمالها كان تجارة الرقيق .
- بواسطة إعطاء أسهم لعشيقه الملك والمتنفذين الآخرين وإذاعة أسمائهم وكذلك ادعاءات كاذبة أخرى، ارتفع سهم الشركة من 100 جنيه في يناير سنة 1720 إلى 1000 جنيه في يوليو 1720 . في سبتمبر 1920 هوى السهم إلى دون الـ 200 جنيه، وأقفل بنهاية السنة بحدود 150 جنيهًا ... في الوقت نفسه حصلت فقاعات في أسواق باريس وامستردام وأصبحت الإفلاسات على قدم وساق.

- ألا يذكرنا ذلك بـ Lehman Brothers مؤخراً حيث كانت قيمتها السوقية 600 مليار دولار ، فأصبحت 60 ملياراً ، أو Citigroup الذي كانت قيمته السوقية 260 مليار قبل سنة فأصبحت حوالي 20 ملياراً في شهر نوفمبر 2008؟
- إذن لهؤلاء الممولين تقاليدهم ، فجديدهم قديم ، وقديمهم جديد.

ما قاله أحد أعضاء حزب الشعب إيجناتيوس دونيللي Ignatius Donnelly في مؤتمر حزب الشعب في الربع الأخير من القرن التاسع عشر نظن أنه يصف حالة اليوم:

"نعيش في زمن وصل إلى حافة الخراب الأخلاقي والسياسي والمادي. لقد أصبحت الشركات هي التي تهيمن على الانتخابات والمشرعين والكونغرس، حتى وصل هذا الخراب الأخلاقي والسياسي إلى المحكمة العليا... أما الجرائد فهي إما ممولة منهم أو أنها مكتومة الصوت. كما أن الرأي العام قد تم إسكاته. وبينما يزدهر أصحاب الأعمال فإن بيوتنا مرهونة، وعمالنا معدمون، وتسرق الأراضي ليتم بناء ثروات خيالية غير مسبوقة في تاريخ العالم من أناس يحتقرون جمهوريتنا، ويعرضون الحرية إلى الخطر. ومن رحم اللاعدالة الحكومية تولد طبقتان_ المسحوقون وأصحاب الملايين".

" ولقد كان العدل الاجتماعي هو المفهوم الأكثر أهمية في الإسلام. ولقد أمر المسلمون كأولى مهامهم بناء أمة تتميز فيما بينها بالرحمة والتي يسودها توزيع عادل للثروة. إن هذا هو الأكثر أهمية من الطقوس الأخرى".

كارين أرمسترونغ Karen Armstrong

من كتاب (الإسلام) – ص(6)

الفصل الثاني

في الرأسمالية : العبودية أساس الملك

من كولومبوس حتى أوباما (1)

يقول البروفيسور رونالد ديفيس Ronald Davis من جامعة ولاية كاليفورنيا في نورث ريدج North Ridge

"لا نبالغ حيث نقول إن الأرباح التي نتجت عن نظام وتجارة الرقيق من 1600 وحتى 1860 قد ساهمت إلى حد كبير في بروز الغرب في غرب أوروبا والولايات المتحدة كالأقوى المهيمنة على العالم".

ويمكن أن نضيف إلى ما كتبه ديفيس بأن التطهير العرقي والحروب كالدعامتين الأخيرتين للرأسمالية الغربية التي انطلقت بعد أن حلل "التنويريون" بعد الثورة البروتستانتية الربا، وانطلق بارونات المال بعد حصولهم على هذا التغيير الأيديولوجي إلى مزج قوة المال بتغيير تكنولوجي انطلق بالرأسمالية إلى ما هي عليه اليوم.

قال ماتير روتشايلد مؤسس العائلة "دعني أسيطر على رأس المال لأي أم' ، ولا يهمني من الذي سيحكمها بعد ذلك".

بعد وصول كولومبوس إلى ما ظنه الهند، كتب لأصحاب حملته بإسبانيا "سأرسل لكم ما تحتاجونه من ذهب، وكل ما تتمنونه من عبيد". وأضاف: "فلينصر الرب أولئك الذين يتبعون طريقه!"، ومن مقره في ما يعرف اليوم بهاييتي Haiti، قام كولومبوس بحملة اصطياد للسكان الأصليين، واحتجز 1500 منهم سنة 1495، واختار منهم 500 من الأقوى بنية حيث حملهم بالسفن إلى إسبانيا . مات 200 منهم في الطريق مما جعل كلفة الشحن باهظة فتفرغ لمحاولة تعدين الذهب . أمر بكل من هو فوق الرابعة عشرة من السكان الأصليين بجمع كمية محددة من الذهب خلال 3 شهور . أعطى الذين نجحوا في جمع الذهب قطعة من

النحاس يعلقونها على صدورهم ، أما أولئك الذين لم ينجحوا فتم تقطيع أيديهم لينزفوا حتى الموت . وحسب ما كتبه الراهب Bartolome dela casa برتالومي دي لاکازا، الذي عايش تلك الحقبة، فيقول إنه بين 1494 و 1508 فقد مات أكثر من ثلاثة ملايين من السكان الأصليين الذين قضوا نتيجة الحروب أو العبودية أو الأشغال الشاقة . وأضاف الراهب "من يصدق هذا في المستقبل؟ فأنا الذي عايشته أكاد لا أصدق". . وكتب المؤرخ في جامعة هارفارد ساميول ديلوت موريسون: "إن السياسة التي بدأها كولومبوس واتباعها الذين خلفوه ، قد أدت إلى إبادة جماعية".

الاقتصاد الرأسمالي الغربي قام على مؤسسة العبودية

مؤسسات العبودية كانت عماد الاقتصاد الأمريكي حتى نهاية الحرب الأهلية الأمريكية 1865، أي لأكثر من 300 سنة. في العقود الأولى من القرن السابع عشر كان المستعمرون الأمريكيون البيض يستعبدون المواطنين الذين أسموهم الهنود الحمر. وعندما بدأت زراعة القطن بالانتشار السريع منذ 1670 أصبحت أعداد هؤلاء لا تكفي، فانطلقت تجارة العبيد الأفريقيين على قدم وساق ، كما تم استعباد الرقيق الأبيض ممن لم يستطيعوا سداد ديونهم ، فأرسلوا إلى أمريكا كعبيد لفترة سداد هذا الدين . وكان معدل وفيات العبيد أثناء نقلهم بالبحر لا تقل عن الثلث وإن كانت تصل أحياناً إلى النصف . كان يقذف في البحر المرضى ، أما من يصل إلى بر أمريكا ، فيباع ويشترى ويصبح ملكاً لصاحبه.

حتى سنة 1800 وصل من عاش من العبيد إلى أمريكا بين 10 – 15 مليون من أصل 50 مليوناً تم نقلهم خلال القرون الماضية مات في الطريق أكثرهم . كان من أسموا آباء الثورة الأمريكية للاستقلال من أصحاب المزارع وملاك العبيد مثل جورج واشنطن ، وتوماس جيفرسون وجيمس ماديسون!

حتى بعد الاستقلال ومناقشة حق الانتخاب ، حُرّم العبيد من التصويت ، ولكن حيث أن غالبيتهم كان في الولايات الجنوبية، أخذ أهل الجنوب بتعدادهم حين احتساب عدد السكان لأمر تقرير عدد أعضاء

الكونغرس والذي يخضع لكثافة السكان ، عندها قرر المؤتمرون رسمياً اعتبار العبد ثلاثة أخماس رجل؟! وأخذ أهل الجنوب الحق بمطاردة الهاربين منهم إلى أي مكان لإعادتهم إلى مزارعهم.

أصحاب العبيد لم يعترفوا ، وكذلك ولاياتهم بشمول مؤسسات الزواج على العبيد . كان يتم بيع أبنائهم إلى آخرين كما كانوا كانوا يُشغلونهم في حقول الزراعة من الثانية عشر من أعمارهم . ولعل من الطريف أن نبين أنه حتى يومنا هذا ، فإن العنصر الإنساني يشار إليه في علم الإدارة بالأصول البشرية، حيث تعرف الإدارة بأنها الاستغلال الأمثل للموارد للأصول (assets) البشرية والمادية.

لم يكن هذا هو حال المستعمرات الأمريكية، بل كان هو حال الحضارة الغربية، فثروات أوروبا الغربية بأكملها قامت على العبودية والاستعمار وعبودية شعوب بأكملها ، مما يفقدها أي مبرر أخلاقي بالحديث عن حقوق الإنسان، في وقت كانت حضارتنا تقول بأن الناس سواسية، ولا فرق لعربي على أعجمي أو قرشي على حبشي إلا بالتقوى قبلهم بقرون عديدة.

إذا كان العدل أساس الملك في الديانات السماوية فالعبودية هي أساس الملك في الرأسمالية.

الثورة الأمريكية : أسبابها وقادتها

في سنة 1676 ، أي قبل مئة سنة من الثورة الأمريكية سنة 1776 ، ثار الفقراء من البيض والسود وحرقوا الأخضر واليابس في عاصمة فيرجينا واسمها جيمس تاون Jamestown، وهرب حاكم فيرجينيا من المدينة. كان كثير من أصحاب المزارع الكبرى أمثال جورج واشنطن وتوماس جيفرسون في تلك السنوات المئة قبل الثورة الأمريكية هم من الولايات الجنوبية وفيرجينيا. قامت 18 ثورة على الحكومة كما ثار العبيد من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال.

المؤرخ الأمريكي الشهير بيرد Beard قال بأن طبقة الأغنياء أصبحت بحاجة إلى حكومة قوية تصون مصالحهم الخاصة ليتمكنوا من السيطرة عليها وإصدار القوانين والتشريعات التي تصون مصالحهم ، ولحماية منتوجاتهم الزراعية . كما أن بارونات المال قد أصابهم الاستياء نتيجة قوانين لم تعد تسمح لبنوكهم بإصدارات مالية . أحد من أصبحوا قادة الثورة بنجامين فرانكلين Benjamin Franklin ، والذي كان متعهداً لطباعة الأوراق النقدية لأحد أكبر بنوك ذلك الزمان، ذهب إلى بريطانيا في محاولة لإلغاء قانون 1764 الذي أصدره البرلمان البريطاني الذي منع الإصدارات من قبل بنوك المستعمرات الأمريكية ، ولكن دون طائل . طبقة التجار استاءت من قرار ملكي يحصر بيع الشاي في شركة الهند الشرقية البريطانية، والتي قامت بتعيين وكلاء لها للبيع المباشر، مما أثار حفيظة التجار وكان سبباً مباشراً للانتفاضة، حيث حرّض التجار والممولون عموم الشعب ضد الإنكليز، وذهب بعضهم ليقذف شاي شركة الهند الشرقية في بوسطن بعرض البحر . المؤرخ الأمريكي المعروف هوارد زين Howard Zinn يقول:

"حوالي 1776 اكتشف الأثرياء في مستعمرات بريطانيا في شمال أمريكا اكتشافاً هاماً بأنه إذا ما حققوا الاستقلال لمستعمراتهم، وأوجدوا أمة جديدة يسمونها الولايات المتحدة، فإنهم سيستولون على الأراضي، وسوف يحلون محل من تحابهم بريطانيا في مستعمراتهم ، كما يمكنهم كبح جماح الثورات المتكررة في المستعمرات وتأمين مصالحهم عبر الاستيلاء على قيادة هذه الأمة الجديدة"، قامت الثورة على جبل من الديون أثلجت صدور بارونات المال العالمي والمحلي . تم طباعة عملة محلية دونما غطاء أسموها بالكونتيننتال Continental فقدت قيمتها، بحث أصبحت تساوي واحداً على الألف من قيمتها السابقة، وبحيث أصبح مثلاً للذي لا يساوي شيئاً إذ قيل عنه "لا يساوي كونتيننتال".

كان عدد سكان المستعمرات الثلاث عشرة حوالي 2 مليون ، نصفهم من النساء ممن ليس لهم حق بالانتخابات ، وكذلك العبيد وسكان البلاد الأصليين من الهنود الحمر، وكذلك الفقراء من البيض، حيث كان حق الانتخاب مقروناً بالملكية . أصبح من لهم حق الانتخاب بضع مئات من الألوف لم يمارس أكثرهم حقهم في الانتخاب على كل حال!

يقول المؤرخ بيرد Beard: إن الثوار المؤسسين كتبوا دستوراً حافظ على مصالح طبقتهم وليس على مصالحهم فقط. ومن الطريف أن جورج واشنطن قد تم تنصيبه رئيساً للولايات المتحدة في وول ستريت ،

حيث حلف اليمين أمام رئيس المحتل الماسوني في نيويورك، وكان أكثر زملائه من الرعيل الأول من دعاة الاستقلال من الماسونيين أيضاً.

بدايات بورصة نيويورك

نال راسماليو الشمال الأمريكي مأربهم ، فإذا لم يستطيعوا أن يلغوا قانون 1764 بالإقناع فلقد ألغوه بالقوة . بدأوا إصداراتهم المالية من جديد . في سنة 1791 اجتمع 24 من كبار تجار وبارونات المال سراً تحت شجرة البطم، حيث وقعوا اتفاقاً بينهم أسمى باسم الشجرة التي عقدوا اجتماعهم تحتها – حيث أصبحت الاتفاقية تعرف باتفاقية بوتم وود Bottomwood Agreement . كان فحوى الاتفاقية أنه لن يسمح بتداول الأوراق المالية إلا بين هؤلاء الأربعة والعشرين لا غير . وتطور سوقهم المالي بحيث أصبح يسمى سوق نيويورك المالي New York Stock Exchange، وعندها قرروا أنه لا يمكن انضمام أحد إلى هذا السوق في حال اعترض أي ثلاثة من المؤسسين على الانضمام. قاوم أصحاب البنوك تأسيس بنك مركزي أمريكي . في العام 1816 قال الرئيس الأمريكي توماس جيفرسون "آمل اننا سنتمكن من القضاء على ارسقراطية شركاتنا المالية ووأدها في مهدها . فقد تجرأت على تحدي حكومتنا في استعراض لقوتها واستخفافها بقوانين دولتنا " . وبدلاً من وأدها في مهدها ، تنامت البنوك عدداً وقوة فأصبح عددها سنة 1829 329 مصرفاً ، ووصل ذلك العدد عام 1837 إلى الضعف، وأصبحت 40% من التجارة الخارجية يديرها فقط عدد محدود من مصارف مانهاتن في نيويورك.

العبودية بعد الاستقلال

كان عدد العبيد سنة 1790 يقارب 700000 إلا أن عددهم أصبح حوالي 4 ملايين بحلول سنة 1860 . وحيث إنهم ممتلكات تباع وتشتري، كانت قيمتهم السوقية عام 1805 تساوي 300 مليون دولار، لكنها ارتفعت لتصبح 3 مليارات دولار سنة 1860 وهي قيمة فلكية في ذلك الحين ، كان 90% منها في الجنوب . ثار العبيد 3 مرات في السبعين سنة قبل الاستقلال لكنهم ثاروا سبع مرات في السبعين سنة بعد الاستقلال.

بدأ اقتصاد الشمال والجنوب يتكونان بطرق مختلفة . فالزراعة كانت عماد الجنوب الرئيسية ، أما الصناعة فكانت من نصيب الشمال ومموليه. أصبح الشمال بحاجة إلى العبيد كعمال في مصانعه في الشمال، وكمستهلكين لبضائعه، فبدأت دعوات تحرير العبيد لا لوجه الله ولكن لكي تنتقل من الشمال على دعاوى إنسانية أو دينية . لكن سرعان ما تم إنشاء المجمع المعمداني للولايات المتحدة الجنوبية، والذي أفتى سنة 1845 بأن الإنجيل قد حل العبودية.

في نهاية عقد الخمسينات للقرن التاسع عشر، تعطلت العملية السياسية. أصبح الكونغرس غير قادر على إصدار القوانين المحابية لأصحاب الأموال، ذلك أنهم أرادوا الحماية لمنتجاتهم الصناعية، وعارضها أهل الجنوب لأنها سوف ينتج عنها زيادة في الأسعار، كذلك عارضوا مشاريع القنوات والسكك الحديدية التي تبناها أهل الشمال ... وهكذا وصل تضارب المصالح لحد قرر عنده أهل المصارف والصناعة بتغيير الأمر الواقع بالقوة، ولم لا يكون تحرير العبيد (وامتلاكهم جزءاً من قيمتهم السوقية بالمجان) هدفاً نبيلاً يتم الادعاء بأنه سبب رئيسي للحرب؟

كانت الحرب الأهلية الأمريكية هي حرب بين الرأسمالية الزراعية في الجنوب والرأسمالية الصناعية / المالية في الشمال حيث كانت الغلبة للأخيرة، ولكن على أجساد 620000 أمريكي من "الغلبة" أي ما يعادل 3% من مجموع سكان أمريكا حينئذٍ. بالطبع لم يحارب الأثرياء حيث أن قانون "البذل" كان يعفي من الخدمة من يدفع 300 دولار . ابن الرئيس لينكولن وكذلك البارونات اللصوص الذين جنوا ثمار الحرب لم يحارب أحداً منهم.

وجاء اكتشاف النفط وإنتاجه بكميات تجارية سنة 1859 مما زاد الثورة الصناعية اشتعالاً.

الاضطراب الاقتصادي والسياسي في القرن التاسع عشر

النظام الرأسمالي الغربي عموماً، والأنغلوساكسوني / الأمريكي خصوصاً، يعيش على دورات من الأزمات الاقتصادية تكون في أغلبها نتيجة ممارسات أصحاب البيوت المالية يجنون منها عادة الفوائد والعوائد صعوداً وهبوطاً. كان هناك 3 أزمات اقتصادية حادة سنوات 1819، 1637، 1857 قبل الحرب الأهلية. كما كان هناك ثلاث كسادات كبرة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وذلك لسنوات 1873، 1884 و 1893. كان آل روتشايلد والممولون الآخرون يتعاملون مباشرة بالإقراض في النصف الأول من القرن التاسع عشر، إلا أنهم أصبحوا يتعاملون بالوكالة عن طريق مورغان وأمثاله من بني جلدتهم.

كان أحد أهداف ونتائج الحرب الأهلية خلق حكومة مركزية قوية في واشنطن تُجنب البارونات اللصوص عناء محاولة السيطرة على الولايات العديدة. فسّن الكونغرس قانون التجنيد الإلزامي، وفرض ضريبة الدخل عام 1861. ومع انتهاء الحرب، وصل الدين الحكومي إلى 2.8 مليار دولار، كان إقراضاً أكثره من شركتين أوروبيتين، هما الروتشايلدز وبارينغ بروثورز. كانت المؤسسات عريقتين في الحروب والصفقات الاستعمارية، كان آل روتشايلدز هم من أقرضوا حكومة ديزرائيلي لشراء أسهم مصر في قناة السويس، كما أقرض بارينغ بروثورز حكومة الولايات المتحدة قرضاً لشراء ولايات لويزيانا من فرنسا ومعها العديد من الولايات الأخرى.

كأكثر الرؤساء الأمريكيين الذين يمارسون الحكمة بأثر رجعي، سئم الرئيس لينكولن من ممارسات الشركات أثناء الحرب فقال:

"إنني أرى في المستقبل القريب أزمة تلوح في الأفق، وهي تقض مضجعي وتسلبني راحتي خوفاً على أمن بلادي، لقد تربعت الشركات على عرش البلاد نتيجة الحرب، وسيتلو ذلك عصر من الفساد في المناصب العليا، وستعمل قوى المال كل ما في وسعها لإطالة أمد ذلك العصر وسيادته وديمومته، من خلال حرمان الآخرين حقوقهم حتى تتركز كل الثروات في أيدي قليلة، ولتؤول هذه الجمهورية إلى الدمار" وقال أيضاً: "لو كان هناك مكان أسوأ من الجحيم فتأكد اني أعيش فيه الآن". لكن الحروب هي نعيم بارونات المال العالمي.

الاضطرابات المالية والاقتصادية

في مايو سنة 1873 انهارت بورصة فينا . وحيث إن بيوتات المراباة والمال كانت متعولمة قبل أن تصبح كلمة العولمة استعمالاً شائعاً، حيث كان عدد البارونات محدوداً ، فمثلاً عمل روتشايلد من مركزه في ألمانيا، وتم فتح فروع يديرها أبناؤه في باريس ولندن وفيينا. انتقلت العدوى إلى بورصة كل من برلين، وأمستردام وباريس ولندن، ووصلت إلى نيويورك في خريف سنة 1873 لتُسبب واحدة من أسوأ الكسادات في الاقتصاد الأمريكي، بقي زهاء عشرين عاماً عجزت فيه شركات سكك الحديد سداد ديونها مما أدى إلى إفلاس الكثير من البنوك، وانهار مصرف جي كوك آند كومباني، وهو الأكثر تعاملًا مع حكومة الولايات المتحدة في 18/9/1873، تبعه إفلاس 57 شركة استثمارية، مما اضطّر بورصة نيويورك لإغلاق أبوابها للمرة الأولى في تاريخها في 20/9/1873، وأوقف 327 مصرفاً مدفوعاتهم بين 1873 – 1879، وفقدت 10000 شركة كل ما تملك.

في يناير 1874 تفاقت الأزمة وتظاهر آلاف المحتجين في نيويورك مطالبين بالعمل أو الخبر ، وفرقتهم الشرطة بالقوة واعتقلت العشرات منهم . وعندما احتج عمال المناجم على أوضاعهم السيئة، رتب أصحاب المناجم أمرهم مع الدولة فحكمت على عشرين من المحتجين بالإعدام . وعندما خفضت شركة بالتمور آند أوهايو من دخل موظفيها، بدأ العمال إضرابين سرعان ما انتهى الإضراب الثاني سنة 1877 باستدعاء قوات اتحادية "لإعادة النظام"، وتم قتل مئة من العمال وجرح المئات منهم كذلك.

الفساد سيد الموقف

كانت الأحزاب السياسية والسياسيون، بمختلف رتبهم وأماكنهم، فاسدين مفسدين، تباع القوانين وتشتري في ردهات الكونغرس وعلى قارعة الطريق . كان وكيل آل روتشايلد في أمريكا أوغست بلمونت August Belmont يشغل منصب رئيس اللجنة القومية للحزب الديمقراطي . أما رئيس اللجنة القومية للحزب الجمهوري وليم تشاندلز William Chandler فكان يتلقى الرشاوى والهبات المالية من أربع شركات مختلفة في قطاع سكك الحديد في الوقت نفسه . أما بعض أعضاء مجلس الشيوخ فكانوا يتلقون أتعابهم مقدماً من الشركات التجارية الكبرى.

في هذه الأثناء طال الفساد أكثر أعضاء إدارة الرئيس غرانت Grant، وكما تقول كاتبة السيرة لمورغان ، جين ستراوس، "إنها أكثر الحكومات فساداً في ذلك القرن، حيث لطختها الفضائح المالية التي وصمت كل عضو من أعضاء الوزارة فيها". كما تورط نائب الرئيس في قضية مع المؤسسة المالية كريدت موبيليه Credit Mobilier عام 1872، حيث أصدرت اسمها بأسماء أعضاء في الكونغرس لمشروع سكك حديد، مقابل الموافقة على منح قروض اتحادية. وحيث إن جديد الرأسمالية والنظام الأمريكي قديم استقال نائب الرئيس الأمريكي اغنيو Ageniew سنة 1972 على خلفية قصة رشوة من أحد المقاولين.

في عقد السبعينات لهذا القرن استعمل البارونات اللصوص كل الأساليب لخلق الاحتكارات . فخلاله سيطر جون روكيفيلر على صناعة النفط بواسطة شركته ستاندرد أويل، فأصبح يملك في سنة 1879 90% من صناعة وتجارة تكرير البترول في الولايات المتحدة، كما سيطر على سبيل المثال أيضاً اندرو كارنجي Andrew Carnegie على قطاع الفولاذ وشركاته الواحدة تلو الأخرى.

وفي المقابل أصبحت الاضطرابات العمالية منتشرة على نطاق واسع، ففي عام 1886 وحده قام العمال بحوالي 1600 إضراب عن العمل ، وشهدت الفترة من عام 1889 حتى نهاية ذلك القرن عدداً كبيراً من الاضرابات والاضطرابات.

العبودية تحت أسماء أخرى

أراد المزارعون أن يتصدوا لنظام حجز محاصيلهم كضمان للقروض من المرابين. يصف لورانس غودوين (Lawrence Goodwyn) في كتابه "الوعد الديمقراطي_ الحركة الشعبية في أميركا"

(Democratic Promise- The Populist Movement in America) هذا النظام فيقول:

" يقترب المزارع مسبل العينين وهو يحمل قبعته بيده بكل خنوع من التاجر ويقدم له قائمة احتياجاته. يقلب التاجر خلف الكاونتر دفتر الأستاذ بين يديه، وبعد شد وجذب، يتحرك نحو الرفوف لاختيار بعض البضائع التي تلبي فقط النزر اليسير من الاحتياجات التي قدمها زبونه المزارع. ونادراً ما كان المزارع يحصل على الكمية التي يطلبها من سلعة واحدة، أو على السلع المختلفة التي يحتاجها كلها. لم تكن هناك أية أموال تنتقل من يد إلى أخرى أو من مالك إلى آخر، كان التاجر فقط يدون بعض الملاحظات في دفتر الأستاذ الموجود أمامه. وبعد أسبوعين أو حتى شهر من الزمان؛ تتكرر الحكاية بكل تفاصيلها: يعود المزارع، يستشير التاجر دفتر الأستاذ من جديد، ويحصل الشد والجذب مرة أخرى، وتتكرر عملية اختيار السلع التي يحتاجها المزارع، وتضاف ملاحظات جديدة في دفتر الأستاذ. ومن مطلع الربيع وحتى انقضاء الخريف، تتكرر هذه الطقوس حتى يلتقي المزارع بالتاجر في أحد حقول القطن، حيث يخضع محصول القطن الذي كدح فيه المزارع طوال عام كامل، إلى عملية الحليج والتكيس والرزم والوزن ومن ثم البيع. وفي تلك اللحظة تحديداً، يقوم التاجر بإعلام المزارع ما جناه محصوله لتلك السنة.... ويخبره التاجر أن الدين الذي تراكم طوال العام قد تجاوز الدخل الذي حققه محصول القطن. لقد باعت جهود المزارع بالفشل ولم يتمكن من "الدفع" وسداد دينه.... وعندها يعلن التاجر نيته مساعدة المزارع خلال الشتاء، ولكن وفق حساب جديد يضطر معه المزارع إلى التوقيع على رهنة محصول السنة القادمة للتاجر. ولدى توقيع هذا الحجز، يستقل المزارع عربته خالي الوفاض ويذهب إلى بيته وفي ذهنه أنه وللمرة الثانية أو الأولى أو الخامسة عشرة على التوالي، قد فشل في دفع ديونه."

ولو قمنا بدراسة نظام إقراض المؤسسات المالية للدول في النصف التالي من القرن العشرين ، لوجدنا أنه يوجد منذ تم تنفيذ نظام الإقراض هذا على الدول، فأصبح الجزء الأكبر من ميزانياتها مخصصاً لسداد الفوائد، بينما تبقى الديون للسنة الثانية والثالثة ولربما الخمسين. وقد أوجد هؤلاء صندوق النقد الدولي ليطوع ويغير قوانين البلدان لتعمل في الأساس لسداد فوائد ديون هؤلاء المرابين أنفسهم وإن اختلفت أسماء شركاتهم.

في عام 1866، كان القمح يباع ب 2.06 دولاراً للبوشل الواحد (مكيال للحبوب يعادل 8 غالونات)، وفي عام 1876 أصبح يباع بدولار واحد، وفي عام 1880 تراجع 0.80 دولار، حتى وصل إلى 0.350 دولار في ولايتي داكوتا الشمالية والجنوبية في التسعينيات من القرن التاسع عشر. وبينما كان المزارعون

معرضين لمثل هذه الاسعار المحبطة والقاتلة، كانت هذه الأسعار المنخفضة باستمرار مترافقة مع معدلات فائدة ربوية وصلت إلى ، بل وتجاوزت ، 100%.

كان اتحاد المزارعين في الجنوب يدفع (بوشل) واحداً من الذرة كنفقات شحن ونقل لكل (بوشل)، حتى لولاية مجاورة، بينما حصلت الشركات الكبرى على أسعار خاصة جداً. فقد كانت تكلفة الشحن من شيكاغو إلى لندن أقل مما يدفعه المزارع لنقل محصوله من ولاية إلى ولاية أخرى!

حزب الشعب : حلول لا رأسمالية

لعل أحد الأمثلة على أن جديد الرأسمالية قديم وقديمها جديد، أنه حينما نقراً ما قاله أحد أعضاء حزب الشعب إيغناطيوس دونيللي Ignatius Donnelly في مؤتمر حزب الشعب في الربع الأخير من القرن التاسع عشر تظن أنه يصف حالة اليوم:

"نعيش في زمن وصل إلى حافة الخراب الأخلاقي والسياسي والمادي. لقد أصبحت الشركات هي التي تهيمن على الانتخابات والمشرعين والكونغرس، حتى وصل هذا الخراب الأخلاقي والسياسي إلى المحكمة العليا.... أما الجرائد فهي إما ممولة منهم أو أنها مكتومة الصوت. كما أن الرأي العام قد تم إسكاته. وبينما يزدهر أصحاب الأعمال فإن بيوتنا مرهونة، وعمالنا معدمون وتسرق الأراضي ليتم بناء ثروات خيالية غير مسبقة في تاريخ العالم من أناس يحتقرون جمهوريتنا، ويعرضون الحرية إلى الخطر. ومن رحم اللاعدالة الحكومية تولد طبقتان_المسحوقون وأصحاب الملايين".

في سانت لويس عام 1889، كان أن وضع ماكايون وحزب الشعب خطة تدعو إلى المطالبة والمناداة بأن الديمقراطية تستدعي وجود نظام مالي ديمقراطي غير مركزي من حيث السيطرة على القروض والاعتمادات، بحيث يسمح بتدفقها للمنتجين الحقيقيين، بما يضمن انتشار الفرص وتوسيع الدخل بأكبر قدر ممكن. ولا يتحقق ذلك إلا من خلال الإقراض الحكومي المباشر للمنتجين دون أية وساطة (من البنوك). وضعوا خطة مفصلة أصبحت تعرف باسم خطة الخزائن الفرعية. وتنص هذه الخطة على أن تقوم وزارة الخزانة الأميركية في كل مقاطعة ذات منتج زراعي واسع، ببناء مخزن فيدرالي ومساعد للحبوب، وبذلك يكون هناك الآلاف من هذه المراكز التي ستسمى بالخزائن الفرعية. وبإمكان المزارع أن يودع منتوجه في إحدى هذه الخزائن الفرعية ويقترض بفائدة 1% أو 2% على وديعته. وليصبح بمقدوره أيضاً أن يبيع محصوله بالأسعار السائدة أو أن يقترض بضمان قيمة أرضه. ويُدفع للمزارعين حسب هذه الخطة بالأوراق

النقدية، أي الدولارات التي ليس لها غطاء ذهبي، بحيث يغطيها الإنتاج الحقيقي. ومن الممكن أيضاً أن تكون الدفعات على شكل شهادات إيداع قابلة للتداول بحيث يمكن مقايضتها وتداولها. وتقول الخطة إن هذه الموارد المالية والعرض النقدي قد تُسحب نظرياً بعد أن يُسدّد المزارعون قروضهم.

كما طالبت الخطة أنه ينبغي أن يكون للمال غاية اجتماعية ، لا أن يكون فقط لمجرد كسب المزيد من المال. من الواضح أن هذه الخطة من شأنها أن تخرج أصحاب البنوك من دائرة الإقراض، حيث إن القروض ستذهب مباشرة إلى المستفيدين. ولكن هذا النظام لم يكن ليكتب له الحياة طالما أن لأصحاب البنوك محاسبيهم وعملاءهم المخلصين في واشنطن، وطالما أنهم لا يزالون يُحكمون سيطرتهم على قوة المال.

وبدأ أعضاء حزب الشعب يراقبون وينتقدون تصرفات حكومتهم، فعندما أنقذت وزارة الخزانة الأميركية البنوك التجارية في التسعينات من القرن التاسع عشر، عن طريق تخفيض الفائدة إلى 1% على دينها لتلك البنوك والبالغ 47 مليون دولار، كتب تريسي قائلاً:

" ... طالما أن الحكومة تستطيع إقراض المال لأصحاب هذه البنوك بنسبة 1% على ضماناتهم، فلماذا لا تقوم بإقراضه للشعب على ضماناته؟ وما دامت الحكومة تستطيع إنقاذ أصحاب البنوك هؤلاء من خلال الفارق البسيط بين سعري الشراء والبيع، وتجنبيهم التضحية بضماناتهم، فلماذا إذن لا تستطيع أن تفعل الشيء ذاته مع الشعب؟ يا لها من سخرية واستهزاء من هذه الحكومة الديمقراطية أن تمنح مزاياها لأربعة آلاف رجل لأنهم أغنياء، وتكر هذه المزايا ذاتها على 65 مليون شخص."

كانت أفكار حزب الشعب ثورية وأصيل' وكانت من خارج النظام الرأسمالي الذي أفرز بينهم التعاسة والفقر والحرمان. فكانت لهم أراؤهم في السياسة النقدية للدولة. كان أعضاء الحزب يرون أن السياسة والنظام النقدي الأميركي غاية في الانحياز والاضطهاد. وقد بدأوا أولاً بوضع تعريفهم للمال، حيث يقول أحد أعضاء حزب الشعب المنتخب حديثاً في الكونغرس:

" إننا نعرّف المال بأي حال على أنه صنعة القانون، وتمثيل بسيط للقيمة، وأداة للصرف، وهو ليس بأي حال من الأحوال سلعة تباع وتشتري." لقد وضع هذا النائب يده على إحدى العلات الرئيسية لرأسمالية القرن العشرين، حيث إنها تعتبر المال سلعة تباع وتشتري.

وفي الانتخابات الوطنية لعام 1890، فاز حزب الشعب بخمسة مقاعد في مجلس الشيوخ، وعشرة مقاعد في مجلس النواب. وظلت انتصاراتهم تتكرر الواحدة تلو الأخرى في عام 1894. كانت شعارات حزب الشعب هي "مال الشعب"، "أرض الشعب"، "ثروة الشعب" و"مواصلات يملكها الشعب"

وبدأ أعضاء ومناصرو حزب الشعب يطالبون بنظام قومي جديد وأموال قومية جديدة تصدرها الحكومة بدلاً من البنوك المحلية المخصصة، كما كان الحال عليه. وتحدثوا عن "رأس مال مركزي متحالف مع قوى الشركات غير المسؤولة" ..

وفي خطاب ألقاه في سانت لويس، قال ليونيداس لافاييت بولك: " لقد آن الأوان ليوحد الغرب العظيم والجنوب العظيم والشمال الغربي العظيم قلوبهم وأيديهم معاً، ويمشوا مشية رجل واحد إلى صناديق الاقتراع السرية ويستولوا على الحكومة، ويعيدوا إليها مبادئ آبائنا، ويديروها بما يتماشى ومصالح الشعب".

عقد التسعينات من القرن التاسع عشر

كانت الثورة الصناعية تتسارع مع حلول عام 1890، وأظهرت الإحصاءات الرسمية الأميركية أن عائدات الصناعة قد تخطت عائدات الزراعة للمرة الأولى في تاريخ الولايات المتحدة. لكن ذلك، لم يحل دون تعرض النظام المصرفي إلى هزة تلو الأخرى، واحدة عام 1893 والأخرى عام 1895، مما زاد شقاء الشعب وفقره. كتبت إحدى السيدات المزارعات الرسالة التالية لحاكم ولايتها، وكان من حزب الشعب وذلك في عام 1894:

"إنني أمسك قلماً بيدي لأعلمك بأننا نموت جوعاً.... خرج زوجي بحثاً عن العمل ولكنه عاد البارحة مساءً وأخبرني بأن علينا أن نتصور جوعاً حتى الموت. لقد جال في عشر مقاطعات غير أنه لم ينجح في الحصول على أي عمل.... إنني لم أتناول أي طعام اليوم والساعة الآن الثالثة".

لعل صدق ما قاله مؤسس عائلة روتشابلرز ماثير حول ما إذا كان سيطر على المال في أي دولة فليس مهماً من يحكمها، قد تمثل في طلب الرئيس كيفلاند (Cleveland) من عائلة روتشيلد، ومن خلال وكيلهم أوغست بيلمونت جونيور (August Belmont Jr.) ، قرضاً مجمعاً بقيمة 100 مليون دولار لوزارة الخزانة. ووافقت عائلة روتشيلد على القرض، ولكنها أصرت على وجوب سداد هذا القرض إما بالذهب أو بالجنهات الاسترلينية .

" أثارت مشاركة آل روتشيلدز موجة من معاداة السامية، لتربط بشكل انعكاسي قضايا المال والاعتمادات باليهود. وأصدر ويليام جينيفز برايان (William Jennings Bryan)، والذي أصبح مرشحاً لرئاسة الجمهورية، ممثلاً عن الحزب الديمقراطي وحزب الشعب، أصدر أمره بأن يتلو ميثاق شايوك (المراي اليهودي) من مسرحية شكسبير _تاجر البندقية_ ، ثم طالب "بأن تدار وزارة الخزانة نيابة عن الشعب الأميركي وليس بالنيابة عن آل روتشيلدز أو عن أصحاب البنوك الأجانب"

كان لحزب الشعب صحافة حرة ديمقراطية إنسانية لكنها كانت تفتقر إلى الموارد المادية . وصف لورانس غودوين محرري صحف حزب الشعب بأنهم كانوا رعاة لجو رائع من الأخلاقية الديمقراطية والعاطفة تجاه الإنسانية . وهذا بعض ما كتبوا:

"ما هي أمريكا وديمقراطيتها عندما يتمكن (أرباب الصناعة) المتغطرسون من شراء ضمائر المشرعين، وإبقاء الكونغرس الأمريكي في حالة دائمة من العبودية لهم؟ ما هو العمل الصادق المخلص عندما تؤدي التركيبة الجائرة للعملة إلى انحطاط أسعار منتجات المزارع إلى ما دون تكلفة الإنتاج؟ كيف يكون العمل شريفاً عندما تلتهم معدلات الفائدة المرتفعة كل ما في المزارع من إنتاج قوي معافى؟ أين هو الإخلاص في العمل عندما تجني شركات السكك الحديدية أموالاً طائلة جراء شحنها لمحصول الذرة أكثر مما يجنيه المزارعون عند زراعته والاعتناء به؟ أين هي الفضيلة في المجتمع عندما يقوم أصحاب البنوك ودور السمسة وشركات تخزين الحبوب بكل جشع بتدمير الجمعيات التعاونية الزراعية؟ أين هي الكرامة عندما تضطر النسوة المزارعات إلى الذهاب حافيات إلى التجار الذين يحددون، بكل جلافة، ما يمكن أو لا يمكن لعائلة المزارع أن تأكله؟ ما هي الحرية ، وأين هي عندما فرض قانون حجز المحاصيل من خلال قانون تأجير أملاك المحكوم عليهم؟".

كانت أفكار حزب الشعب في واقعها تنسف النظام الرأسمالي من جذوره المعتمدة على المرابين والمصارف. لكنه أخفق في ضم طبقة العمال إلى صفوفه، حيث كان أكثر أعضائه من المزارعين الذين بدأت أعدادهم تتناقص لاستعمال المكننة في الزراعة، كما أن العمال كان أكثرهم من المهاجرين الجدد، وكانت أية ظروف مناسبة هنا أرحم من ظروفهم في أوطانهم التي أتوا منها. كما أن أكثرهم كانوا يعتنقون الكاثوليكية، بينما المزارعون من قدامى الأمريكان المرتبطون بأرضهم هم من البروتستانت. أضف إلى ذلك قيام البارونات اللصوص بدس بعض الأعضاء بين الحزب، والذين قاموا ببذر الفرقة بين صفوفهم وقادوا عملية انحراف. ولقد كانت موارد الحزب المادية في غاية الضعف ، كان أكثرهم يجد صعوبة حتى في دفع بضع الدولارات سنوياً كإشتراك العضوية.

بداية عصر الإمبريالية الأمريكية : الحرب الأمريكية الإسبانية

أصبحت الولايات المتحدة محتاجة لأسواق أجنبية بسبب اقتصادها الراكد وإنتاجها المرتفع. وقال ثيودور روزفيلت ، الذي تولى الرئاسة فيما بعد ، قال حين كان يشغل منصب مساعد وزير البحرية في إدارة الرئيس ماكينلي "إن هذه البلاد تحتاج حرباً"، وهكذا بدأت الصحافة حملتها الإعلامية المنسقة دوماً بين أصحابها من بارونات لصوص ضد إسبانيا لإعداد الشعب نفسياً لتقبل وخوض الحرب. وزعمت الصحافة أن الوحشية التي تمارسها إسبانيا في كوبا لم تعد تطاق، وطالبت الولايات المتحدة بالتدخل.

وفي منتصف شهر فبراير من عام 1898، اندفعت الولايات المتحدة إلى الحرب ضد إسبانيا بعد غرق السفينة الحربية الأمريكية ، مين، Maine في ميناء هافانا تحت ادعاء أن الأسبان قد أغرقوها. وتمخضت هذه الحرب عن احتلال أمريكا لكوبا وغيرها من المناطق الإسبانية ، بما فيها جزر الفلبين النائية. وسرعان ما اتضح فيما بعد أن غرق السفينة مين كان نتيجة "عطل" داخلي، وليس نتيجة طوربيد إسباني كما زعم آنذاك. وحسب الانسكيلوبيديا بريتانيكا ، فهذه الحرب كانت بداية لعهد أمريكا الإمبريالي .

حاول الأمريكيون إقناع كولومبيا بإعطائهم امتيازاً لفتح قناة في بنما فلم يوافق برلمانهم على ذلك، عندئذٍ تواطأ الرئيس الأمريكي ثيودور روزفلت عام 1903 مع الشركة الفرنسية في الإعداد لثورة سرية في بنما. وهكذا فقد تم إيجاد جمهورية بنما الجديدة وفصلها عن كولومبيا، خدمة لغرض محدد هو الموافقة على

معاهدة مع الولايات المتحدة مكنت من شق قناة بنما لتصل بين المحيطين الأطلسي والهادي، وقد بدئ بتشغيل القناة في الخامس عشر من آب عام 1914.

وتحت نظام حكم الرئيس الأمريكي ويلسون ثم احتل هايتي حيث أصبحت محمية أمريكية ، واحتل الرئيس المذكور جمهورية الدومينيكان عام 1916، كما جعل نيكاراغوا محمية أمريكية، وابتاع الجزر العذراء الدنماركية بمبلغ 25 مليوناً من الدولارات.

قانون نظام الاحتياط الفدرالي / البنك المركزي الأمريكي

بينما كان الممولون في أوروبا يحضرون أنفسهم لحرب عالمية كبرى، وجدوا أن النظام المالي في الولايات المتحدة بحاجة إلى إعادة ترتيب، خصوصاً وأن كل الدلائل كانت تشير بأن الولايات المتحدة ستكون هي حسانهم الامبريالي بدلاً من بريطانيا والتي بدأت تبدو عليها بوادر الضعف والكهولة، ولاستباق الأحداث قام أصحاب المصارف والمال الأوروبيين، ومع وكلائهم ونظرائهم الأمريكيين بعقد اجتماعات سرية في جزيرة بعيدة عن الأنظار هي جزيرة جيكل Jekyll في جورجيا. كان آل روتشايلدز ، وروكيفلرز، ومورغان ومؤسستهم قد وضعوا النظام المالي والمصرفي الأمريكي الجديد، وكان معهم في اجتماعاتهم السرية أزالامهم في واشنطن، ممن ستوكل إليهم مهمة تنفيذ إخراج هذا البنك المركزي في السلطتين التشريعية والتنفيذية ، حيث كان رئيس لجنة المالية (وصهر روكيفيلر) موجوداً في الاجتماعات السرية، وكذلك نائب وزير الخزانة الأمريكي عن الإدارة التنفيذية، وبعد شد وجذب ومناورات أقرب منها إلى أفلام هوليود ، تم إقرار القانون والذي جعل ملكية هذا النظام ملكية خاصة، يمتلكها البنوك الأمريكية الخاصة وتم وضع نظام يوصي بأن الدولة لها بعض السلطات أهمها تسمية رئيس هذا النظام. إلا أن "المتعارف عليه" إلى درجة الالتزام هو أن وول ستريت هو الذي يرشح أو يوحي إلى الرئيس الأمريكي من هو رئيس هذا البنك المركزي الذي يريده ... وهكذا أصبحت السياسات المالية في أيدي أصحاب البنوك أنفسهم. وقبل شهور فقط في نهاية سنة 1913 من بداية الحرب العالمية الأولى، بدأ النظام الجديد هذا ليتولى دور بنك انكلترا والذي كان ضعيفاً آنذاك لا يفي بمتطلبات بارونات المال والحروب. وقام النظام الجديد بدوره المرسوم أثناء الحرب الأولى خدمة مجمع البنوك. وكان مورغان وشركاؤه هم الوكيل الحصري والوحيد لسائر مشتريات الحرب. أما السيد Lehman حاكم نيويورك وأحد الإخوة في مؤسسة Lehman brothers فلقد أصبح بقدرة قادر موظفاً حكومياً مسؤولاً عن المشتريات الحربية في تلك الفترة في وزارة الحربية الأمريكية.

فبعد توأمة النظام المصرفي بين بنكي أمريكا المركزي وبنك انكلترا ، بدأ أصحاب النظام الرأسمالي العالمي بتوأمة المؤسسات السياسية والاقتصادية الأخرى . فأتثناء مباحثات السلام في باريس سنة 1919 تم إيجاد مؤسستي ظل للسياسات الاقتصادية لتنسيق المواقف الأنغلوساكسونية بين الولايات المتحدة الصاعدة وبريطانيا، وبحيث أصبحت بريطانيا هي المستشار الإمبريالي للإمبراطورية الأمريكية الجديدة. ثم خلق مجلس العلاقات الخارجية Council on Foreign Relation (CFR) في نيويورك، وكان مجلس أمنائه الأوائل هم أنفسهم أصحاب البنوك وشركاتهم، وأهمها عائلة مورغان وروكفيلر وأزلامهم، ومنذ ذلك التاريخ وهذا المجلس، كما سنرى، يلعب دوراً مركزياً في رسم السياسات الأمريكية؛ فأصبح مؤسسة هامة من مؤسسات الظل للقوى الدائمة القابضة على السلطة الحقيقية في الولايات المتحدة ، كما تم إيجاد مجلس العلاقات الخارجية الملكي في لندن في الوقت نفسه.

كانت المقالة الرئيسة لأول عدد لمجلة أوربوز (Orbis) بعد انهيار الاتحاد السوفييتي في شتاء 1992، مقالة نشرت للمرة الاولى في العدد الأول للمجلة عام 1957 أي قبل 35 سنة من انهيار الاتحاد السوفييتي. وعنوان المقالة هو "موازن الغد" *Balance of Tomorrow* وجاء فيها:

"إن مهمة الولايات المتحدة هي توحيد العالم بأكمله تحت قيادتها خلال هذا الجيل. أما سرعة وكفاءة تحقيق الولايات المتحدة لهذا الهدف فسوف يقرر مصير الحضارة الغربية وبالتالي المصير البشري... فهل سيكون النظام العالمي الجديد القادم هو إمبراطورية عالمية أميركية...؟ يجب أن يكون الأمر كذلك لدرجة أن تحمل الإمبراطورية العالمية تلك دمغة الروح الأميركية." أما التهديد لهذه الرؤيا وهذه الإمبراطورية الأميركية فسيأتي من آسيا كما جاء في مقالة أوربوز (Orbis): "أما الإمبراطورية الأميركية والجنس البشري فسوف لن يكونا متضادين، بل هما اسمان لشيء الواحد هو النظام العالمي الجديد".

الفصل الثالث

الإمبراطورية الأمريكية : حصان بارونات المال العالمي الجديد

من كولومبوس إلى أوباما (2)

إنتاج المستهلكين عبر ثقافة استهلاك جديدة

نتيجة الزيادة المفاجئة في حجم الإنتاج زيادة ثورية ناجمة عن الثورة الصناعية ، كان لابد أن تكون زيادة الطلب ثورية أيضاً، وهكذا فقد أضحت المشكلة لا تكمن في إنتاج السلع بل في إنتاج المستهلكين

قامت الولايات المتحدة بالتوجه إلى الاستعمار كوسيلة أولى لإيجاد الطلب على الإنتاج، مما اقتضى ضرورة تغيير الثقافة السائدة بأكملها، والتي كانت سائدة آنذ . وإذا كانت الشوك قد ساورت أحداً بأن إجراء ثورياً قد أصبح مطلوباً لاستيعاب حجم الإنتاج الهائل الجديد، فإن فترتي الكساد اللتين وقعتا خلال عقدي السبعينيات والتسعينيات من القرن التاسع عشر، مثلتا لهؤلاء تذكيراً قوياً . ولم تكن مثل حالات الكساد هذه ذات نتائج اقتصادية سيئة فحسب ، بل ونتاج عنها اضطراب سياسي سيئ أيضاً.

"خلال العقود التي أعقبت الحرب الأهلية ، بدأت الرأسمالية الأمريكية بإفراز ثقافة مميزة غير ذات صلة بالقيم التقليدية الأسرية او الاجتماعية ، وليست لتلك الثقافة أية علاقة بالدين

أو في أي مفهوم تقليدي ، او بالديمقراطية السياسية.....وبدءاً من عام 1890 وما بعده ، بدأت الشركات الكبرى الأمريكية، وبالتنسيق والارتباط مع المؤسسات المالية الرئيسية ، تحويل المجتمع الأمريكي إلى مجتمع يستحوذ عليه حب الاستهلاك والمزيد من السلع، بحيث يزيد ما يطرح في العام الحالي عما طرح في العام الماضي ، وما سيطرح في العام المقبل عما طرح خلال هذا العام .

وهكذا فقد أفرزت رأسمالية الاستهلاك الأمريكية ثقافة شديدة العداء لكل ما هو من الماضي ، ولكل ما هو تقليدي ، تلك الثقافة الموجهة لخدمة الأهواء المستقبلية المنبعثة من الرغبات والأهواء، والتي سببت الخلط والإرباكات لتوهم وكأن الحياة الجيدة ما هي إلا السلع الجيدة...

لقد تمثلت أهم الملامح الرئيسية لهذه الثقافة في حب التملك وتكريس حب الاستهلاك كوسائل لتحقيق السعادة ، ونشر مذهب جديد ، وإطلاق العنان لعنفوان الرغبة ، وكان ذلك باسم الديمقراطية ، فضلاً عن تكريس مبدأ اعتبار قيمة الأموال وكأنها المعيار المهيمن على سائر القيم السائدة في المجتمع". وليام ليش – كتاب أرض الرغبة

وقد تمت الإشادة بالاستهلاك وإعلانه ليرتقي إلى مرتبة الديانة، وليحل مكانها، وأصبحت روح هذا النظام الاستهلاكي متمثلة في إطلاق العنان للرغبات والنزوات البشرية . وكانت عقيدة الاستهلاك الجديدة هذه مناهضة للدين ، حيث إن الأديان والشرائع كافة تحث على كبح جماح الرغبات والسيطرة عليها ، وتعلمنا الاعتدال في كل شيء، بما في ذلك امتلاك السلع والأموال في هذه الدار الدنيا . ورفعت الأديان من شأن القيم الأخلاقية وسموها على الماديات . وقد وعدت الشرائع والديانات بأن جزاء ذلك هو السعادة في الدنيا وحياة أفضل لا تعرف الفناء في الدار الآخرة . أما مبدأ الاستهلاكية فقد سار في الاتجاه المعاكس "إما الآن وإلا فلا .."

وما إن أدبر القرن التاسع عشر حتى كان 2% فقط من الشعب يمتلكون 60% من إجمالي الثروة الاميركية ، فيما ترك للنصف الأسفل من الأميركيين ما نسبته 5% من إجمالي هذه الثروة .

وقام أصحاب الثروات والقائمون على الإنتاج بإيجاد تحالفات مع الجامعات والكليات الرائدة التي بدأت بتعليم التجارة وإدارة الأعمال في كليات جديدة استحدثت لهذا الغرض. ولم يرق أولئك الأثرياء بالتبرع السخي لهذه المؤسسات فحسب ، ولكنهم تربعوا فعلاً على مقاعد مجالس الأمناء فيها، وشاركوا في إعداد السير الذاتية لأعضائها

وصف الرئيس الأمريكي هوفر للحياة في قرية مسقط رأسه ويست برانش West Branch بولاية إيووا Iowa وهي قرية كان يقطنها عام 1880 ما لا يزيد عن 800 نسمة . ونوه بأن عمته كانت قد تنبأت أن تتحول الكنائس وقاعات المنتديات والاجتماعات إلى أماكن للكراهية والفسق والبغضاء. فقد تحول مقر اجتماعات أولد كويكر إلى دار سينما كما تنبأت عمته . وأردف هوفر قائلاً :

"في الثمانينات من القرن الماضي كان الناس يتقاسمون المسرات، وكانت القرية تتمتع بالاكتماء الذاتي، حيث كانت تزرع القمح والذرة وتطحنها في مطاحنها ، وكانت مكتفية ذاتياً فيما يتعلق باللحوم والمنسوجات والأقمشة . وكنا نقوم بأنفسنا بإصلاح المحركات، وكنا نحصل على الوقود من الخشب . كما شيدنا البنايات وصنعنا الصابون اللازم لنا، وحفظنا الفواكه وجففناها وأنتجنا الخضروات . وكان الشيء القليل فقط من لوازم العائلة يتم شراؤه من الخارج" . وقال إنه في طفولته لم يكن الفقر معروفاً في قريته ويست برانش ، وكان الناس فرحين دائماً يشعرون بالسعادة، ولم يكونوا رهناً للتقلبات والنكسات التي تلم ببورصة شيكاغو التي تسببت في الأيام الأخيرة في شطب 50% من إيراداتهم على أيدي المضاربين

وقد بارك ثقافة الاستهلاك هذه كبير اقتصادي عصره جون كينز John Keynes . وادّعى أن أخلاقيات العقائد والديانات يجب استبعادها، وقد عمل على ترويج استغلال الفرص والميزات في الوقت الحاضر بدلاً من الانتظار للمستقبل. وفي عرف كينز فإن مثل هذه الفلسفة ستعود على الجميع بفائض من السعادة والمسرات .

هل أنت ثقافة الاستهلاك بالسعادة؟

مجلة التايم الأميركية TIME في عددها الصادر بتاريخ 15 يونيو حزيران 1996، وصفت حالة الأميركيين بقولها "يفتقد الأميركيون بشدة الشعور بالقناعة والرضا. فهم متخوفون أن يتخلفوا عن

الركب في عهد جديد . وهم قلقون بل مذعورون حيال الوظائف الآخذة في التناقص، والمدارس التي لا تقوم بواجبها من حيث تعليم الجيل المقبل، والعناية الصحية التي لا يمكن توفرها أو الحصول عليها، وتساعد أرقام المشردين والذين لا مأوى لهم ، والبيئات الملوثة والجرائم التي تقع دون إحساس أو معنى .. لقد سئم الأميركيون الكلام "... .

العشرينات الهادرة

باتت الولايات المتحدة غنية بالنقد السائل، وحققت فائضاً أضخم في تجارتها مع العالم بعد الحرب العالمية الأولى، وقد بدئ بتطبيق نظام المتاجر التنويعية Department Stores ، حيث انتشرت هذه المتاجر في انحاء الولايات المتحدة كافة ، ورافق انتشارها استعمال وسائل سلعية وأساليب تسويقية حديثة . وكانت البنوك تتفرع بسرعة لتأخذ نصيبها في هذا العرض النقدي المتزايد، وقد شاركت دور السينما والاذاعات منضمة إلى الصحافة في نشر هذه الثقافة الجديدة . وقد شجعت البنوك على عمليات الدمج والاستملاك . وبدأ بعد عام 1920 ظهور سوق قومية، وصارت المؤسسات تكبر وتكبر فيما أصاب الوهن والضعف تجار التجزئة الصغار والمستقلين بسبب إيجاد هذه المخازن الضخمة . ففي العام 1886 لم يكن هناك سوى اثنتين من المؤسسات السلسلية في النشاطات كافة وكانتا تديران خمسة محلات ، بينما نجد أنه في العام 1929 ارتفع عدد الشركات إلى حوالي 1500 تدير أكثر من 70.000 منفذ من منافذ البيع في مختلف السلع . وقد فازت صناعة الأغذية بنصيب الأسد في هذه المتاجر . وأضحى الاندماج بين الشركات هو الأسلوب الأمثل للتوسع . وقد أثلجت هذه المسألة صدور القائمين على البنوك الاستثمارية، حيث انبروا لتقديم الخدمات التي تتطلبها عمليات الاندماج والاستملاك mergers and acquisitions ، بل قاموا بترويجها وتشجيعها . وقد ارتفع عدد البنوك الاستثمارية بنسبة 400% خلال الفترة بين عامي 1910 و 1930 . وكانت كل من شركتي ليمان برونرز Lehman Brothers وغولدمان ساكس Sachs، Goldman أكبر شركتين تتوليان وضع الترتيبات لعمليات الاندماج خلال تلك الفترة . وكانت كلتاهما قد بدأت نشاطها كبيوتات سمسرة لتجارة السلع إبان القرن التاسع عشر . وكان هيربرت ليمان Herbert Lehman حاكماً لولاية نيويورك، ثم ألحق نفسه في وزارة الحرب وأصبح مسؤولاً عن توفير المستلزمات العسكرية .

واعتمدت الثقافة الجديدة برمتها على خلق الطلب على السلع، من خلال تحفيز رغبة الناس واستثارتها؛ وقد حسم المصرفيون والمفكرون الذين يدورون في فلهم ، هذه المسألة قائلين إن تحفيز الرغبة ليس له حدود، وإنه إذا ما تم إشباع رغبة ما ، فإنها ستأتي برغبة أخرى معها . وقدم جورج بيكر George F. Baker رئيس فيرست ناشونال بنك في نيويورك منحة كانت نتيجتها بناء مبنى الإدارة العائد لجامعة هارفارد Harvard University ، ومبنى السكن للطلاب الداخليين، ومبنى المكتبة، وكان ذلك عام 1927 . وكانت كل من جامعتي كورنيل ونيويورك مرتبطة بعلاقات وثيقة ومعتمدة مالياً على أولئك الذين اخترعوا وكرسوا ثقافة الاستهلاك . وكان ايلسورث ستاتلر Ellsworth Statler ممولاً رئيسياً لجامعة كورنيل . ولم يكن بيرري شتراوس Perry Straus صاحب شركة ماسي Macy المصدر الرئيسي لتمويل جامعة نيويورك فحسب ، ولكنه كان من ضمن طاقم المجلس التنفيذي الذي اعتاد أن يجتمع خلال العشرينات بصورة منتظمة في محلاته ، كما رأس مجلس الأمناء أيضاً . وخلال هذه الفترة أيضاً أنشأت جامعة ستانفورد Stanford كلية لتدريس العلوم الحديثة مثل المحاسبة والتمويل والتسويق والنقل ، وأدخلت هذه الحقول في دراساتها كل من جامعات نورث ويسترن Northwestern ، ميشيغان Michigan ، ويسكونسن Wisconsin ، كاليفورنيا California و أوريغون Oregon .

وعندما تراءى للعيان بأن الأمور قد أصبحت على ما يرام ، كان أسوأ كساد يشهده التاريخ الأمريكي آخذاً في التشكيل ليتفجر فيما بعد كالبركان وتبدى للعيان أولاً في انهيار سوق الأوراق المالية في وول ستريت في تشرين الأول عام 1929 واستمر لعقد من الزمن . ولم يستطع الاقتصاد الأمريكي ان يعود إلى ما كان عليه من مستويات حتى العام 1939 ، وكانت الحرب العالمية الثانية هي صاحبة الفضل في إنقاذ الرأسمالية من حتفها.

الكساد الكبير

- كانت نتائج الكساد الكبير ما بين 1929- 1932 :
 - انهيار 5000 بنك في هذه الفترة.
 - هبط الإنتاج الصناعي بـ 45%.
 - هبطت حركة بناء العقارات بـ 80%.
 - أصبح 13 مليون أمريكي عاطلين عن العمل حيث ارتفعت نسبة البطالة من 4% إلى 25%.

- أفرزت الممارسات خلال فترة العشرينات في القرن العشرين فقاعة كبرى أشبه بالفقاعة التي أفرزتها ممارسات التسعينات في القرن العشرين والتي انفجرت سنة 2008.
- شجع أصحاب المؤسسات المالية المواطنين على الدخول في سوق الأسهم ، بحيث كانوا يمولون 3/2 قيمة السهم المتداولة ، بحيث أصبحت قيمة الديون على هؤلاء تزيد عن مجموع قيمة النقد المتداول آنذاك .
- وزادت أسعار الأسهم بصورة هائلة حتى أصبح معدل P/E 32.6 في سبتمبر 1928.
- في 24 أكتوبر 1929 بدأ سوق وول ستريت بالهبوط حيث تم معاملات لـ 12844650 سهم في ذلك اليوم حيث حاول الجميع الهروب من السوق.
- وكما كانت فقاعة العقارات هي الشعرة التي قصمت ظهر البعير في 2008 ، كانت العقارات في فترة العشرينات قد وصلت إلى ذروتها وساهمت هي الأخرى في انهيار الكساد الكبير.
- ولقد اتفق الجميع بأن الولايات المتحدة كانت المصدر الرئيسي لهذا الكساد الذي انتقل بدوره إلى بقية دول العالم.
- وكما اليوم كان سوق الأسهم بين 1929 – 1932 متقلباً فوصل معدل داو جونز في يوليو 1932 إلى معدلات أواخر القرن التاسع عشر ، أي معدلات ما قبل 30 – 40 سنة.
- لكنه أيضاً لم يصل إلى ما كان عليه قبل الكساد في سنة 1929 إلا بعد 35 سنة (1964).

إجراءات روزفيلت للخروج من الكساد الكبير

بالرغم من مرور عشر سنوات على الكساد الكبير، وبالرغم من البرامج الكبيرة للخروج منه ، لم تخرج الولايات المتحدة منه إلا بعد دخولها الحرب العالمية الثانية.

- حجم الاقتصاد الكلي GNP ، كان سنة 1929 / 101.4 مليار وفي سنة 1938 / 96.7.
- نسبة العاطلين عن العمل كانت 3.1% سنة 1929، ارتفعت إلى 24.9% سنة 1933، وبقيت على 19% سنة 1938، لكنها أصبحت 1.9% أثناء الحرب العالمية الثانية.
- انتقلت عدوى الكساد إلى العالم. كانت النتيجة : التخلي عن معيار الذهب في بريطانيا أولاً سنة 1931 وفي الولايات المتحدة سنة 1933.

- كما عمت الإضرابات الاجتماعية والسياسية أرجاء العالم ، وكان أدولف هتلر هو أحد نتائج الكساد الكبير ، كما انتقلت دول أوروبا الغربية إلى أقصى اليمين أو اليسار ، كالنازية والفاشية أو الاشتراكية الوطنية.
- هادن روزفيلت العمال ، وتمسكت الرأسمالية حتى تمكنت . كما هادن السود.
- ومع أن روزفيلت مشى مع الرأي العام بلعن البنوك والبيوت المالية، في الوقت الذي كانت أولى أولوياته هي إنقاذهم بقانون طوارئ البنوك بعد 45 يوماً من تسلمه السلطة. هذا بعض ما جاء في أقواله للاستهلاك الشعبي:
- "إن ممارسات تجار المال هي مدانة في محكمة الرأي العام، ومرفوضة في قلوب وعقول الرجال ... لقد هرب هؤلاء من منابرهم بين صفوف معبد الحضارة الإنساني".
- قام المؤرخون من خارج اليمين المحافظ باتهام روزفيلت بأنه أنقذ الرأسمالية من أجلها المحتوم ، وفوّت فرصة ذهبية لتأميم البنوك وسكك الحديد والمرافق العامة، التي لم تكن لتستمر لولا دعم الدولة المادي والمعنوي ، وأنه ابن الرأسمالية وجاء من عائلة أصولها متجذرة في القطاع المالي منذ عشرات السنين لنجدة أبناء طبقته ، بينما هاجمه بعض المحافظين بأنه تسبب في تدخل الدولة بشؤون لا تعنيها ، وأنه قوى ساعد العمال.
- المؤرخ Barton J. Bernstein بارتون بيرنستين كتب أن الرأسمالية قد تم إنقاذها من سوء أفعالها بواسطة الصفقات الجديدة التي قدمها روزفيلت ، والتي أنقذت الرأسمالية ولكنها لم تساعد فئات المجتمع الأوسع إلى المساعدة".
- كانت برامج الإنقاذ المختلفة تحت اسم "الصفقة الجديدة" The New Deal ، وجاء ضمنها قانون الضمان الاجتماعي ودعم المزارعين، وبناء الطرق والسدود وغيرها لخلق الوظائف ...
- كانت الحرب هي الوسيلة للخروج من هذا الكساد حتى ولو كان الثمن 50 مليوناً من البشر، فجاءت الحرب.
- كان 82% من الأمريكيين يعارضون دخول الحرب ... فجاءت بيرل هاربر فتغير الحال ... وتطوع مليون رجل بعد ذلك الهجوم "للدفاع عن الوطن" ... أم "الدفاع عن وول ستريت وأقرانهم" من حيث لا يعلمون.
- انتهت أكثر برامج الصفقة الجديدة مع انتهاء الحرب الثانية وما بقي بها من قوانين تم فككتها أثناء حكم ريغان ، وبقيادة بول فولكر الذي عينه أوباما رئيساً لفريقه الاقتصادي.

- قال روزفلت بعد هجوم بيرل هاربر "لقد استسلم الدكتور New Deal (برامج الصفقة الجديدة) إلى دكتور الحرب".

دراسات "الحرب والسلام"

وحتى قبل أن تقم الولايات المتحدة نفسها في الحرب الكونية الثانية، اتخذ مجلس العلاقات الخارجية مبادرة للإقدام على دراسات مشتركة مع الإدارة الأميركية لتحديد وتسويق دراسات "الحرب والسلام". وحددت هذه الدراسات النظام العالمي الجديد لفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية. كانت قلة فقط تمتلك من الكفاءة ما كان لدى رئيس المجلس إشعيا بومان (Isaiah Bowman) للبدء في إجراء دراسات الحرب والسلام. وفي 1939/9/12، وبعد اثني عشر أسبوعاً من نشوب الحرب، اجتمع في واشنطن كل من والتر مالوري (Walter H. Mallory)، المدير التنفيذي في المجلس، ومحرر مجلة الشؤون الخارجية هاميلتون فيش أرمسترونغ (Hamilton Fish Armstrong)، إلى مساعد وزير الخارجية جورج ميسيرسميث، الذي كان أيضاً عضواً في المجلس. وقدم الاثنان مشروع تخطيط طويل الأجل تضمن تشكيل فرق دراسة ومناقشتها مع وزير الخارجية. وتقرر أن تكون التوصيات التي تنتج عن هذه الدراسات مكتومة وسرية لدى رفعها إلى وزارة الخارجية والرئيس فرانكلين روزفيلت. وليس سراً أن روزفيلت نفسه كان على علاقة وثيقة بالمجلس، حتى إن منزله في نيويورك، عندما كان حاكماً لها، كان مجاوراً وملاصفاً للمجلس!

وفي منتصف شهر كانون الأول عام 1939 تم تشكيل خمس مجموعات دراسة:

- المجموعة الاقتصادية والمالية برئاسة هانسين وفين.
- المجموعة السياسية برئاسة شيباردسون..
- مجموعة الأسلحة برئاسة دالاس.
- المجموعة الإقليمية برئاسة بومان.
- مجموعة أهداف السلام، وتولى رئاستها فيما بعد أرمسترونغ.

ومن النتائج التي توصل إليها المجلس مع مجموعات الدراسة، أنه من أجل إتاحة الفرصة للاقتصاد الأميركي لأن يعمل على النحو الأكمل. فإنه في حاجة ماسة للوصول إلى الأسواق والمواد الخام التي تمتلكها الدول الأخرى، بحرية تامة ودون عراقيل. وقد صدرت مذكرة المجموعة الاقتصادية والمالية رقم

(E-B 19) في شهر أكتوبر عام 1940، والتي أشير فيها إلى اليابان بالعائق أمام توحيد وتكامل دول الشرق الأقصى، في الفترة التي تعقب الحرب العالمية الثانية

أما المذكرة رقم (E-B 26)، والمؤرخة في 15 كانون الثاني عام 1941، والتي حملت عنوان "السياسة الأميركية في الشرق الأقصى"، فقد جاء فيها "إن جزر الفلبين، شرق الإنديز الهولندية، وملايا البريطانية تعتبر كلها مصادر رئيسة وموارد للمواد الخام، وهي بالغة الأهمية بالنسبة للولايات المتحدة في السلم والحرب، وإن السيطرة على هذه المنطقة من قبل قوى معادية للولايات المتحدة قد يحدّ بصورة خطيرة من حريتها في التحرك".

أما المذكرة رقم (E-A 17) المؤرخة في الرابع عشر من حزيران 1941، فقد ناقشت إقامة "اقتصاد عالمي واحد" تهيمن عليه الولايات المتحدة. وكإجراء مؤقت حددت المذكرة رقم (E-B 34) التي حملت تاريخ الرابع والعشرين من تموز 1941، مفهوم المنطقة الكبرى لتتألف من "نصف الكرة الغربي، والمملكة المتحدة، وباقي أجزاء الكومنولث والإمبراطورية البريطانية، وشرقي الإنديز الهولندية، والصين واليابان نفسها..." وتقرر أن هذه المنطقة هي الحد الأدنى من الاحتياجات المطلوبة لتمكين الاقتصاد الأميركي من العمل بفاعلية، دون الاضطرار إلى إجراء تعديلات رئيسة. وقد اعتبرت المنطقة الكبرى منطقة محورية مركزية ربما تكون الاقتصادات المدمرة بعد الحرب متناسجة وامتازجة معها. وكلما زادت دول أخرى إلى المنطقة الكبرى، كان ذلك أفضل. وبينت المذكرة إيها (E-B 34) الحاجة إلى إيجاد كل من:

- المؤسسات المالية الدولية لتثبيت العملات.
- المؤسسات المصرفية الدولية للمساعدة على الاستثمارات والتنمية في الدول غير النامية أو المتخلفة.
- وفي أكتوبر من عام 1941، كانت الفكرة قد اختمرت وجرت تصفيته وتقييمها. واقترح إيجاد "هيئة تنمية دولية" (*International Development Authority*) لتحفيز الاستثمار في الدول النامية، وزيادة القدرات الشرائية لدى مواطنيها، والتي ينتج عنها زيادة الطلب على المنتجات الأميركية.
- وفي الأول من نوفمبر عام 1941، اقترح لإنشاء "مؤسسة دولية لإعادة الإعمار" تتم إقامتها من قبل الحكومات، حتى لو كان ذلك خلال الحرب. وقد تبنى المجلس كلا الاقتراحين وأرسلهما معززين بتوصيات إلى الرئيس الأميركي روزفيلت ووزارة الخارجية. ووضع

هاري ديكستر وايت (Hary Dexter White) من وزارة الخزانة التفاصيل الفنية للمؤسستين أنفقي الذكر. وفي مارس 1942، وضع وايت مذكرة أدت لاحقاً إلى إقامة صندوق النقد والبنك الدوليين.

وقد ووفق على الخطة، وكانت هناك مرونة في تطبيقها ليتم في حدود الوقت الذي تنتهي فيه الحرب العالمية الثانية. ووجهت الدعوات إلى 44 دولة لحضور اتفاقية بريتون وودز في نيوهامبشاير (New Hampshire) عام 1944، وتكرس إنشاء المؤسسات المالية المطلوبة للرأسمالية العالمية لفترة ما بعد الحرب العالمية الكونية الثانية، والمعروفة بمؤسسات بريتون وودز (Bretton Woods)، وهي البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، وال GATT التي أصبحت منظمة التجارة الحرّة.

وهكذا، فقد أوجد أيضاً إطار متكامل لمؤسسة سياسية لنظام التحكم العالمي بعد الحرب العالمية الثانية. وما دامت وسائل سلب ثروات الشعوب والدول الأخرى وامتصاصها يمكن أن تطبق من خلال الشركات الاستعمارية، أو استعمار الشركات. ومع ضمان الحكومة الأميركية – الإمبراطورية الأميركية – حرية حركة الأموال والسلع وتنقلها، فإنه سرعان ما تحصل المستعمرات على "استقلالها" بطريقة تضمن الوصول إلى أسواق هذه الدول وموادها الخام بأمان "ودون ضغوط" تواجهها الشركات عبر القطرية المتعولمة. ويمكن لهذه أن تمارس بالضبط دور الاستعمار. وسيكون لمجموعات النخبة في المستعمرات المستقلة حديثاً مصالح مشتركة مع مجموعات "النخبة المتعولمة" العالمية. وفي سعيهم وراء مصالحهم المالية والمادية، فإنهم سيعقدون الأحلاف ويجرون المصاهرات في مواجهة أية مصالح قومية ووطنية قد تتعارض مع "التعولم"، إذ إن المتعولمين كافة في داخل البلد أو خارجه لا يدينون بأي ولاء لأوطانهم، فإخلاصهم الأول والأخير هو لمصالحهم الشخصية الضيقة. . وكان إشعيا بومان هو صاحب الاقتراح في أن بإمكان الولايات المتحدة ممارسة سيطرتها الفاعلة على المستعمرات السابقة والاماكن الأكثر ضعفاً وهشاشة في العالم من خلال الأمم المتحدة. وما من شك في أن الولايات المتحدة كانت بأمر الحاجة إلى القوة لضمان "الأمن"، ولكنها مع ذلك يجب "أن تتحاشى اتباع أساليب الاستعمار التقليدية"، وليس تحاشي الاستعمار نفسه. وشرعت "مجموعة العمل" في تلك المهمة وأعلنت أن الغاية من إنشاء الأمم المتحدة هي الحفاظ على الأمن والسلام في أرجاء المعمورة.

أعدت المسودة الأميركية للأمم المتحدة في غضون سبعة أشهر، في الفترة ما بين ديسمبر 1943 ويوليو 1944. ووافق هول، وزير الخارجية، على المسودة، وعهد بها إلى ثلاثة محامين لضمان عدم تناقضها مع

دستور الولايات المتحدة الأميركية. ولمّا لم يرَ المحامون أية غضاضة في المسودة، قام هول وآخرون بمناقشة المسودة مع الرئيس روزفيلت الذي لم يوافق عليها فحسب، بل قام بإلقاء خطاب موجه للشعب الأميركي حول هذا الموضوع.

مؤسسات عالمية جديدة لنظام استعماري جديد

وبحلول نهاية الحرب العالمية الثانية، كان المطبخ الأميركي قد فرغ من وضع خطته للمنطقة الكبرى، التي رسم لها أن تقود العالم إلى الاقتصاد العالمي. فقد أوجدت هذه المخططات المؤسسات الدولية السياسية (الأمم المتحدة)، والمالية ممثلة في صندوق النقد والبنك الدوليين، لقيادة إمبراطورية أميركية تحل محل الإمبراطورية البريطانية. وتضمنت الخطط أن تمارس هذه الإمبراطورية النفوذ الأميركي الإمبريالي، من خلال أنظمة إبداعية خلاقة وغير منظورة، ظلت تخضع للتعديلات والتغييرات على نحو تكتيكي حسب مقتضيات الحاجة، مستخدمة أنظمة الاتصالات والمخترعات والأساليب الإدارية الجديدة.

كانت الإمبراطورية البريطانية تستولي على المواد الخام من مستعمراتها في جزء معين من العالم، ثم تقوم بتصنيعها في جزء آخر، وبعدئذ تباع المنتجات المصنعة في مكان ثالث. ويمكن للولايات المتحدة أن تحصل على النتائج نفسها. ولكن ليس من الضروري أن تكون بالطريقة ذاتها التي سارت عليها الإمبراطورية البريطانية. وقد أوضح جورج بول (George Ball)، وهو مساعد وزير خارجية أميركي سابق، ومصرفي عريق في شركة ليمان برذرز (Lehman Brothers) المصرفية الاستثمارية، كيف يمكن لشركة متعولمة أن تقوم بهذه المهام جميعها. ففي مقالة بعنوان "الشركات العالمية: أهمية عدم الارتباط بدولة واحدة"، يقول بول إن الشركات متعددة الجنسيات معنية ومنشغلة "باستقدام المواد الخام التي تنتج في مجموعة من الدول، وتقوم بتحويلها إلى سلع مصنعة، مستخدمة العمالة وتسهيلات المصانع في مجموعة أخرى من الدول، فيما يتم تسويق هذه السلع في مجموعة ثالثة من الدول". لقد أصبح هذا النمط الاستعماري الجديد من خلال الشركات المتعولمة، "إحدى ثمار التقنية التي أتاحت الاتصالات الفورية، والنقل السريع، وأجهزة الكمبيوتر، ووسائل الإدارة الحديثة...".

وهكذا، فقد حل عصر استعمار الشركات محل الاستعمار، الذي كان يتمثل في الاحتلال الفعلي للدول الأخرى. ولكن استعمار الشركات أكثر جشعاً ومكراً واستشراءً من الاحتلال الفعلي المباشر، لأنه في الغالب استعمار غير منظور. إن هذا النمط الجديد من الاستعمار يتطلب توفر مستلزمات ضرورية حتى يغدو قادراً على العمل على الوجه الأكمل. ومن هذه المستلزمات والمتطلبات الضرورية:

- يجب أن تكون هناك تجارة حرة حتى يتاح فتح أبواب الأسواق العالمية على مصاريعها لاحتضان هذه الشركات.
- حرية الوصول إلى المواد الخام العائدة للشعوب والدول الأخرى، ودون أية ضغوط أو مضايقات من حيث السعر أو الكمية المراد الحصول عليها.
- إطلاق يد الممولين وبارونات المال ليستثمروا أموالهم ويجنوا الأرباح دون أية عوائق.
- ضرورة وجود المؤسسات الدولية والمالية لإدارة هذه الرؤية الجديدة للاقتصاد العالمي.
- كانت التجارة الحرة هي العصب الحيوي في ثقافة البارونات الأنجلو- سكسونيين، والتي يستطيعون من خلالها المحافظة على سيطرتهم عن طريق استخدام رأس المال، لتشكيل علاقة تبعية مالية تكون ذات فاعلية أكثر من الحكم الاستعماري الرسمي.

ومن المفارقات أن أول إعلان عن نظام عالمي جديد قد صدر قبل 50 عاماً من إعلان بوش الأول في الكونغرس عن نظامه العالمي الجديد. فقد استخدم أدولف هتلر (*Adolph Hitler*) اللغة ذاتها حيث قال: "أنا على يقين تام من أن عام 1941 سيكون عاماً حاسماً في فتح الطريق أمام نظام جديد عظيم في أوروبا. سوف تكون أبواب العالم مشرعة للجميع ... ستساعد هذه السنة في توفير الأساس اللازم لتفاهم حقيقي بين شعوب الأرض، بما يضمن المصالحة بين الشعوب والأمم كافة."

لقد شنت الولايات المتحدة حروبها على بلاد ومناطق الآخرين. فقد كانت اليابان تعيش حالة من الدمار الكامل، حالها حال أوروبا، أما الاتحاد السوفييتي *USSR* فَقَدْ فَقَدَ 20 مليوناً تقريباً من أبنائه، إلى جانب تعرض اقتصاده إلى تدمير شامل. ولم يتوقف الأمر على عدم تضرر الولايات المتحدة جراء الحرب، بل إن اقتصادها فوق ذلك كان قد تضاعف ونما بنسبة فاقت 300% خلال الحرب، وبسببها. أما بالنسبة لأوروبا، فقد تقدم وزير الخارجية جورج مارشال (*George C. Marshal*) بخطة لإصلاحها في يونيو عام 1947. كانت الخطة تهدف إلى إصلاح أوروبا اقتصادياً وإعادة تأهيلها حتى تستعيد قدرتها على مواجهة التهديد الشيوعي. ولقد شاركت 16 دولة، إلى جانب ألمانيا الغربية في الحرب، وأنفقت الولايات المتحدة خلال ثلاث سنوات مبلغ 12 مليار دولار، عن طريق خطة إنعاش أوروبا، كما كانت تسمى خطة مارشال أيضاً. ووقعت اثنتا عشرة دولة على اتفاقية حلف شمال الأطلسي في إبريل عام 1949. وأدت السيطرة الشيوعية على الصين بحلول نهاية عام 1949، إلى دفع الولايات المتحدة للتوجه نحو تعزيز قوة اليابان وتحفيزها ودفعها نحو التصنيع، حتى تتمكن من مجابهة التهديد الصيني.

ووضع قانون الأمن القومي موضع التنفيذ عام 1947، وتشكلت وزارة الدفاع عام 1949. وبحلول عام 1949، كانت معظم أدوات تطبيق السيطرة العالمية، وإقامة النظام الاقتصادي العالمي الجديد لفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية في طور التشكل، وبحلول شهر سبتمبر من عام 1949، قام الاتحاد السوفييتي باختبار قنبلته الذرية الأولى، وكان الاقتصاد السوفييتي في الخمسينيات يحتل مركزاً متقدماً من حيث معدلات النمو الاقتصادي. وقرر مخططو السياسة الأميركية في السنوات الأولى من الحرب الباردة أن يسقطوا الاتحاد السوفييتي ويدمره، عن طريق خنقه اقتصادياً وزيادة الإفراط في نفقاته على النواحي العسكرية وغير المنتجة.

إلى جانب ذلك، عملت الولايات المتحدة على إعادة تنظيم مؤسساتها الاستخباراتية، وقامت بتلك المهمة طواقم مكتب الخدمة الاستراتيجية (OSS)، التي تلقت تدريباتها على أيدي المخابرات السرية البريطانية. لقد نشأت هذه المؤسسات الأميركية وكل الوكالات الاستخباراتية السرية، من خلال صلاتها تلك بالبريطانيين أثناء الحرب. وفي تقرير سري قدّمه إلى البيت الأبيض عام 1954، لخص الرئيس الأسبق هيربرت هوفر (Herbert Hoover) رؤيته ومنظوره للحرب الباردة قائلاً: "ليست هناك أية قواعد البتة لهذه اللعبة (الحرب الباردة)... لذلك، ليس بالإمكان تطبيق النواميس والأعراف الإنسانية المقبولة... لو أردنا للولايات المتحدة أن تعيش، فإن علينا أن نتعلم كيف نخرب ونهدم وندمر أعداءنا بوسائل أكثر حنكة ودهاء وتعقيداً وفاعلية من تلك المستخدمة ضدنا".

"معهد بحوث السياسة الخارجية"

مول إشعيا بومان (Isaiah Bowman) الذي قاد مجموعة "دراسات الحرب والسلام"، والتي أنشأت نظام ما بعد الحرب العالمية الثانية، روبرت ستروز – هوب (Robert Strausz-Hupe) والذي أسس، بدوره، عام 1955 "معهد بحوث السياسة الخارجية" (FPRI) لإصدار نشرة ربع سنوية باسم أوربز (Orbis) عام 1975، والتي تخصصت في الشؤون الدولية. ولقد كان في هيئة التحرير لهذه المجلة وليم ياندل إليوت William Yandell Elliot رئيس كلية سياسات الدولة في جامعة هارفارد، وتلميذه، آنذاك، هنري ألفرد كيسنجر (Henry A. Kissinger)! ولقد كانت المهمة المعلنة لمعهد بحوث السياسة الخارجية المذكور ونشرته ربع سنوية، هي الدعوة إلى إقامة إمبراطورية أميركية، والتخلي عن سيادة الدول والدولة القومية، وبخاصة في عالم ما بعد الاتحاد السوفييتي!

وقد كانت المقالة الرئيسة لأول عدد لمجلة أوربيز (Orbis) بعد انهيار الاتحاد السوفييتي في شتاء 1992، مقالة نشرت للمرة الأولى في العدد الأول للمجلة عام 1957؛ أي قبل 35 سنة من انهيار الاتحاد السوفييتي. وعنوان المقالة هو "موازين الغد" *Balance of Tomorrow* وجاء فيها:

"إن مهمة الولايات المتحدة هي توحيد العالم بأكمله تحت قيادتها خلال هذا الجيل. أما سرعة وكفاءة تحقيق الولايات المتحدة لهذا الهدف فسوف يقرر مصير الحضارة الغربية، وبالتالي المصير البشري... فهل سيكون النظام العالمي الجديد القادم هو إمبراطورية عالمية أميركية...؟ يجب أن يكون الأمر كذلك لدرجة أن تحمل الإمبراطورية العالمية تلك دمغة الروح الأميركية." أما التهديد لهذه الرؤيا وهذه الإمبراطورية الأميركية فسيأتي من آسيا كما جاء في مقالة أوربيز (Orbis): "أما الإمبراطورية الأميركية والجنس البشري فسوف لن يكونا متضادين، بل هما اسمان لشيء الواحد هو النظام العالمي الجديد".

إن ما جاء في رسالة الستين أميركي ومنهم صامويل هنتنغتون (Samuel Huntington) صاحب "صراع الحضارات" (The Clash Of Civilizations) والتي تدعو لتبني القيم والمعايير الأميركية لتكون قيم العالم بأجمعه هي الرسالة نفسها التي جاءت بها مقالة أوربيز المذكورة أعلاه. لقد كتبت رسالة الستين بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام 2001 وهي متممة للرسالة التي بدأتها أوربيز (Orbis) عام 1957 .

كان البيلديبيرغ هو المكان الذي يحاول فيه حيتان السياسة والاقتصاد الأميركيون والأوروبيون أن يصلوا إلى، بل ويشكلوا القرارات والسياسات، وأن يوجدوا لها الإجماع المطلوب لتصبح على جدول أعمال النخبة التي ستصوغ التشريعات المستقبلية وتضعها موضع التنفيذ. وبما أن المشاركين هم من بين الصفوة القوية المتنفذة في أنظمتهم، فبمجرد أن يتم تبني سياسة ما، فإنها ستحظى بقبول الكثير من قنوات الرأي القوية المتوفرة للمشاركين، ليعملوا على نشرها ورؤية تطبيقها في خضم الإجراءات والعمليات البيروقراطية التي يسيطر عليها أعضاء البيلديبيرغ.

كانت معظم المناصب المهمة في وزارة الخارجية إبان حكم الرئيس كينيدي من منتدى بيلديبيرغ، ومن هؤلاء وزير الخارجية دين راسك، ومساعد وزير الخارجية جورج بول (George Ball)، وجورج ماك غي (George McGhee)، وولتر روستو (Walter Rostow)، وماك جورج بندي (McGeorge Bundy)، وآرثر دين (Arthur Dean)، وكان كثير من هؤلاء أعضاء في مجلس العلاقات الخارجية.

أمريكا تطبع دولارات أكثر من تعهدها ، وتلغي التزامها

في عام 1958، رفض ديغول (*De Gaulle*)، الذي كان في موضع السلطة، انضمام فرنسا إلى حلف الناتو *NATO* بعد أن قوبل طلبه بالرفض فيما يتعلق بممارسة فرنسا أو حصولها على حق النقض (الفيتو). وفي سبتمبر من العام نفسه، قام بدعوة المستشار الألماني كونراد أديناور لمزيد من التعاون الوثيق وبخاصة بعد أن أصبحت الخطط والسياسات البريطانية القديمة عنواناً للممارسات الأميركية. في 1963/1/22، وقعت فرنسا وألمانيا اتفاقية للتعاون الوثيق والتنسيق على المستويين الاقتصادي والصناعي. وفي الثالث والعشرين من الشهر ذاته وفي العام ذاته، صوتت فرنسا ضد انضمام بريطانيا للسوق الأوروبية المشتركة مستخدمة حق الفيتو، ذلك لأنها تعلم جيداً السياسات البريطانية القائمة والتي تعارض وجود أوروبا قوية. مارست القوى الخفية للولايات المتحدة ضغوطاً شديدة على أديناور (*Adenauer*) مما أدى إلى إزاحته عن منصبه في 1963/4/24، أي بعد ثلاثة أشهر من توقيع الاتفاقية الألمانية الفرنسية، وقبل يومين من وضع القراءة الأولى للاتفاقية على جدول أعمال البوندستاغ. ونجم ذلك عن عقيدة جديدة لواشنطن هي "المخطط الأطلسي الكبير" (*Atlanticist Grand Design*)، لمواجهة المخطط الأوروبي على المستوى القاري للتمتع بالاستقلال.

شهد عام 1957 وللمرة الأولى بعد الحرب العالمية الثانية، هجرة الأموال إلى خارج الولايات المتحدة بمبالغ تزيد كثيراً عن تلك التي تتدفق عليها. وكان مرد ذلك إلى معدلات الفائدة الأعلى في أوروبا، وكانت عائدات الاستثمار في أوروبا تشكل ضعفي مثيلاتها في الولايات المتحدة. وبدلاً من إعادتها إلى أميركا، كانت البنوك تبقي أرباحها في أوروبا، ما أدى إلى جعل رأس المال الأميركي يبدو أقل اهتماماً بمشاريع البنى التحتية في الولايات المتحدة، والتي تعطي عوائد أقل من أوروبا. في عام 1957 أيضاً، شهدت الولايات المتحدة حالة من الركود الاقتصادي.

كان جون ماكلوي رجلاً متعدد المواهب والمناصب، حيث إنه أحد مؤسسي مجلس العلاقات الخارجية، والمفوض السامي لدى ألمانيا بعد الحرب، ورئيس مجلس إدارة تشيس بانك، والمحامي الخاص لشركة ستاندارد أويل. وقام هنري كيسنجر من جامعة هارفارد في أواخر الخمسينيات ليعمل على تطوير خيارات سياسية لمجلس العلاقات الخارجية. وكان الخيار الذي استقر عليه مجلس العلاقات الخارجية هو أن يعتبر أصحاب البنوك والشركات متعددة الجنسيات أن مجال أعمالهم هو العالم بأسره، وألاً يقيّدوا أنفسهم داخل

نطاق الولايات المتحدة فقط. وقد سُخرت وسائل الإعلام التي تملكها وول ستريت ومحطات التلفزة القوية الجديدة لنشر وتعميم هذه الرؤية.

كان جورج بول (George Ball)، وهو عضو في مجلس العلاقات الخارجية ونائب لوزير الخارجية ومصرفي سابق في ليمان برذرز (Lehman Brothers)، أفضل من عبّر عن ذلك المنظور الجديد، حيث أوضح الكيفية التي تستطيع فيها الشركات متعددة الجنسيات ممارسة أدوارها. وبات هذا الاستعمار الجديد، من خلال استعمار الشركات عبر القطرية قيد الإمكان، "نتيجة" لمزايا الاتصالات الفورية، ووسائل النقل السريعة، والحواسيب، وتقنيات الإدارة الحديثة... وبذلك، فإن الشركات متعددة الجنسيات تقوم بما كانت تقوم به شركة الهند الشرقية، باستثناء أن الأولى ليست بحاجة إلى العساكر والقوات البريطانية التي ترهق كاهل الاحتلال بالمصاريف والنفقات.

ونتيجة لرؤية كهذه ارتفع صافي الصادرات الرأسمالية الأميركية إلى أوروبا الغربية من 25 مليار دولار سنوياً إلى ضعف هذا المبلغ، خلال فترة قصيرة امتدت من عام 1957 وحتى عام 1965. وبقيت تلك الأموال وأرباحها في أوروبا حتى باتت تعرف باسم "اليورودولار" Eurodollar.

وفي رسالة وجهها إلى الكونغرس في 18/6/1963، اقترح كينيدي فرض "ضريبة تكافؤ معدلات الفائدة على الأموال الموجودة في الخارج، وذلك لتشجيع تصدير المنتجات المصنعة بدلاً من تصدير الدولارات. ولكن كينيدي لم يعيش حتى يشاهد ذلك بعينه. فاغتيال في 22/11/1963 في دالاس، تكساس. وأظهر آخر استطلاعات الرأي الذي أجرته مجلة تايم TIME مع شبكة الأخبار بالكوابل CNN بعد 25 عاماً من اغتيال كينيدي، أظهر أن 70% من الأميركيين يعتقدون أن الاغتيال كان مؤامرة مدبرة، وأنهم لا يصدقون الرواية الرسمية لنظرية الاغتيال الذي قام به فرد واحد، والتي طرحتها لجنة وارين (Warren commission) والحكومة الأميركية.

ولتمويل حرب فيتنام، قامت الولايات المتحدة ببساطة بطباعة مزيد من الدولارات، عن طريق بيع المزيد من سندات الخزنة الأميركية لتمويل العجز. لكن العجز ظل في ارتفاع مستمر من 3 مليارات دولار سنوياً في بداية عام 1960، حتى وصل إلى 9 مليارات دولار عام 1967، و25 مليار دولار عام 1969! ومع بدء استنزاف احتياطياتها من الذهب، طلبت الولايات المتحدة من البنوك المركزية الأوروبية أن تبقي الدولارات في أوروبا وألا تستردها ذهباً، بل تقوم بتحصيل الفوائد عليها بدلاً من ذلك. وبعد سنوات قليلة، ألغت الولايات المتحدة اتفاقية بريتون وودز وألغت معها استرداد الدولارات ذهباً، وبالتالي جردت أولئك

الذين كانوا يحتفظون بالدولارات الأميركية من ثرواتهم، ذلك أن دولاراتهم أصبحت لا تساوي إلا كسوراً من قيمتها التي كانت عليها حين كانت تتم مقايضة كل 35 دولاراً بأونصة واحدة من الذهب.

وفي مايو من عام 1971، تم تسجيل أول عجز تجاري أميركي بعد الحرب العالمية الثانية. وأصبحت احتياطات الذهب أقل من ربع الالتزامات الأميركية الرسمية. وأعلنت الولايات المتحدة في 1971/8/15 تعليق قابلية تحويل الدولار إلى ذهب، لتضع بذلك العالم على كفة قاعدة الدولار بدون أي غطاء أو دعم من الذهب، وكان ذلك نهاية نظام بريتون وودز.

وتحضيراً لنظام تعويم البترودولارات "الجديد"، تمت إعادة جاك بينيت (*Jack Bennett*) لوزارة الخارجية أثناء ولاية الرئيس نيكسون عام 1971، وكذلك بول فولكر وكلاهما من وول ستريت. أما اللورد فيكتور روتشيلد (*Lord Victor Rothschild*)، الذي كان على رأس قسم الأبحاث الاستراتيجية في شركة رويال دوتش شل (*Royal Dutch Shell*)، فقد جيء به لقيادة "طاقم مراجعة السياسة المركزية" في رئاسة الوزراء البريطانية. وعمل روتشيلد على التأثير بقوة على سياسات الطاقة في رئاسة الوزراء البريطانية، وحافظ على الصلات مع هنري كيسنجر خلال السنوات الحاسمة التي شهدت أزمة في أسعار النفط.

- "11 دولاراً : هو المبلغ الذي تدفعه الدول النامية على صورة خدمة الديون مقابل كل دولار تحصل عليه على صورة مساعدات
-
- 30.000 شخص : هو عدد الموظفين الاندونسيين لمصنع ناايكي "NIKE" للأحذية الرياضية ، والذين يقل اجمالي رواتبهم السنوية عما يتقاضاه نجم كرة السلة الأمريكي مايكل جوردان (Michael Jordan) لقاء ظهوره في الإعلان عن هذه الأحذية."

عن مجلة تايم الأمريكية
1 حزيران 1998

"وفي ادق التعبيرات عن المبادئ والاخلاقيات الرأسمالية ، تعتبر الجريمة نشاطاً اقتصادياً آخر يمكن مقارفته لقاء ثمن باهظ ، اذا ما وقع صاحبه في قبضة رجال الامن . وليس هناك من شيء يمتنع القيام به ، ولا وجود للواجبات والالتزامات. ما هو موجود فقط هو عمليات السوق" .

Lester C. Thurow ليستر ثورو

MIT أستاذ الاقتصاد وعميد سابق بكلية الادارة في جامعة

الفصل الرابع

نذر العولمة بعد عشر سنين

صدر في سنة 1998 كتاب نذر العولمة وعنوانه الفرعي "لا للرأسمالية المعلوماتية"، يصل إلى نتيجة مؤداها أن نظاماً مالياً منفصلاً أسماه هيلموت شميديت "نظام اللا نظام" قد انطلق منذ 1971 بعد فك الارتباط بين الدولار والذهب، وبدأ بإثارة الأزمات الواحدة بعد الأخرى مما سيؤدي في النهاية إلى تدمير الذات وذلك النظام.

وفي كتاب "إمبراطورية الشر الجديدة" الصادر سنة 2003 كان محور الكتاب بأن فترة التسعينات كانت في الولايات المتحدة رديفاً لفترة العشرينات التي سبقت الكساد الكبير، الذي دام أكثر من عشر سنوات لم تتخلص منه الولايات المتحدة إلا بعد نشوب اقتصاد الحرب العالمية الثانية. إذن كان وضع الاقتصاد الأمريكي منهكاً ومتهالكاً منذ سنة 2000، وكانت نتائج الربع الثالث لسنة 2001 (قبل 11 سبتمبر 2001) كارثية، وإن العادة في النظام الرأسمالي هي الهروب من الكساد إلى الحروب، وهكذا جاء ما أُسمي بالحرب على الإرهاب. كان الفصل الأخير من كتابي حروب البترول الصليبية عنوانه "الإمبراطورية الأمريكية: نهايتنا بسكتة قلبية اقتصادية"، بل نوهنا بأن العقارات قد تكون الشعرة التي ستقضم ظهر البعير والاقتصاد الأمريكي وفقاعته الكبرى.

بقيت إدارة الرئيس جورج دبليو بوش في ثماني سنواتها تحاول الهروب إلى الأمام لمعالجة الفقاعة الكبرى، التي نتجت عن ممارسات عقد التسعينيات المشابهة لعقد العشرينات من القرن العشرين، وإنه إذا كانت ممارسات العشرينات قد قادت إلى كساد كبير، فإن تظافر المسببات نفسها في التسعينات سينتج عنها بالضرورة كساد كبير آخر في العقد الأول من القرن الواحد والعشرين.

نحن ندعي أننا قلنا بحتمية حدوث ما يحدث الآن في كتبنا قبل 10 سنوات (نذر العولمة)، وخمس سنوات (إمبراطورية الشر الجديدة)، و3 سنوات (حروب البترول الصليبية)، وسنة (أمريكا بعيون عربية). دعنا إذن نستعرض ما قلناه باختصار في تلك الكتب.

عن كتاب نذر العولمة (1998)

هذه بعض المقتطفات التي جاءت في ذلك الكتاب.

إننا لسنا بحاجة إلى 100 عام من الهزات، وإلى كوارث عالمية لكي نكتشف الخلل في عمل النظام الحالي . ومن بين هؤلاء الجادين كان الكثير من المخلصين والأساتذة الأميركيين ذوي المؤهلات العليا، والذين هم من رجالات المؤسسة الأميركية . وعلى سبيل المثال فإن ليستر ثورو **Lester C. Thurow** الذي ألف كتابا بعنوان "مستقبل الرأسمالية" هو أستاذ اقتصاد وعميد سابق في جامعة MIT العريقة، وتتصدر الصفحة الأولى من الكتاب مقولة صينية لشخصية غير معروفة جاء فيها :

"نحن كسمكة كبيرة استخرجت من الماء تتخطى وتضرب بذيلها لعلها تجد طريقها إلى الماء من جديد . وفي حالة كهذه فإن السمكة لا تعرف أين ستؤدي بها حركاتها تلك ، إنها تحس فقط بأن وضعها القائم غير قابل للاحتمال وأن شيئا ما يجب محاولته !" وفي حقيقة الأمر فإن وضع الاقتصاد والمال العالمي وقواعد السوق الخاصة به حالياً كلها غير قابلة للاحتمال...

إن النظام العالمي القائم حالياً يقود العالم من كارثة قومية إلى أخرى ، وقد تم إطلاق العنان للقوى الجديدة التي أفرزتها الثورة المالية العالمية، فيما أخذت تتلاشى وتضمحل المؤسسات المرموقة والتشريعات السليمة ، وبذلك ، لم تعد الدول قادرة على تنظيم هذه القوى الجديدة أو السيطرة على الممولين العالميين، الذين يسخرون تلك القوى وبالتالي قد يؤدي ذلك إلى التدمير الذاتي لهم .

إننا نرى الآثار الخبيثة لثورة العولمة وأن قوانينها بحاجة إلى الإصلاح مع أن أبواق العولمة وإمعاتها كانت تتشدد بوجود إصلاح العالم كله ليتوافق مع هذه القوانين الخرقاء التي يدعو أصحابها اليوم لإصلاحها. ويقول شواب رئيس منتدى دافوس: "نعم لقد أصبح العالم أكثر سرعة وتعقيداً – وباختصار عرضة للخطر. ونحن ننقل من عالم المحسوسات إلى عالم الخيال والأوهام: انظروا إلى ما تعنيه التجارة الالكترونية- لهذه الأسباب مجتمعة، وأخذين بالاعتبار أن القوانين والتنظيمات تكون عادة نتيجة ردود فعل لا نتيجة فعل، فستكون الأيام القادمة مليئة بالمفاجآت، خاصة في عالم المال". فإذا كان النظام المالي العالمي بل والنظام الرأسمالي العالمي بأكمله على شفير الانهيار بعد الأزمة الروسية في منتصف عام 1998، كما كتب جورج سوروس، أفلا يجب على الجميع أن يتمتعن بما تعنيه العولمة من مخاطر، والتفكير بما هو ممكن لدرء مخاطرها؟

اقتبسنا جورج سورس الذي حذر أيضاً من مغبة ممارسات وول ستريت، بعد انهيار الأسواق في جنوب شرق آسيا: " قبل أقل من ستة شهور كان النظام المالي العالمي على شفير الهاوية ، وكان ذلك النظام لا يبعد سوى أيام قليلة عن الانهيار التام . وحقيقة الأمر أن اقتصادات كثيرة من الدول النامية قاست هبوطات حادة كما لم يحصل إلا أيام الكساد العظيم . ولقد أصاب البؤس شعوب بلدان مثل إندونيسيا وتايلند . ولكن تلك الشعوب بعيدة جداً عنا ثم إن اقتصادات دول المركز – الولايات المتحدة وأوروبا – قد استفادت من مصائبهم ... وذلك بتدني أسعار المواد الخام، وكذلك انخفاض أسعار المستوردات الأجنبية من تلك البلدان التي وقعت ضحية الانهيار الاقتصادي... ولنقلها بصراحة: هناك خياران أماناً، فإما أن نصح وننظم قوى الأسواق العالمية عن طريق عمل عالمي ، وإلا فالخيار الثاني سيدفع الدول لتصبح صمامات أمان تسمح بدخول المال العالمي وتمنع خروجه ... إن هناك حاجة ملحة بإعادة التفكير وإصلاح النظام الرأسمالي العالمي ... وإني أخشى أن تؤدي النتائج السياسية الناتجة عن الأزمات المالية الأخيرة إلى انهيار النظام الرأسمالي برمته " (المضارب العالمي جورج سورس، من كتابه أزمة الرأسمالية العالمية) .

خلال عقد الثمانينات أطلق رجل يدعى ميخائيل غورباتشوف العنان لحركة لم تتوقف، حيث ظن أو قال إنها ستنتهي. وسواء كان يعمل علانية بمفرده أو سراً مع الآخرين، فإن الطاقة التي أطلقها داخل الاتحاد السوفيتي قد أدت إلى تدمير ذلك النظام، وأفضت إلى انهيار النظام الشيوعي والاتحاد السوفيتي وغورباتشوف نفسه . ومن الجائز أنه لم يكن يعتقد تماماً أن الأمور ستصل إلى هذا الحد عندما بدأ مشروع البريسترويكا. وإذا كانت البريسترويكا تهدف إلى "ترميم" سد للمياه، فإن البريسترويكا التي بدأها غورباتشوف قد دمرت جدران السد دون التخطيط لما سيتم عمله بالنسبة للمياه داخله .

ولما أصبح تآلف واشنطن يمتلك القوة والنفوذ باعتبار الولايات المتحدة القوة العظمى المنفردة، أغرتهم هذه القوة على فرض رؤيتهم للنظام الاقتصادي العالمي، آخذين في الاعتبار أن الوقت الحالي، من وجهة نظرهم، هو أفضل الأوقات لتكريس هذه الهيمنة . وأراد هؤلاء أن يغيروا العالم على النحو الذي أراد غورباتشوف من خلاله تغيير الاتحاد السوفيتي . وعلى غرار ما فعل غورباتشوف، فقد أطلقوا بريسترويكا عالمية لن تنتهي أو تتوقف على الأرجح ، حيث أراد لها تآلف واشنطن أن تتوقف"

من كتاب إمبراطورية الشر الجديدة الصادر سنة 2003 :

من الفصل الثامن : ازدهار اقتصاد الكذب

"يعتبر مجلس العلاقات الخارجية في نيويورك (CFR) واحداً من أقوى المؤسسات في الولايات المتحدة، حيث تتم فيه دراسة البدائل السياسية. وفي معظم الحالات، فإن البديل الذي يوصي به المجلس يصبح سياسة لمؤسسة تركيبة قوى الظل وأجندتها. وتصبح مثل تلك الأجندة برنامجاً للمسؤولين المنتخبين الذين يدينون بمناصبهم وكراسيهم إلى التأثير والمساهمة التي يوفرها أصحاب تركيبة القوى.

ما بين 12 و13 من تموز لعام 2000، وضع المجلس سيناريو بعنوان "الأزمة المالية التالية: إشارات تحذير، السيطرة على الضرر، والآثار." وقد تضمنت السيناريوهات السابقة التي لم يكشف النقاب عنها للملأ، كيف يمكن لهجوم إرهابي رئيس أن يؤدي إلى انهيار بالاقتصاديين الأميركيين والعالمي، وما هي الخطوات التي ترمي إلى الحيلولة دون هذا الانهيار في نظام متقلب جداً. وقد كان هذا السيناريو العام جزءاً من تقرير عام حول "مشروع الهشاشة المالية (Financial Vulnerabilities Project).

وفي 2001/9/14، أصدر المجلس أحدث بياناته لسيناريو عام 2000 أثناء اجتماع عقد في فندق سانت ريجيس *St. Regis Hotel* في واشنطن دي.سي. وكان عنوان هذا الاجتماع "اللجنة الأميركية للأمن القومي للقرن الحادي والعشرين: بعد الأحداث حالة طواري جديدة." وكان مدير المخابرات المركزية السابق آر. جيمس وولسي واحداً من أعضاء مجلس العلاقات الخارجية، الذين لعبوا دوراً رئيساً في مشروع الهشاشة المالية. وقد أوصى المجلس بإعادة تنظيم الاستخبارات المحلية ومنظمات إدارة الطوارئ. وقد امتثل بوش الثاني لهذه القرارات، حيث تم بعد 3 أيام الإعلان عن قيام وكالة جديدة تسمى "وكالة الأمن الدفاعي القومية" *Homeland Defense Security Agency (HDSA)*.

لقد كان النظام المالي الأنجلو-أميركي يعاني من أزمة، والحروب التي ستلي 11 سبتمبر قد تساعد على إعادة صياغة النظام العالمي الجديد. إن من طبيعة الرأسمالية الأنجلو-أميركية أن تروج للحروب كحلول لمعالجة حالات الكساد والركود الاقتصاديين، وربما الإخفاق الحالي للنظام كله. وكانت مظاهر ضعف النظام بكليته وهشاشته صارخة الواضوح، فقد أظهرت النتائج المالية للربع الثالث من عام 2001 قبيل 11 سبتمبر ما يدعو إلى قرع جرس الإنذار. وقد أوردت مجلة الإيكونومست *Economist*:

- قدمت شركة بيت لحم للفولاذ طلباً للحماية من الدائنين، من خلال الفصل الحادي عشر من قانون الإفلاس، وبذلك تنضم ثاني أكبر شركة أميركية للحديد والصلب إلى 19 شركة أخرى، باحثة عن الحماية من دائنيها. وكانت صناعة الحديد تعاني من الفائض في الإنتاج والمنافسة من الحديد المستورد بأسعار رخيصة، حتى قبل أن يضرب الكساد قطاعات الاقتصاد الأميركي الضعيف كافة.
- قدمت شركة بولارويد *Polaroid* أيضاً طلباً للحماية من الدائنين، وكانت تعاني من وضع مالي متردٍ منذ سنوات، وستستمر في البحث عن مشترٍ لكل أو جزء من موجوداتها.
- اتفقت شركة بريتيش تيليكوم (*British Telecom*) وآيه تي أند تي *AT&T* على أنه قد حان الوقت لمواجهة الحقيقة ووضع حد لنشاطهما المشترك في عالم الاتصالات، والذي كان مسبباً للخسائر، مما سيلقي بما يزيد على 2300 شخص إلى الشارع دون عمل، وبخسارة مبلغ 7.3 مليار دولار. وستحمل الشركة الأخيرة معظم هذا المبلغ بنصيب يصل إلى 5.3 مليار دولار.
- قالت شركة جنرال موتورز *General Motors* إن أرباحها للربع الثالث تراجعت بنسبة 54% ، باستثناء مصاريف أخرى تبلغ 735 مليون دولار.
- أعلنت شركة فورد *Ford* عن خسائر بلغت 692 مليون دولار للربع الثالث، بينما كانت خسائرها 752 مليون دولار للربع الثاني. وكانت هاتان الخسارتان الحالة الأولى التي تتعاقب فيها الخسائر لدورتين متتاليتين منذ عام 1992.
- قالت شركة آي بي إم *IBM* إن الأرباح في الربع الثالث تراجعت بنسبة 19% مقارنة مع ما كانت عليه قبل عام مضى.
- قالت شركة إنتل *Intel* إن أرباحها خلال الربع الثالث تراجعت بنسبة 96% .
- سيتي غروب *Citi group*، مجموعة الخدمات المالية الأميركية العملاقة، أعلنت عن تراجع أرباحها في الربع الثالث بنسبة 9%.
- ميريل لينش *Merrill Lynch* أعلنت عن تراجع أرباحها للفترة ذاتها بنسبة تزيد على النصف. وسرحت 2300 من موظفيها لتخفيض النفقات.
- أعلن بانك أوف أميركا *The Bank Of America* أنه سجل هبوطاً في أرباحه خلال الربع الثالث بنسبة 54% مقارنة مع ما كان عليه قبل عام مضى.
- أعلن رئيس المدراء التنفيذيين لشركة إنرون *Enron Company* ، وهي من أضخم سبع شركات أميركية، حيث كانت قيمتها السوقية 100 مليار دولار، عن تقديم استقالته في شهر أغسطس، بعد أن تبين له أن إنرون كانت في الرمق الأخير. وفعلاً آلت الشركة إلى الإفلاس والانهيار بعد ذلك بأسابيع قليلة.

• حَلَّتْ فنلندا محلّ الولايات المتحدة، كأقوى اقتصاد منافس في العالم، على الرغم من أن فنلندا فيها أسواق عمالة متشددة، واتحادات نقابية فعالة، ومعدلات ضرائب مرتفعة، على النقيض تماماً مما يعظ به الاقتصاديون الانجلو- أميركيون كوصفة صالحة للاقتصاد المنافس.

• في أغسطس، أشار تقرير العمالة إلى تراجع في الوظائف غير الزراعية بمقدار 113 ألف وظيفة ، مقارنة بالشهر الذي سبقه.

• قبل 5 أشهر من أحداث سبتمبر، أبلغ ديفيد سميث (David Smith)، الرئيس التنفيذي لشركة سيكامور نتووركس إنك (Sycamore Networks Inc.)، محلي وول ستريت أن عملاء شركته الرئيسيين آخذون في تقليص ميزانياتهم، مما يجعل نتائج الربع الحالي للمبيعات مخيبة للآمال، وتتراوح بين 50-60 مليون دولار، وهو ما يقل بحوالي 100 مليون دولار عن التقديرات السابقة. وفقدت أسهمه في يوم واحد 20% من قيمتها، وتراجع سعر السهم إلى 7.25 دولاراً مقارنة مع 172.5 دولار، وهو أعلى سعر سجله خلال 52 أسبوعاً. إن ما حدث لشركة سيكامور (Sycamore) كان جزءاً من عملية انهيار قطاع الاتصالات. ففي الأشهر القليلة التي سبقت 11 سبتمبر، آلت إلى الإفلاس سبع شركات أميركية جديدة، وكانت أكثر من 12 شركة أخرى على القائمة ذاتها تقريباً. وقدرت ديون صناعة الاتصالات في أميركا وأوروبا بمبلغ 700 مليار دولاراً، ويمكن أن يكلف انهيار صناعة الاتصالات 150 مليار دولار، وستكون له آثار تراكمية على قطاعات الاقتصاد الأخرى. والأسوأ من ذلك أن ذوبان شركات الاتصالات سيؤثر على الأرجح على بعض المؤسسات المالية الأميركية، حيث تستمر شركات الاتصالات في التخلف عن التزاماتها.

وقد ظن الاقتصادي لوثر كومب (Lothar Komp) أن النظام المالي الحالي، وهو العمود الفقري للبارونات اللصوص عبر القطريين وللإمبراطورية الأميركية الجديدة، يعيش انهياراً مؤسسياً، وليس ركوداً، حيث يقول: "لم يكن هناك أبداً انتعاش اقتصادي أميركي خلال التسعينيات، ... بل كان هناك أكبر فقاعة مضاربات يشهدها التاريخ، قامت على "ازدهار الأوهام" والإقراض الرخيص للمستهلكين ومستثمري الأسواق المالية، فضلاً عن عمليات الاستملاك والاستيلاء على الشركات"، وهذا ما كتبه في 2001/5/25 في أسبوعية "إيكونوميك إنتلجنس ريفيو" التي تصدر في واشنطن دي.سي:

• **تسريح العاملين:** ارتفع عدد العاملين الذين فقدوا وظائفهم في قطاع الإنترنت الأميركي في النصف الثاني من عام 2000 بنسبة 600%، مقارنة مع النصف الأول منه، وآلت إلى الإفلاس أيضاً 210 شركات من شركات الإنترنت.

: في ديسمبر 2000، فقد قطاعا السيارات والتجزئة 133713 وظيفة، وهو أعلى رقم شهري في ثماني سنوات.

: في يناير 2001، فقد 142208 أشخاص آخرين مصادر رزقهم في هذا القطاع.

: في إبريل 2001، ذكرت التقارير أن 166000 شخص فقدوا وظائفهم.

: مجموع الوظائف التي ألغيت خلال الأشهر الأربعة الأولى من عام 2001 زاد على 421 ألفاً، وهو أعلى معدل خلال خمس سنوات.

▪ **الأرباح:** كانت التقارير المالية للشركات الأميركية الكبرى في الربع الأول من عام 2001، الأسوأ طيلة عشر سنوات. فقد شهدت شركة إنتل *INTEL*، أكبر شركة في العالم لإنتاج رقائق الكمبيوتر، وجنرال موتورز *General Motors* أكبر منتج للسيارات في العالم، انهياراً في أرباحهما بنسبة 80-90 % خلال هذه الفترة. وتكبدت شركة لوسينت *Lucent Technologies* خسائر بلغت 3.7 مليار دولار، وشركة دايملر كرايزلر *Daimler Chrysler* خسائر بقيمة 3.3 مليارات دولار. وذكرت شركة جيه دي اس يونيفيز *JDS Uni-Phase* كبرى شركات إنتاج الألياف البصرية ومعدات، أن خسائرها تضاعفت خمس مرات في الربع الأول من عام 2001 مقارنة مع خسائرها خلال الفترة نفسها من العام الذي سبقه. ولجأت شركتان من الشركات إلى الغش وخداع المساهمين، بأن ذكرتا عن تحقيق أرباح قبل احتساب الفوائد والضرائب والاستهلاك وتسديدات الديون.

▪ **المؤشرات الاقتصادية:** تراجعت معظم المؤشرات الاقتصادية في الربع الأول من عام 2001 إلى معدلات لم تعرفها منذ عقد أو أكثر من الزمان. وأعرب 38% من مدراء الشركات الصناعية المشاركة في مسح أجرته الجمعية الوطنية لمدراء المشتريات في إبريل 2001، عن قلقهم وتشاؤمهم، فهذه أعلى نسبة للتشاؤم منذ إنشاء الجمعية وبدء سجلاتها عام 1962. أما الرؤساء التنفيذيون لكبريات شركات صناعة التقنية، فقد كانوا أكثر وضوحاً:

: قال ستيف جوبز (*Steve Jobs*)، رئيس شركة أبل كمبيوتر *Apple Computer*، للمحللين في فبراير 2001: "أعتقد أن الاقتصاد يجتاز مرحلة انصهار نووي."

: قال هانز غيير (*Hans Geyer*)، نائب رئيس شركة إنتل، في 2001/2/23 تعقيباً على مئات المليارات من الدولارات من النفقات الرأسمالية لتمويل صناعة الاتصالات: "إننا نمر في مرحلة تتجه فيها هذه الصناعة نحو الإفلاس قبل ظهور *UMTS* (وهو الجيل المقبل من الهاتف النقال)، بل وحتى قبل إجراء المكالمات الأولى من هذا الهاتف."

: قال بيل آيلز وورث (Bill Aylesworth)، المدير المالي في شركة تكساس انسترومنتس (Texas Instruments)، معقّباً على التراجع الذي شهدته الشركة في الطلبات التي تلقتها في الربع الأول: "إن هذا أشد تراجع تشهده صناعة شبه الموصلات في تاريخها". وكان هذا التعقيب في 2001/4/17.

: جون روث (John Roth): رئيس مجلس نورتل نتوروكس Nortel Networks، تحدث مخاطباً النادي الكندي في تورونتو في 2001/2/18 قائلاً: "إن هذا أشد تراجع مربك ومحير تشهده الولايات المتحدة في تاريخها".

: جون تشامبرز (John Chambers)، الرئيس التنفيذي لشركة سيسكو سيستمز Cisco، أكبر شركة لخدمات الإنترنت، قال في 2001/2/17: "ليس المهم ما تقوله آخر إحصائيات مجلس الاحتياطي الفيدرالي، إذ إن ما نراه الآن هو إطلاقاً ليس هبوطاً هادئاً أو بطيئاً. فإذا سألت أي شخص في قطاع التصنيع الأميركي فسيقول لك إننا نمر في مرحلة ركود".

وفي 2001/4/16، قارن تشامبرز ما يحدث حالياً وبين "فيضان لم نشهده منذ 100 عام" يضرب صناعة التقنية. ولم تقتصر أهمية ذلك على أنه حدث خلال حياتنا، بل لأنه جاء بزيادة 5 أضعاف عما كنا نتوقعه... لم نبين أبداً أنماطاً بإمكانها مواجهة كارثة بهذه الضخامة...".

وخلال الفترة بين 10 مارس 2000 ونهاية الربع الأول من 2001، تراجعت قيمة أسهم ناسداك Nasdaq السوقية من 6.7 تريليون دولار إلى 3.3 تريليون دولار. وهبطت أكبر ست شركات على مؤشر ناسداك من مستوياتها العليا في عام 2000 (2.362 تريليون دولار) إلى 914 مليار دولار على النحو التالي:

إلى	من	
118 مليار \$	590 مليار \$	سيسكو سيستمز Cisco systems
360 مليار \$	640 مليار \$	مايكرو سوفت Microsoft
72 مليار \$	154 مليار \$	ديل كمبيوتر Dell Computer
219 مليار \$	510 مليار \$	إنتل Intel
62 مليار \$	208 مليار \$	سن مايكرو سيستمز Sun Microsystems
83 مليار \$	260 مليار \$	أوراكل Oracle

تراجعت القيمة السوقية لـ 5000 شركة أميركية، التي تشكل مؤشر ويلتشاير *Wiltshire* 5000 من 16.96 تريليون دولار إلى 11.6 تريليون دولار وبخسارة قدرها 5.34 تريليون دولار. ولا عجب في ذلك، فشركة في آيه لينوكس سيستمز (*VA Linux Systems*) على سبيل المثال، كانت شركة كمبيوتر لم تحقق أية أرباح ولم يكن لها سجل ولا خبرة، ولم يتوقع أحد أن تكسب سنناً واحداً في المستقبل المنظور، ولكنها حصلت على زيادة بنسبة 700% في 1999/12/9، وهو اليوم الأول الذي طرحت فيه إصدارها الأولي! وهذا يدل على كيفية ولادة الشركات الخرافية فيما يسمى بالاقتصاد الجديد.

ودخلت الولايات المتحدة ذات أضخم مديونية في العالم عام 2001، بمديونية قياسية مجمعة تمثل الدين الحكومي، ودين قطاع الشركات، والمديونيات الخاصة تصل إلى 26 تريليون دولار. وارتفعت مديونية المستهلكين إلى ثلاثة أمثال ما كانت عليه مطلع التسعينيات، وكان هذا مصحوباً بأسوأ انهيار تشهده المدخرات الأميركية، منذ الكساد الكبير طبقاً للرسم البياني الذي صدر عن وزارة التجارة الأميركية، وظهر في مقالة لوثر كومب (*Lothar Komp*) في 25 مايو 2001 حيث قال: " كانت الشركات الأميركية تضيف كل عام مبلغ 1.5 تريليون دولار من الديون الجديدة، وهو ما يعادل ثمانية أمثال ما كانت عليه الحال مطلع التسعينات." إن الدين الإجمالي في الاقتصاد الأميركي يتزايد بسرعة 4 مرات عن تزايد إجمالي الناتج المحلي.

وبدأت الإفلاسات الكبرى تتكشف عام 2001. ففي 2001/3/7، قدمت مجموعة فينورا المالية (*Finora*) طلباً لحمايتها من الإفلاس من الدائنين، الذين كانت مدينة لهم بمبلغ 11.3 مليار دولار. وهذه تعتبر من أكبر حالات الإفلاس في الولايات المتحدة. وقد آلت هذه الشركة إلى صندوق استثمار بيرك شاير هاثاواي (*Berkshire Hathaway*) من خلال عملية استيلاء تم التوصل إليها. وأوردت صحيفة الفاينانشيال تايمز (*The Financial Times*) أنباء غير سارة عن شركة لوسينت (*Lucent*)، وما لبث سعر سهم الشركة المذكورة في ذلك اليوم أن تراجع إلى أقل مما كان عليه عام 1996 عند إجراء الطرح الأولي العام للسهم، وهو ما يمثل تراجعاً بنسبة 93% عن سعر الذروة الذي سجله عام 1999. كما أوردت موتورولا (*Motorola*) خسائر للمرة الأولى في الربع الأول من عام 2001، وهي أول مرة في خلال 16 سنة. وقدمت أيضاً شركة وينستار (*Winstar*) لخدمات الاتصالات طلباً للإفلاس للحماية من الدائنين في 2001/4/18. وأصبح سعر سهم وينستار متداولاً بما يعادل 2% فقط من قيمته التي انهارت من 65 دولاراً قبل عام إلى 35 سنناً. وأعلنت

شركة بي إس آي نت (PSINet)، التي توفر خدمات الاتصالات، في 2001/4/17، أنها قد تضطر إلى طلب الإفلاس، حيث كشفت النقاب عن خسائر للربع الأول بمقدار 3.2 مليار دولار. وتراجع سعر السهم عندئذٍ من 34 دولاراً قبل عام إلى 20 سنتاً. ثم تقدمت شركة باسيفيك للغاز والكهرباء في كاليفورنيا بطلب الإفلاس في 2001/4/6 جراء مديونية بلغت 9 مليارات دولار.

وجاء في تقرير لشركة ستاندارد آند بورز في 2001/4/23، حول أسواق السندات العالمية لعام 2001، أنه خلال الربع الأول من العام المذكور، أخفقت 48 شركة كبرى في الاستمرار، بإجمالي قيمة أسهم وصلت إلى 37 مليار دولار، ويعادل هذا الرقم، وهو الخاص بالربع الأول من عام 2001، ما سجل طيلة العام 2000، والذي اعتبر في ذلك الوقت رقماً قياسياً. وكانت 41 من الشركات الـ 48، أميركية الجنسية، وشملت القائمة شركة كاليفورنيا للغاز والكهرباء، وشركة ساوثرن كاليفورنيا إديسون، إلى جانب شركات أخرى من قطاعات الاتصالات والغذاء والتجزئة.

لقد أفرزت سياسة تحرير القوانين انهيار شركات الاتصالات، لكنها ولدت أيضاً أزمة طاقة كهربائية غريبة كُتلت الاقتصاد في كثير من الولايات، بما فيها كاليفورنيا، التي تعتبر سادس أكبر اقتصاد في العالم. وحامت شكوك بأن تكون الأزمة مختلفة ونتيجة لتواطؤ بين شركات مثل إنرون، آيه إي إس AES، ريلايانت *Reliant*، أو ديوك باور *Duke Power* التي افتعلت أسعاراً مرتفعة للطاقة رغبة أن تسود في السوق الفورية. واضطرت كاليفورنيا إلى تقنين التيار الكهربائي عن بعض المناطق وإيصالها للمناطق الأخرى لحماية الشبكة اعتباراً من 19 مارس 2001 عندما كان الاستهلاك أقل من 30000 ميغا واط، ومع ذلك، فقبل سبعة أشهر، أي في أغسطس 2000، كان الاستهلاك أعلى بـ 50% ليلاص 45000 ميغا واط، وكان العرض والإمدادات تشير بشكل طبيعي. وتشك السلطات في ولاية كاليفورنيا بأن كثيراً من محطات توليد الطاقة قد تم إيقافها عمداً لإيجاد نقص في الطاقة المعروضة، مما يمثل مبرراً لرفع الأسعار. وعندما أراد مسؤولو ولاية كاليفورنيا دخول بعض محطات توليد الكهرباء للتأكد من الحقيقة، أوقف هؤلاء المسؤولون في بعض المحطات ومنعوا من الدخول إليها. وطالب مسؤولو الولاية لجنة تنظيم الطاقة الفيدرالية في واشنطن بالتدخل ومعاينة القائمين على رفع الأسعار والتلاعب فيها. غير أن واشنطن لم تحبذ التدخل، وكانت النتيجة أن إجمالي التكلفة التي تدفعها كاليفورنيا للطاقة الكهربائية، ارتفع من معدل 6-7 مليارات دولار سنوياً قبل تحرير القوانين، إلى 27 ملياراً عام 2000 بعد تحريرها. كما أن فاتورة 2001 ستكون أعلى أيضاً بصورة كبيرة. أما الأمر الأكثر فظاعة وإثارة للاشمئزاز، فهو أن الشكوك حول

تواطؤ بين الشركات التي توفر الطاقة لرفع الأسعار، تحوّل إلى حقائق، حيث أوضحت المذكرات الداخلية المأخوذة من ملفات إنرون المنهارة دليلاً لا يقبل النقض على تواطؤ قام بالفعل بين إنرون وشركات أخرى وتآمر لرفع الأسعار. أما مسؤولو الولاية الذين رفعوا أصواتهم عالياً منبهين إلى أن أزمة الطاقة ليست إلا مؤامرة، فقد استهزئ بهم كما هي العادة تجاه أية مقولة تتعلق بنظرية المؤامرة. إن واشنطن تشجع تحرير القوانين وغير ذلك من الأعمال المشابهة التي يقوم بها البارونات للصوص. وعلى الرغم من أن بارونات الطاقة باعوا مصلحة بلادهم وأكبر اقتصاد فيها، أي كاليفورنيا، فإن العالم مطالب بالركوع لمثل هؤلاء اللصوص اللاأخلاقيين وعبر القطريين.

وحتى خلال سنوات الازدهار الوهمي خلال التسعينيات، فإن الأشياء في حقيقتها لم تكن وردية. وفي وقت أظهر مؤشر ستاندارد اند بورز 500 ارتفاعاً بنسبة 50%، فإن الحقيقة كانت بصدد الأرباح أقل من ذلك بكثير. وفي 2001/7/27 أي قبل سبعة أسابيع من أحداث 11 سبتمبر، خفض خبراء الإحصاء الحكوميون توقعاتهم، استناداً إلى معلومات حقيقية استقوها من كشوف العائدات الضريبية والشركات الكبرى والصغرى على حد سواء. ومع أن المضاربين الماليين كانوا في قمة نشاطهم وأوج ازدهارهم بين عام 1995 والربع الأول من عام 2001، فإن المعلومات المدققة تشير إلى عدم تحقيق نمو في الشركات غير المالية. وكشفت جداول الضريبة الجديدة لعامي 1995 إلى 1999، والتقديرات التي تمت مراجعتها لعام 2000، أن الشركات الصغيرة كانت تتكبد خسائر فادحة. وبلغ حجم خسائر الشركات الأصغر حجماً لعام 1999 رقماً مذهلاً وصل 300 مليار دولار، وهو ما يزيد بواقع 50% عن مثيله لعام 1997، وهكذا فقد تم تهشيم وسحق الشركات الصغيرة في أميركا أو أي مكان آخر، من قبل الرأسمالية الأنجلو-أميركية، ودائماً يظل صغار المستثمرين وغير ذوي الاطلاع الأكثر تعرضاً للغش والابتزاز في نادي الاقتصاد الجديد وفي وول ستريت.

وبعد فترة "العشرينيات المدوية" من القرن العشرين، جاء الكساد العظيم والذي خرجت منه الحكومة الفيدرالية بعد دخول حرب عالمية ثانية فقط. أما الآن، وبعد "التسعينيات المدوية" من القرن العشرين، فيبدو أن الأمر سيتطلب إعادة القوانين التي تم تفكيكها وعشر سنوات من الحروب ضد الإرهاب للخروج من الفوضى الاقتصادية الحالية التي يسمونها "ركوداً".

وجاءت أحداث سبتمبر

وبين عشية وضحاها، أصبحت كل مشاكل وعلاّت وول ستريت وأيديها القذرة في واشنطن تلقى اللائمة على أحداث 11 سبتمبر. فوفقاً لرأي الكثيرين، كانت أحداث 11 سبتمبر بمثابة نعمة وهبة لول ستريت. وقد كتب روبرت بارو (Robert J. Baro)، أستاذ الاقتصاد في جامعة هارفارد والزميل الأعلى في معهد هوفر، في مجلة بيزنس ويك بعد أسابيع قليلة من هجمات 11 سبتمبر: "إن استنتاجي الرئيسي هو أن الحرب التي تشن حالياً (ضد الإرهاب) ستكون توسعية، لذا فهي ستسهم في إنعاش الاقتصاد الأميركي وانتشاله من حالة التباطؤ التي يعيشها."

لقد بدأ الجميع في واشنطن بتغليف قضاياهم في إطار الوطنية وذلك لتمريرها وجعلها تحظى بالقبول. فقد أصبح أعضاء الكونغرس ومسؤولو الإدارة الأميركية، والذين هم بطبعهم أولياء البارونات على أهبة الاستعداد لضخ المزيد من الأموال التي يطلبها البارونات، وإلا فسوف يتهمون بالخيانة وافتقار الحس الوطني. وقد استخدم النائب العام آشكروفت (Ashcroft) الحرب ضد الإرهاب ذريعة لتمرير قضايا كان المشرعون يعارضونها بشدة، قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر، مثل الاحتجاز الوقائي وإجراءات التنصت على الهواتف.

عن كتاب حروب البترول الصليبية الصادر سنة 2005

الفصل الرابع عشر

ينتهي هذا الكتاب إلى نتيجة مؤداها أن الولايات المتحدة لا تحتمل الاستمرار في العيش بصورة تتجاوز مواردها، دون إدارة العالم، وبأدق التفاصيل، في جميع شؤونه الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وهو كما ستثبت الأيام مهمة مستحيلة. أما وسيلتها في إدارة العالم لتصب خيراته في جيوب شركائه والقلّة من بارونات مالها، فهي العولمة التي تم إعداد عملياتها ومؤسساتها بطريقة تخدم تحقيق هذا الهدف. كما أن أمريكا مرهونة وأسييرة لهيمنتها على النفط الدولي بشكل عام، ونفط المسلمين بشكل خاص، ليس فقط من أجل الوقود والطاقة، بل أيضاً لإجبار جميع الدول على القبول بالدولار كعملة تسعير وبيع وشراء للنفط. وبذلك يصبح النفط أو الذهب الأسود عامل دعم رئيسي للدولار الأمريكي، والضامن لعمليات مطابع الخزنة الأمريكية. وبالطريقة نفسها، التي دفعت بالنخبة السلطوية الأمريكية إلى اختراع الثقافة الاستهلاكية كوسيلة لزيادة النمو الاقتصادي في الولايات المتحدة، فإن هذه الثقافة الاقتصادية الاستهلاكية، يجب أن تصبح عالمية للحفاظ على النمو، والذي يجب أن يخدم بدوره اقتصاد الولايات المتحدة، وباروناته.

ولأن التصرف الاجتماعي والنموذج الاقتصادي الذي تسعى الولايات المتحدة إلى فرضه على العالم لا يمكن أن يتحققا إلا من خلال هدم أو تدمير الثقافات والقيم والسياسات المحلية للدول الأخرى ، واستبدالها بثقافة العولمة الأمريكية وقيمتها ، فقد أعلن بوش ذلك ، وكذلك نصت عليه عقيدته . وليس من قبيل المصادفة ، بأن النموذج الأمريكي صالح لكل زمان ومكان ، وبأنه سيكون النموذج العالمي . وفي سبيل تطبيق هذه العقيدة ، بدأت الولايات المتحدة عملية نشر واسعة لإمبراطورية من القواعد العسكرية ، وشنت الحرب على العديد من الدول وفي مناطق مختلفة عبر العالم ... وبعد استهداف وسقوط الشيوعية ، تمت مهاجمة الأنظمة المغايرة الأخرى ، مثل الديمقراطيات الاشتراكية الأوروبية ، وكذلك اليابان ، وأتى الآن الدور لمهاجمة الإسلام وثقافته ومبادئه المتباينة مع مبادئ الرأسمالية الأمريكية المفترسة.

ومثل هذه الأيديولوجية والأجندة الأمريكية هي في الواقع ثمرة من ثمرات الخيال ، وتنطوي على مخاطر كبيرة . فقد يكون باستطاعة ماكينة الحرب الأمريكية خلق حالة " الصدمة والرعب" لأنظمة مثل نظام صدام حسين حتى قبل إطلاق قذيفة واحدة ، أو في غضون بضعة أيام ، إلا أن الولايات المتحدة ، وكما أظهر غزو العراق ، غير قادرة على قراءة سيكولوجية الشعوب ، وبأن قوتها العسكرية الهائلة لا تستطيع تغيير القيم الوطنية أو التصرف الأيديولوجي لهذه الشعوب.

فنحن نعيش حالياً عصر السرعة والانهيئات السريعة . ففي الماضي ، كان يتطلب نقل الذهب والمال من أوروبا إلى الولايات المتحدة أو العكس أسابيع ، في حين أن العملية نفسها حالياً تتم بسرعة الضوء ، من خلال أجهزة الكمبيوتر الموضوعة في خدمة الأسواق المالية.

إمبراطورية هالكة أُقيمت على رمال متحركة

وكمعظم الإمبراطوريات التي توالى في التاريخ ، فإن الإمبراطورية الأمريكية زرعت بذور فنائها بنفسها . فالغطرسة التي تميز ممارسات النخب التي تتحكم بها ، وكذلك الإدمان المتعاطف على التعامل مع العالم من منظور القوة العالمية المهيمنة ، أعمت أنظار النخبة السلطوية عن العواقب المترتبة على طموحها الجامح . فهؤلاء يعيشون وهماً كبيراً ، يقوم على الاعتقاد بأن القوة العسكرية المتفوقة ، وبخاصة بعد انهيار الاتحاد السوفياتي ، تعوضهم عن الاقتصاد الداخلي المتراجع ، والقاعدة الصناعية الآخذة في الانهيار ، والديون المحلية المتضخمة إلى درجة الانفجار . مثل هذا الوهم إنما يعمي النخبة الأمريكية المتنفذة عن رؤية الكتابة الواضحة على الحائط .

ديون الإمبراطورية

لا تشكل منظمة القاعدة المصدر الأعظم والحقيقي للتهديدات المحيقة بالسلام والاستقرار العالميين ، بل إن التهديد الأعظم يأتي من الدولار الأمريكي ، الذي ما يزال يشكل أساس النظام المالي والاقتصادي العالمي، باعتباره عملة الاحتياط العالمية . ويشكل ضعف الدولار مع أزمة النفط العالمية معاً ، مصدر تهديد قاتل وقادم ، ينذر بإدخال الولايات المتحدة في مرحلة عاصفة من المشاكل المالية والاقتصادية لم تعرفها أمريكا منذ عام 1945 .

تحولت الحرب على العراق إلى مستنقع وكابوس لا يقلان خطورة بالنسبة لواشنطن عن كارثة فيتنام . ومع ذلك ، فإن إدارة واشنطن تشعر نفسها أسيرة مغامرتها في العراق ، نظراً لحاجتها الماسة إلى السيطرة على الاحتياطات النفطية الآخذة في التناقص التدريجي ، وهو هدف ، في نظر النخب المتعطشة للسلطة في مجلس العلاقات الخارجية ، أهم من أرواح الجنود الأمريكيين الذين يتم التضحية بهم في العراق . وبحلول منتصف 2004 ، كان البنتاغون قد أكمل بناء ما لا يقل عن 14 قاعدة عسكرية عبر العراق ، ليس بهدف ضمان "الديمقراطية" ، بل للسيطرة على تدفق النفط في المستقبل ، بما فيه النفط لإسرائيل . كان العراق جزءاً من استراتيجية جريئة خطط لها ودعمها المحافظون الجدد وكبريات الشركات النفطية ، مثل هاليبرتون وإيكسون موبيل ، وبريتش بتروليوم ، ورجال المال والمصارف في الـ وول ستريت . وتقوم على الهيمنة على ما تبقى من مصادر النفط العالمية ، قبل أن تدرك الدول الأخرى حقيقة الأزمة النفطية الناجمة عن تراجع الإنتاج في العديد من مناطق النفط ، مثل الحقول الأمريكية وحقول ألاسكا ، و النفط الشمال ، بوصول هذه المناطق حد الذروة النفطية ، وهبوط إنتاجها ، وبدء العد التنازلي لمرحلة النضوب.

وعلى عكس ما حصل في حقبة فيتنام ، فإن الولايات المتحدة لم تكن لتستطيع تمويل الكلفة الهائلة لاحتلال العراق دون مساعدة خارجية ، وخاصة من الصين واليابان واقتصادات شرق آسيا الغنية ، التي اشترت الديون الأمريكية بالدولارات التي تكسبها من صادراتها للولايات المتحدة ؛ لمجرد شرائها سندات الخزينة الأمريكية . وهكذا ، تدفع الولايات المتحدة لهذه الدول لقاء بضائعها دولارات ورقية لا غطاء لها ، ثم تسترد هذه الدولارات وفق وريقات اسمها سندات خزينة .

فقاعة الديون الأمريكية

فاجمالي الدين ، الذي يعاني منه الاقتصاد الأمريكي حالياً ، يتجاوز وبكثير أزمة الديون في فترة الكساد العظيم خلال الثلاثينات . وطبقاً للإحصائيات الرسمية للاحتياط الفيدرالي ، فإن الحجم الإجمالي لديون

الولايات المتحدة يصل إلى 34 تريليون دولار ، مقارنة بالناتج القومي الإجمالي الأمريكي ، الذي يقدر بـ 11 تريليون دولار. وهذا يعني أن ديون أمريكا تتجاوز ثلاثة أضعاف ناتجها القومي ، وهذا الدين يصل حالياً إلى 125 ألف دولار لكل فرد أمريكي من رجل وامرأة وطفل .

كما تضاعفت الديون الاستهلاكية الشخصية – باستثناء الرهن العقاري للمنازل – منذ 1994 ، لتصل إلى 9.4 تريليون دولار ، مسجلة بذلك رقماً قياسياً ، وهذا يعني 37 ألف دولار لكل فرد أمريكي . الوضع نفسه ينطبق على ديون المؤسسات ، والتي تسجل رقماً قياسياً بدورها ، يصل إلى خمسة تريليونات دولار، بينما وصلت ديون الحكومة الاتحادية إلى 7 تريليونات وهو رقم قياسي أيضاً . هذه الديون آخذة في التعاضم بصورة هائلة في ظل معدلات فائدة منخفضة في السنوات الثلاث الأخيرة .

ومنذ قرار نيكسون بإخراج الدولار من معيار الذهب ووضعه دون غطاء عام 1971 ، والأوراق النقدية الأمريكية تتراكم بكميات مذهلة ، مشكلة بذلك المصدر الحقيقي للتضخم العالمي على مدار السنوات الثلاثين الماضية . وبالمقارنة ، فإن حجم ما تم طبعه من ورقة النقد الأمريكية خلال الفترة من 1950 – 1970 ، سجل ارتفاعاً بنسبة 55% ، وهي نسبة معتدلة ، في حين نجد أن هذه النسبة تضاعفت إلى أكثر من 2000% من عام 1971 إلى العام 2000.

وكانت السنوات الأربع الأخيرة قد سجلت ارتفاعاً فلكياً لديون الدولار ، حيث فتحت إدارة بوش الأبواب على مصراعيها أمام العجز في الإنفاق ، لأسباب في جزء منها لخلق وظائف حكومية جديدة خدمة لأهدافه الانتخابية . وفي العام 2004 ، سجلت الميزانية أكبر عجوزاتها حتى الآن، حيث تجاوز العجز حاجز الـ 500 مليار دولار ، مسجلة بذلك رقماً قياسياً في تاريخها ، وهو رقم مرشح للزيادة في ميزانية 2005 مما يعني المزيد من الاقتراض الحكومي لسد هذا العجز ، ولكن كيف ؟

يأتي معظم الاقتراض من الحكومات الصينية واليابانية ، طبقاً للرئيس السابق بيل كلينتون في خطاب له أمام مؤتمر الحزب الديمقراطي القومي عام 2004، الذي قال " الآن كيف يسددون هذا العجز ؟ عليهم التوجه نحو الاقتراض الذي سيأتي معظمه من الحكومتين الصينية واليابانية ، وبالتأكيد فإن هذه البلدان تنافسنا على الوظائف الجيدة . ولكن كيف لنا فرض قوانيننا التجارية على بنوكنا (مصادر الاقتراض) هذه؟ هذا غير منطقي ... ". وبالرغم من أن هذه العبارات هي أهم ما صدر عن كلينتون منذ سنوات ، إلا أن وسائل الإعلام الأمريكي لم تسلط عليها الأضواء.

وفي الوقت ذاته ، فإن العجز التجاري الأمريكي يسجل أرقاماً قياسية مع تسجيل الواردات الأمريكية من الملابس والأثاث ، والإلكترونيات والسيارات من الصين واليابان وألمانيا وغيرها ، أرقاماً قياسية . وفي هذا يكمن سر الدولار بلا غطاء ، فالولايات المتحدة تسدد فاتورة وارداتها من الصين واليابان وألمانيا وبقيّة العالم بأوراق نقدية لا تستند إلى غطاء فعلي ، منذ إخراج نيكسون الدولار من معيار الذهب عام 1971 .

والآن ما الذي تفعله بلد مثل الصين بفائض تجارتها السنوية البالغ مئة مليار دولار؟ ما يفعله بنك الصين – البنك المركزي – هو إعادة هذه الأموال إلى الخزينة الأمريكية من خلال شراء السندات الأمريكية الرسمية، في دورة غريبة ، حيث تدفع الولايات المتحدة ثمن السلع الصينية بأوراق مالية هي الدولار ، والتي سرعان ما تجد طريقها عائدة إليها بإقدام الصينيين على استبدالها بأوراق أخرى هي سندات الخزينة.

منذ العام 1971 والولايات المتحدة تعاني من عجز حاد في الميزان التجاري السنوي . ويصل هذا العجز حالياً إلى 500 مليار دولار ، أي 5% من الناتج القومي الإجمالي. وهي معدلات يمكن أن تدفع بالمستثمرين الأجانب إلى الهروب من السوق ، وترك البلاد لمصيرها المحتوم ، فيما لو حصل مثل هذا في الأرجنتين أو تايلاند . غير أن الولايات المتحدة هي صاحبة الاحتياط النقدي العالمي ، والقوة العسكرية الأعظم منذ عام 1990، ولا بد وأن الصين واليابان ستفكران طويلاً قبل أن تقدما على عمل يثير غضب هذا العملاق ، خاصة بعد الذي حصل مع العراق .

وفي كل عام ، تنتج الحكومة الأمريكية والاحتياط الفيدرالي المزيد من الدولارات الورقية . فما من أحد يستطيع منعهما من ذلك ، حيث يسيطران على ما يعرف بالمطابع . وفي العام الماضي ، تحدث أحد الحكام الاتحاديين بن بيرنانكي Ben S. Bernanke عن هذا الأمر بالقول "تملك الحكومة الأمريكية تكنولوجيا تدعى المطابع ، التي تسمح لها بإنتاج ما ترغب به من أوراق الدولارات وبدون كلفة تذكر ... ففي ظل نظام الأوراق النقدية ، تستطيع الحكومة ، إذا ما أرادت توليد المزيد من الإنفاق والمزيد من التضخم الإيجابي ". ونتيجة لهذه السياسة ، أصبح يوجد خارج الولايات المتحدة من الأوراق النقدية الأمريكية (الدولار) ما يزيد على 2500 مليار دولار ، هي عبارة عن دين لحاملها دون فوائد للخزانة الأمريكية . وفي حالة عودة جزء هام من هذه الأوراق إلى الولايات المتحدة ، عندئذٍ ستكون الطامة الاقتصادية الأمريكية الكبرى!

ولأن الدولار غير محكوم بمعيار الذهب ، فإن القيد الوحيد الذي يمكن لجم الدولار به هو القرار السياسي ، فالدولار مدعوم حالياً من نوع آخر من احتياط الذهب ، والمتمثل في عظمة أمريكا العسكرية والنفط . ومثل

هذا الدعم لا يشكل عنصراً مطمئناً ، خاصة وأن قراراً مصيرياً بأن يكون الاقتصاد الأمريكي أو لا يكون هو في أيدي غير أمريكية!

ولعل السبب الوحيد لعدم تعرض الدولار لأزمة حادة في الوقت الحاضر ، وإن كان موشكاً على الحدوث قبل عام ، يكمن في إقدام البنوك المركزية الأجنبية على شراء السندات الأمريكية وغيرها من الأصول بصورة غير مسبقة ، لأسباب منها حماية صادراتها التجارية بالدولار . وهذا يجعل الولايات المتحدة تعتمد على البنوك المركزية الأجنبية ، وبخاصة الصينية واليابانية منها . ففي العام الماضي ، اشترت اليابان كمية غير مسبقة من سندات الحكومة الأمريكية ، وبالتالي جزءاً كبيراً من ديونها .

وكانت فوائد الديون الحكومية للبنوك المركزية اليابانية والصينية وغيرها ، ممن تملك الجزء الأعظم من سندات الخزانة الأمريكية ، قد بلغت 340 مليار دولار ، وهو مبلغ يتجاوز كامل الناتج القومي الإجمالي لمعظم دول العالم ، بما فيها السويد والسعودية .

وطبقاً لمكتب المحاسبة العامة في الكونغرس ، فإن الولايات المتحدة أصبحت أسيرة مصيدة الديون ، وبشكل يصعب عليها الإفلات منها . ومما جاء في تقرير للمكتب بهذا الشأن ، القول " مع أن تحسن الاقتصاد قد يكون عاملاً مساعداً ، إلا أننا لن نستطيع الخروج من المشكلة ، فإغلاق فجوتنا المالية يتطلب تحقيق معدلات نمو تتجاوز 10% سنوياً ، وعلى مدار السنوات الـ 75 المقبلة ، وهو مطلب مستحيل بكل المقاييس . فمعدلات النمو لم تتجاوز 3.2% سنوياً حتى في سنوات الطفرة الاقتصادية في التسعينات " . ومضى التقرير يقول إنه بينما تصل الديون الحكومية إلى سبعة تريليونات دولار ، أي بمعدل 24 ألف دولار لكل فرد أمريكي ، فإن ميزانية الرعاية الاجتماعية والصحية تشكل العبء الرئيسي على الميزانية ، حيث تستنفد 40 تريليون دولار ، بواقع 140 ألف دولار للفرد الواحد . وبالطبع ، فإن الأرقام السابقة تتعلق بالدين الفيدرالي ، وإذا ما أضفنا الدين الخاص ورهن المنازل ، وديون البطاقات الائتمانية ، لخرجنا بنتيجة مؤداها أن الأمريكيين يختنقون بالديون .

أدت هيمنة الدولار الأمريكي منذ السبعينات إلى خلق المزيد من الديون وخدمة هذه الديون ، من خلال أسواق نيويورك المالية وسندات الخزنة والأوراق المالية ، وكذلك الدولار الذي يحتاجه الآخرون للتجارة وشراء النفط واستيراد القمح . هناك أربعة أو خمسة من بنوك نيويورك تتحكم بتجارة الأسهم ، أكبرها

سيتي غروب Citigroup ، ومورغان تيشيز، وتملك هذه البنوك تأثيراً هائلاً على النظام المالي العالمي، وفي حالة انهيارها كما حصل مع LTCM ، سينهار النظام المالي العالمي برمته.

غرينسبان في مصيدة الديون

تكمّن مشكلة الديون بالنسبة لرئيس الاحتياط الفيدرالي ، آلان غرينسبان ولواشنطن ، في أن جهنم الائتمان يقوم على الدين ، الذي عادة ما يولد المزيد من الديون (ائتمانات للبنوك) ، وذلك تجنباً لحصول انفجار مالي داخلي أو حتى انهيار فعلي للنظام المالي. وفي كل مرة يحاول الاحتياط الفيدرالي التخفيف من زيادة حجم فقاعة الديون ، تظهر مشكلة احتمال انهيار الأسواق المالية ، الأمر الذي يدفع الاحتياط الفيدرالي إلى فتح صنبور المال بصورة أوسع .

مثل هذا الأمر تكرر عام 2001 بانهيار شركات التكنولوجيا المسماة شركات الإنترنت dot.com crash. وللحيلولة دون تفاقم الأمور وحدث حالة أسوأ من الركود الاقتصادي ، بادر الاحتياط الفيدرالي إلى تخفيض معدلات الفائدة ، وقام بطباعة كميات غير مسبقة من الدولارات كان لها الفضل في خلق حالة الازدهار في سوق الإسكان وتخفيف الأعباء عن الاقتصاد ، وخلق الفقاعة الاقتصادية العالمية الحالية ، والقائمة في الأساس على المضاربة ، فالنمو الذي سجله الاقتصاد الأمريكي منذ 2001، يعتمد أساساً على التوسع اللامسبوق في العرض النقدي للاحتياط الفيدرالي ، ومعدلات الفائدة الأمريكية الأقل في تاريخ البلاد، فكل شيء يقوم على الأموال السهلة ومعدلات الفائدة المنخفضة.

تعمل معدلات الفائدة المنخفضة في الولايات المتحدة على تحفيز معدلات الاستهلاك بصورة قياسية ، وبخاصة في شراء المنازل، وفي حالة عدم إقدام الاحتياط الفيدرالي على رفع معدلات الفائدة للسيطرة على التضخم ، فإن حملة السندات سيلجأون للتخلص من السندات الأمريكية ، متسببين بتراجع الدولار وارتفاع معدلات الفائدة، الأمر الذي من شأنه أن يطلق العنان لعملية بيع مجنونة . ولهذا السبب ، لجأ الاحتياط الفيدرالي إلى رفع حذر لمعدلات الفائدة في صيف 2004 ، ويجد آلان غرينسبان ، الذي يفترض أن يكون أقوى حاكم بنك مركزي في العالم ، نفسه مجبراً على تغذية أسطورة الانتعاش الأمريكي أو مواجهة مخاطر موجة مخيفة من بيع الدولار . غير أن معدلات الفائدة العالية تهدد الاقتصاد الغارق في الدين ، وبخاصة الديون العائلية الخاصة وديون رهن المنازل . ففي الأشهر الأخيرة ، كانت 70% من إجمالي ديون رهن المنازل مسجلة بمعدلات دين عائمة . وإذا كانت معدلات الفائدة منخفضة ، وكذلك معدلات الكلفة حالياً ،

فإن ارتفاع هذه المعدلات سيجعل أصحاب المنازل في وضع لا يسمح لهم بتسديد الأقساط الشهرية ، الأمر الذي سيتسبب بأمواج من الإفلاسات كما حصل في الثلاثينات ، ولكن على نطاق أسوأ.

وكانت معدلات الفائدة الأقل انخفاضاً في السنوات الثلاث الماضية ، قد خلقت أكبر حمى لشراء المنازل في تاريخ الولايات المتحدة . وطبقاً للجمعية الوطنية للسماسرة ، فإن " زخم مبيعات المنازل هذه السنة غير مسبوقة ، فعمليات بيع المنازل الجديدة سجلت المزيد من الأرقام القياسية كل شهر خلال عام 2004".

وفي محاولة لمعالجة الركود ومنع انهيار الأسعار على الطريقة اليابانية ، فقد أوجد الاحتياط الفيدرالي أكبر فقاعة مضاربة في التاريخ وهي فقاعة العقارات الأمريكية . وبحلول عام 2004 ، كانت الفقاعة المذكورة على وشك الانفجار ومعها الديون العائلية الخاصة ، التي يقدر حجمها بتريليونات الدولارات . ففي الربع الأخير من عام 2004 ، سجلت مبيعات المنازل أكبر معدلات مسجلة حتى الآن ، حيث ارتفعت المعدلات في 34 ولاية بنسب تجاوزت 11% عما كانت عليه قبل عام ، في حين أن أيّاً من الولايات المتبقية لم تسجل أي حالة تراجع . أما أقوى المعدلات فكانت في نيفادا ، وبنسبة ارتفاع وصلت إلى 32.5% ، تلتها أيداهو بنسبة ارتفاع 31% ، وحلت أريزونا في المركز الثالث بنسبة 25.1%.

وفي الوقت ذاته ، زادت أسعار المنازل بصورة كبيرة ، ليصل معدل الزيادة السنوي على مستوى الولايات المتحدة إلى 9.1% ، بينما سجلت هذه الزيادة في بعض الولايات نسباً فلكية ، مثل 52% في لاس فيجاس ، و 39% في جنوب كاليفورنيا ، و 25% في ميامي . هذه الفقاعة العقارية بنيت في الواقع على معدلات فائدة اتحادية منخفضة ، و 500 مليار دولار استثمارات أجنبية في ديون الولايات المتحدة . وفي حالة حصول ارتفاع ملحوظ في معدلات الفائدة الأمريكية ، فإن ملايين العائلات الأمريكية الغارقة في الديون ، ستجد نفسها فجأة مجبرة على التخلي عن منازلها بعد أن أصبحت غير قادرة على تحمل كلفة الفائدة العالية . مثل هذا الوضع سيضرب البنوك ، التي ستجد نفسها أمام رهونات عقارية بمليارات الدولارات ، وقد أصبحت غير ذات قيمة ، وهو ما سبق وحصل في الثلاثينات .

إلى متى ستستمر الصين واليابان في دعم نظام الدولار هذا ؟ من الصعب القول غير أن الصين واليابان وكوريا الجنوبية وغيرها من الدول ، بدأت في إعادة تقييم شهيتها للسندات الأمريكية ، بل إن بعض وزراء المالية الآسيويين تحدثوا علناً عن تنويع استثماراتهم خارج حقيبة الدولار ، وتطعيم احتياطات دولهم ببدايل أخرى غير الدولار ، مثل الذهب واليورو والنفط والسلع .

أما كم من الديون الشخصية يستطيع الأمريكيون تحمله قبل أن يصلوا مرحلة التوقف عن السداد ؟
فالسقف واضح ، وسيكون لهذا الوضع انعكاساته على العالم كله .

نحن هنا نبين أن الوضع الاقتصادي الحالي غير قابل للديمومة، وأن فقاعة العقارات ستكون الشعرة التي قصمت ظهر البعير .

التسعينات كانت كالعشرينات : الأسباب نفسها تعطي النتائج نفسها

في بداية التسعينات أصبح الاقتصاد المالي المضارب 40 ضعفاً من حجم الاقتصاد الحقيقي المنتج بعد أن كانت النسبة بين النظام المالي والإنتاجي واحداً إلى واحد . كما تم خداع البسطاء من الأمريكيين بدخول سوق الأسهم كما في العشرينات ، والاستهلاكية الغرائزية في التملك بلا حدود ، والاندماجات بين الشركات، وتركز الثروة في أيدي قليلة ، وابتداع أدوات مالية عجيبة الاسم والمعنى، مثل Junk Bonds في الثمانينات وفككة مزيد من القوانين. كانت الكتابة على الحائط لمن يريد أن يقرأها . كتب الاقتصادي الألماني Lothar Komp بأن ازدهار الاقتصاد الأمريكي في فترة التسعينات كان ازدهار الكذب والأوهام.

دخل الاقتصاد الأمريكي القرن الحادي والعشرين منهكاً، وواكب ذلك عصر جورج دبليو بوش والذي كانت سنوات حكمه الثماني هروباً إلى الأمام وتغطية الفقاعة بفقاعة أكبر منها . وإن كانت أحداث سبتمبر هي الحالة التي أريد لكهنة النظام ومنظريه وأبواقه أن يحملوها مشاكل الاقتصاد الأمريكي ، إلا أننا في كتابنا إمبراطورية الشر الجديدة بينا بالإحصاءات والأرقام المأخوذة من المصادر الأمريكية نفسها ، بأن الأزمة كانت قائمة وخانقة قبل أحداث 11 سبتمبر ، وأنه إذا كانت الحروب هي مفتاح الحل للخروج من الأزمات الاقتصادية في الولايات المتحدة ، فإذن كانت الولايات المتحدة بأشد الحاجة إلى حرب، فجاءتها أحداث 11 سبتمبر وادعت فيها أن رجلاً يعيش في كهوف تورا بورا قد استطاع بمكره ودهائه خداع خمسة عشر جهازاً من أجهزة المخابرات الأمريكية لا تراه، ولا ترى عشرين من رجاله يجوبون أرجاء الولايات المتحدة لشهور عديدة ، ولا تلمحهم أجهزتنا التي تملك عيوناً في الأرض وعيوناً في السماء!!.

هكذا كان حال الاقتصاد الأمريكي كما أسلفنا أعلاه، فجاءت حرب الإرهاب أو ما يسميها البعض الحرب على الإرهاب.

"إن أي أميركي يعرف ألف باء السياسة يعلم أن الولايات المتحدة لا تحارب من أجل الديمقراطية (ضد العراق) لأنها غير موجودة في العالم العربي. وإنها لا تقاتل من أجل العائلة المالكة الكويتية..."

لقد تحركت الولايات المتحدة نحو الحرب لتوقف العراق من السيطرة على مورد هو العصب الأساسي للصناعة والذي يعني الفرق ما بين الحياة أو الموت الاقتصادي".

آي. إم. روزنثال A. M. Rusenthal

هيرالد تريبيون – عدد 1990/8/27

نشرت مجلة فورتشن في عددها الصادر في 1979/5/7 السيناريو المتوقع للعبة الحرب في الخليج العربي، حيث وصفت الكيفية التي سيكون عليها رد الفعل الأميركي في حال قيام العراق بغزو الكويت بسبب النزاعات الحدودية وغيرها. وفي الصفحة 158، وتحت عنوان "إذا قام العراق بغزو الكويت والسعودية..."، قالت المجلة:

"تتمكن القوات المدرعة العراقية مستخدمة في معظمها معدات سوفيتية، من اجتياح أي من الدولتين بكل سرعة. وفي حال طلبها، فإن المساعدة الأميركية ستكون في البداية عبارة عن ضربات جوية تكتيكية أميركية ضد القوات المدرعة العراقية وقواتها الجوية – وربما بعض التهديدات بتدمير المنشآت النفطية العراقية. ولطرد القوات البرية العراقية، فستكون هناك حاجة إلى قوات المارينز من الأسطولين السادس والسابع، ولقوات المشاة من الفرقتين ال 82 وال 101". وصوّرت هذه الخطة "جيشاً في السماء" لتحريك القوات واستخدام الجسر الجوي الاستراتيجي لقوات سلاح الجو الأميركي – المكون من 70 من طائرات C-5A العملاقة و 234 طائرة C-141 الأصغر حجماً، إلى جانب 700 من طائرات KC-135 المستخدمة في تزويد الطائرات بالوقود أثناء تحليقها في الجو".

رأت تلك الدراسة نفسها بأن عرب الشمال (خصوصاً الفلسطينيين) في الخليج ، واليمنيون في الجزيرة العربية يشكلون عناصر عدم استقرار ، ويفضل العيش دون وجودهم في أول فرصة سانحة.

الفصل الخامس*1

احتلال العراق

والسيطرة الأميركية على النفط العالمي

يبدو أن الإدارة الأمريكية برئاسة جورج دبليو بوش تعني دائماً ما تقول؛ فالرئيس بوش يقول إنه يسعى إلى نشر الحرية في جميع أنحاء المعمورة، فهو حتماً لا يعني نشر الحرية للشعوب والأفراد، وإنما الحرية للشركات عابرة القارات في الوصول إلى أي سوق أو مصدر طبيعي بتبغيه دونما عوائق. فالذي جعل من معازل سجون الاتحاد السوفيتي السابقة سيئة الذكر، ومن القواعد العسكرية الأمريكية كما في غواتانامو، مراكز اعتقال لوكالة المخابرات المركزية CIA دونما أي اتهام أو محاكمة ، لا يمكن أن يكون في باله نشر الحريات الشخصية أو الفكرية. وهو عندما يقول بأن الأمور في العراق تتقدم بشكل جيد، على الرغم من مقتل أكثر من 4000 جندي أمريكي وجرح حوالي 40000 آخرين حتى تاريخ كتابه هذه السطور ، وتدمير البنية التحتية والاقتصاد والأمن السياسي في العراق، فهو على ما يبدو صادق أيضاً. فالتقدم المهم بالنسبة له هو زيادة أرباح التجمع الصناعي العسكري الأمريكي، الذي رشحه للرئاسة، والذي يقدم البرامج للحكومات، وينتدب أعضاء من تجمعه للقيام بتنفيذها داخل الإدارات الأمريكية وخارجها.

واشنطن في خدمة التجمع العسكري الصناعي

زادت إيرادات شركة هالiburton (Halliburton) بعد سنة من الغزو الأمريكي للعراق (أي ما بين الربع الأول لسنة 2003 ، والربع الأول لسنة 2004) بـ 80% حسب ما ورد في جريدة الفاينانشال تايمز. أما شركة بكتل (Bechtel) والتي عهد إليها الكثير من مشاريع إعادة إعمار العراق؛ فزادت إيراداتها في الفترة نفسها بـ 158%. أما شركة شيفرون تكسكو

* تمت كتابة هذا الفصل كمقدمة لكتاب "لكن نفهم العراق" للكاتب الأمريكي المعروف ويليام بولك William Polk وهو أستاذ التاريخ السابق بجامعة هارفارد ، ومساعد وزير الخارجية الأمريكية للتخطيط السياسي في عهد الرئيس كيندي ، وهو حفيد رئيس الجمهورية الأمريكية جيمس بولك James Polk . ويعتقد بولك أن احتلال العراق كان خطأ كبيراً وأن الانسحاب هو الخيار الأمثل للخروج من هذا المأزق.

للبنترول (Chevron Texaco) والتي عهد إليها بيع إنتاج العراق من البنترول، فزادت أرباحها بـ 90% خلال النصف الأول لسنة 2004 مقارنة مع الفترة نفسها لسنة 2003. أما أكبر شركات السلاح في الولايات المتحدة (Lockheed Martin) فلقد تضاعفت أسعار أسهمها ثلاث مرات ما بين سنة 2000 وسنة 2004. ولكن ما شأن هذه الشركات واحتلال العراق؟

شكل روبرت جاكسون Robert Jackson ، وهو ما زال على رأس عمله في شركة تصنيع الأسلحة لوكهيدمارتن في سنة 2002، ما يُسمى بـ "لجنة تحرير العراق" Committee For The Liberation Of Iraq، والتي كانت تدعو إلى تغيير النظام في العراق. وكان جاكسون هو الذي كتب برنامج عمل الحزب الجمهوري في سنة 2000. أما رئيس هذه اللجنة لتحرير العراق فكان السيد جورج شولتز (George Shultz) الرئيس التنفيذي لشركة بكتل ووزير الخارجية الأسبق للولايات المتحدة. أما شركة هالبرتون فلقد قدمت رئيس مجلس إدارتها السيد ديك تشيني (Dick Cheney) ليكون نائباً لرئيس الولايات المتحدة، وهو الداعية الذي كان لا يمل ولا يكل لاحتلال العراق. كانت عقود هالبرتون وبكتل في العراق قد تم الاتفاق عليها مع الإدارة الأمريكية بدون مناقصات وقبل الغزو الأمريكي للعراق بشهور. أما شركة شيفرون، فالأنسة الفاضلة كونداليزا رايس أنت من مجلس إدارتها، فعهد إليها بيع نفط العراق !. ولقد دشنت شركة شيفرون ناقلة للنفط عملاقة حملت اسم كونداليزا رايس. بعد خروجها من الخدمة في مجلس الأمن القومي الأمريكي في إدارة بوش الأب، وفي فترة التسعينات من القرن العشرين، عهدت شركة شيفرون إلى الأنسة كونداليزا رايس بالمفاوضات مع دول نفط أواسط آسيا عموماً، وكازاغستان خصوصاً، بوصفها خبيرة بأمور دول منظومة الاتحاد السوفيتي السابق. ناهيك عن أن الرئيس جورج دبليو بوش كان حاكم إحدى أكبر الولايات الأمريكية المنتجة للنفط، وهو، أباً عن جد ابن النفط، يمتلك إحدى شركاته. وهكذا جاء القابضون على السلطة من وراء ستار في الولايات المتحدة بفريق متكامل رائحته النفط لاقتراس العراق ونفطه، ولإعادة رسم خريطة النفط العالمية.

المتأمر ك زلماي خليل زاد، الأفغاني المولد والمندوب السامي الأمريكي في العراق ساعة كتابة هذه المقدمة، وكذلك السيد حميد قرضاي عملاً مستشارين مدفوعي الأجر لشركة يونيكال UNOCAL Oil Corp. ، والتي اشترتها شركة شيفرون لاحقاً، وذلك من أجل تمرير صفقة

بناء خط لنقل الغاز الطبيعي طوله 890 ميلاً عبر أفغانستان. كذلك فلقد عمل زلماي خليل زاد مستشاراً لإسرائيل مع زمرة أخرى من المحافظين الجدد.

كانت الإدارات الأمريكية إبان الحرب الباردة وحتى العقد الأخير من القرن العشرين، تكتفي بتنفيذ أجندها عبر حكام محليين ومن وراء ستار، مستخدمة منظوماتها السرية، والعصا والجزرة حيناً وليّ الأذرع أحياناً أخرى، وتبديل هؤلاء الوكلاء الحكام كلما حادوا عن طريق واشنطن وأجندتها لهم. لكن قوى النخبة الأمريكية، المتمثلة في التجمع العسكري الصناعي وحكام سوق المال "ول ستريت"، الذين يخططون ويضعون الأجندهات ويمولون وينصبون الإدارات في الولايات المتحدة، هذه القوى رأت أن قرناً جديداً قد جاء، أسموه بالقرن الأمريكي الجديد، وأصبحت استعمالات القوة العسكرية، والحروب الاستباقية، واحتلال الدول ومصادرها الطبيعية مباشرة دون وسطاء الوكلاء أو العملاء، سياسة رسمية تم إعلانها جهاراً ونهاراً في "مبدأ بوش" Bush Doctrine أو ما أسمى أيضاً "استراتيجية الأمن القومي للولايات المتحدة" National Security Strategy of The United States of America، والذي جعل مبادئ القوة والحروب الاستباقية ومع "ليس معنا فهو ضدنا"، سياسة رسمية للولايات المتحدة الأمريكية، كما أعلن في سبتمبر 2002

الاستيلاء على النفط العربي

من المثير فعلاً أن تكون أولى حروب النفط في القرن العشرين قد دارت على أرض العراق، فمن أجل حماية شركة النفط الانجليزية الفارسية ومصفاة عبادان، أرسلت الإمبراطورية البريطانية، في بداية الحرب العالمية الأولى، بالجيش الهندي إلى المنطقة للاستيلاء على البصرة والعراق في الحملة التي عرفت بـ (حملة بلاد ما بين النهرين)، التي دامت أربع سنوات. وطبقاً لما أورده المؤلف انطوني كيبف براون "Antony Cave Brown" في كتابه: " النفط ... الله ... والذهب"، فإن قوات الاستعمار البريطاني فقدت 252 ألف جندي بين قتل وأسير ومصاب في واحدة من أسوأ الصراعات، الأمر الذي يعكس مدى الأهمية التي كانت توليها بريطانيا للخليج وثروته النفطية.

كما أن المثير فعلاً، أن تكون آخر الحملات النفطية التي تشنها الإمبراطورية الأمريكية الجديدة في أوائل القرن الحادي والعشرين موجهة ضد العراق وعلى أرضه.

وكانت السلطات الأمريكية قد أعدت خططا مفصلة للاستيلاء على النفط العربي في أوائل السبعينات ، سواء من خلال الشركات النفطية أو بالتدخل العسكري المباشر ، بل إن الحديث عن هذا الامر يعود إلى قبل ذلك بكثير ، ففي الحرب العالمية الثانية ، كتبت قيادة الأسطول الأمريكي مذكرة مرفوعة للرئيس روزفلت ، تتضمن اقتراحا بالاستيلاء على حقول نفط أرامكو في السعودية ، باعتبار أن الحصول على احتياطات نفطية خارج الأراضي الأمريكية أصبح من المصالح الحيوية للولايات المتحدة . وقبل ذلك في الحرب العالمية الأولى ، حصلت البحرية البريطانية على الجزء الأكبر من ملكية الشركة الانجليزية الفارسية للنفط ، والتي أعيد تسميتها لتصبح بريتش بتروليوم (BP) ، وقامت بتعيين ضباط في البحرية ضمن مجلس إدارة الشركة . وفي 30 يونيو 1943 ، صادق الرئيس الأمريكي على إقامة مؤسسة الاحتياطات البترولية ، التي ستملك كامل امتيازات أرامكو " في السعودية ، وتم تعيين وزير الداخلية هارولد آيكس (Harold Ickes) على رأس الشركة ، ووزراء الحرب والأسطول والخارجية أعضاء في مجلس إدارة الشركة ، حيث تم عقد أول اجتماع بتاريخ 9 أغسطس 1943 بحضور نائب وزير الحرب جون مكليوي John Mcloy . وبتاريخ 8 أبريل 2003 أي قبل بضعة أيام من الغزو الأمريكي واحتلال العراق ، نشرت الواشنطن بوست مقالا مثيرا للكاتب جون مكسالين John Mccaslin تحت عنوان " خطة كيسنجر " جاء فيه القول " لو سألت النائب جون كونيبارز John Conyers عن قراءته في هذه الأوقات المقلقة ، فسيخرج لك نسخة من مجلة "مذر جونز" Mother Jones . الواقع أن ما أثار اهتمام النائب الديمقراطي عن ولاية ميشيغان في المجلة ، مقالة حديثة عن التحركات الأمريكية الخاصة بإقامة وجود أمريكي دائم في الشرق الأوسط ، لدرجة أن النائب حرص على اصطحاب المجلة معه إلى قاعة المجلس . فالنائب كونيبارز يعتقد بأن النفط هذا ، الذي يحرك القوة العسكرية ويدعم الميزانيات القومية ، ويثير السياسات الدولية ، لم يعد مجرد سلعة تباع وتشترى ضمن حدود موازين العرض والطلب في السوق التقليدية للطاقة، بل تحول إلى عامل حسم في قضايا الأمن القومي والقوة العالمية" .

ومن أبرز ما جاء في مقالة للكاتب روبرت دريفوس "Robert Dreyfuss" في المجلة القول: "إن المفتاح الرئيسي للأمن القومي في التصور السياسي وراء السياسة الأمريكية الحالية تجاه العراق ، يكمن في الهيمنة العالمية والسيطرة على جميع المنافسين المحتملين . وفي سبيل

تحقيق ذلك ، فإنه لا يكفي أن تكون الولايات المتحدة قادرة على نشر قوتها العسكرية في كل مكان وفي أي زمان فحسب ، بل إن عليها السيطرة على المصادر الرئيسية ، ومنها النفط و النفط الخليج بوجه خاص " .

وينقل المقال عن السفير الأمريكي في السعودية في عهد الرئيس بوش الأب ، شاز فريمان "Chas Freeman" القول " بأن الإدارة الجديدة تعتقد بأن السيطرة على المصادر هو وحده الذي يضمن القدرة على الوصول إليها " .

وفي ظل تراجع الإنتاج النفطي في ألاسكا والمحيطات ، فإن الإدارة الأمريكية " ترى في نفط العراق مصدراً متاحاً ورخيصاً ، حيث لا يكلف إنتاج برميل واحد أكثر من 5،1 دولاراً ، الأمر الذي يجعل النفط العراقي الأرخص إنتاجاً على المستوى العالمي " ، إنها خطة كيسنجر القديمة كما يرى السفير الأمريكي السابق لدى السعودية جايمس أكينز⁽²⁾ ، الذي خدم في عهد كيسنجر . ويضيف أكينز " اعتقدت أن الخطة ماتت ، إلا أنها أعيدت إلى الحياة كما هو واضح " ، ويقول أكينز إنه في أعقاب الصدمات النفطية في السبعينات ، تسربت للصحف الأمريكية أنباء عن وجود خطط أمريكية للاستيلاء على حقول النفط العربية ، " بعدها أقدمت على خطأ جسيم ، فقد قلت في مقابلة تلفزيونية بأن أي أحد يجروء على اقتراح مثل هذا الأمر سيكون إما شخصاً مجنوناً أو مجرمًا أو عميلاً للاتحاد السوفياتي " ، بعدها تبين للسيد أكينز أن الشخص المجنون أو المجرم هذا لم يكن سوى رئيسه الوزير كيسنجر ، الذي قيل بأنه عرض مقترحه لاحتلال منابع النفط العربية خلال اجتماع رئيسي ضم كبار أركان الإدارة الأمريكية . وبعد تصريحات أكينز المثيرة بوقت قصير ، قام كيسنجر بطرد السفير أكينز من الخدمة .

مسرحية حرب أكتوبر سنة 1973

لعب هنري كيسنجر دوراً رئيسياً في الترتيب لحرب أكتوبر 1973 ، لأهداف اقتصادية وسياسية أمريكية كان أحدها رفع الأسعار إلى 400 % ، فقد تم الإعداد للحرب في سلسلة من الاجتماعات التي ضمت هنري كيسنجر وأنور السادات الذي أرسل مبعوثه الخاص حافظ إسماعيل للالتقاء سرا بالوزير الأمريكي مرات عدة . كانت خطة كيسنجر تقضي بترتيب إشعال حرب محدودة بين إسرائيل وكل من مصر وسوريا ؛ لتمهيد الطريق أمام صلح منفرد بين إسرائيل ومصر ، والتسبب برفع أسعار النفط ، وهما هدفان يصبان في صالح السياسة الأمريكية في المقام الأول .

فعندما أقدم السادات على طرد المستشارين الروس من مصر ، طلب وزير الدفاع ميلفن ليارد "Melvin Liard" من الرئيس نيكسون المباشرة بمفاوضات سرية مع السادات ، وهو لا يعلم بأن مثل هذه القنوات مفتوحة مع مصر منذ بعض الوقت . ولإعداد للحرب والجولات المكوكية التي أعقبها ، تم عقد اجتماعات مكثفة بين كيسنجر والمبعوثين المصريين . وفي زيارته للولايات المتحدة في فبراير 1973 ، رتب كيسنجر لمبعوث السادات حافظ إسماعيل جدول زيارة تقليدي في الظاهر ، يشتمل على لقاء مع الرئيس نيكسون أولاً ، ومن ثم عقد مشاورات روتينية مع كبار مسؤولي وزارة الخارجية . أما جدول الزيارة الفعلي ، الذي لم يطلع عليه أحد في الخارجية ، فكان يتركز على عقد اجتماعات سرية مع كيسنجر لمدة يومين في منزل خاص أعد لهذا الغرض في إحدى ضواحي نيويورك ، وفي ذلك يقول كيسنجر مستذكراً " لم أشارك أياً من المسؤولين في وزارة الخارجية في اجتماعات مبعوث السادات . وفي الوقت ذاته ، فإن وزارة الخارجية لم تكن على علم بأي من الاجتماعات السرية التي عقدتها مع إسماعيل على مدار يومين ، لاستعراض شامل للعلاقات المصرية الأمريكية " ، وقبل وصول إسماعيل إلى واشنطن، كتب نيكسون إلى كيسنجر يقول " لقد حان الوقت للتوقف عن رعايه المواقف الإسرائيلية المتصلبة ، فقد أدت مواقفنا السابقة إلى ترسيخ انطباع لديهم بأننا سنقف إلى جانبهم حتى في ممارساتهم اللامنطقية " .

جاءت خطة كيسنجر على عكس موقف الرئيس نيكسون وتوصياته، ومؤيدة لخط إسرائيل في قرارها بتاريخ 19 يونيو 1967 ، الذي ينص على إمكانية الدخول في مفاوضات مع المصريين والسوريين ولكن ليس حول الضفة الغربية وغزة . كان كيسنجر يخطط لإهمال الأردن واستبعاده من مفاوضات الخطوة خطوة ، بل وطلب من السادات والزعماء العرب الآخرين من "أصدقاء" الولايات المتحدة بضرورة إبعاد الأردن عن موضوع الضفة الغربية ، وهو ما تحقق في القمة العربية المنعقدة في الرباط بعد ذلك.

بتاريخ 6 مارس 1973 تم إطلاع السعوديين على ما يجري في قناة مباحثات إسماعيل كيسنجر السرية . كانت السعودية هي أكبر منتج للنفط ، وسيكون لها دور رئيسي في عملية حظر النفط العربي عن الغرب وللزيادة المتوقعة في أسعاره ، وفي الوقت نفسه ، حصل تطور آخر في الانخفاض الكبير الذي طرأ على سعر الدولار بنسبة 40 % مقابل المارك الألماني

خلال شهري فبراير ومارس 1973 ، وأصبح النظام المالي العالمي يعيش حالة من التقلب المتزايد .

في مارس 1973 ، زارت غولداماير Golda Meir ، رئيسة وزراء إسرائيل الولايات المتحدة، حيث رفضت ، وكما هو متوقع منها ، أفكار نيكسون والخضوع لأي ضغوط لتغيير موقف إسرائيل المتعنت . وأبلغت غولداماير نيكسون بأن العرب لا يملكون أي خيار عسكري، وبأن الوضع بالنسبة لإسرائيل لم يكن أفضل مما هو عليه الآن .

بتاريخ 11 أبريل 1973 تم عقد الاجتماع الثاني بين كيسنجر وإسماعيل ، وكانت الاستعدادات الحربية قد بدأت بعد اجتماعهما الأول ، حيث تم تحريك قوات من دول عربية حليفة لأمريكا إلى الجبهتين المصرية والسورية ، بعلم وموافقة ضمنية من واشنطن . وفي هذا الصدد ، تم تحريك طائرات سعودية إلى مصر ، ووحدات مغربية إلى سوريا . وهكذا وفي 20 أبريل 1973 ، صدر عن السي . آي. إيه تقرير سري يؤكد بأن عملاً عسكرياً يلوح في الأفق، وإن كانت ساعة الصفر لم تحدد بعد .

بعدها بأيام تم عقد اجتماع للجنة بيلديبرغ لوضع التفاصيل السياسية الدقيقة ، وتوزيع المهام على المشتركين في تنفيذ الخطة الخفية للمنظمة . وفي أقرب ما يكون إلى سيناريو أحد أفلام هوليوود الناجحة ، عملت واشنطن ولندن على ترتيب حرب السادس من أكتوبر 1973 بين مصر وسوريا من جهة ، وإسرائيل من جانب آخر ، لعب كيسنجر فيها دور المخرج والممثل ، كما شارك في كتابة النص الذي تولته في الأساس لجنة بيلديبرغ .

تدوير أموال البترودولارات

في مايو 1973 ، عقد 84 من كبار رموز السياسة والمال في الغرب اجتماعاً لهم في فيلا عائلة والنبرغ Wallenburg المالية اليهودية المتنفذة في السويد ، والواقع في جزيرة سولتجوبيدر Saltsjöbodder ، وكان من بين الحضور هنري كيسنجر وعدد من كبار مدراء الشركات النفطية والمصارف والمؤسسات المالية العالمية . كان الموضوع الرئيسي قيد البحث هو الاستعداد (وليس منع) الزيادة المتوقعة تسجيلها في أسعار النفط في المستقبل القريب . استمع الحضور إلى عرض من والتر ليفي Walter Levy حول هذا الموضوع ،

وكان السؤال الذي يحاول المشاركون الإجابة عنه هو كيفية إدارة عملية " إعادة تدوير تدفقات الدولارات النفطية " إلى البنوك الأمريكية والبريطانية ، على حد تعبير هنري كيسنجر . كان من بين أبرز المشاركين في الاجتماع من الولايات المتحدة : جايمس اكنز James Akins (البيت الأبيض)، روبرت اندرسون Anderson Robert O (رئيس مجلس إدارة شركة اتلانتيك رشيبيلد النفطية) ، جورج بول George Ball (نائب وزير الخارجية الأسبق ، ومدير دار ليهمان برذرز Lehman Bros المصرفية) ، زبيغنيو برزنسكي (مستشار الأمن القومي لاحقا) ، وليام بندي William P. Bundy (عضو مجلس العلاقات الخارجية ، نيويورك)، اي. جي . كولادو E.G. Collado (نائب رئيس شركة اكسون النفطية) ، آرثر ديين Arthur Dean (شريك قانوني لدار سوليفان آند كرومويل Sullivan and Cromwell) ، هنري . جي . هينز Henry J. Heinz II (رئيس مجلس إدارة شركة هينز Heinz) ، هنري كيسنجر (مستشار الأمن القومي للبيت الأبيض) ، وولتر ليفي Walter J. Levy (مستشار نفطي ومعد ورقة بيلديبرغ)، روبرت ميرفي Robert D. Murphy (من كبار موظفي وزارة الخارجية سابقا)، جون تاور John G. Tower (سيناتور) ، وكارول ويلسون Carroll Wilson (أستاذة في جامعة ام . آي . تي).

من بريطانيا العظمى : سير إيريك دريبيك Sir Eric Drake (رئيس مجلس إدارة بريتش بتروليوم British Petroleum)، سير دينيس غدينهيل Sir Denis Greenhill (مدير شركة بريتش بتروليوم British Petroleum) ، دينيس هيلي Denis Healey (عضو برلمان)، سير إيريك رول Sir Eric Roll (نائب رئيس شركة ووربيرغ Warburg وشركاه) ، وسير ريجنالد مالدينغ Sir Reginald Maulding (عضو برلمان) .

من فرنسا : رينيه غداينير دو ليلياك Rene Granier de Lilliac (شركة البترول الفرنسية) ، البارون ادموند دي روتشيلد Baron Edmond de Rothschild (مصرفي).

من ألمانيا : ايفون باهر Egon Bahr (وزير وزارة الحزب الاشتراكي الديمقراطي) ، هيلموت شميدت Helmut Schmidt (وزير المالية ،الحزب الاشتراكي الديمقراطي)، بريجيت برويل Birgit Breuel (مجلس مدينة هامبورغ ، الحزب الديمقراطي المسيحي)، ثيو سومر Theo Sommer (ناشر صحيفة دي زيت Die Zeit) ، اوتو وولف فون اميرنوجن Otto Wolff von Amerongen (غرف التجارة الألمانية) .

من ايطاليا : جيفاني اغنيللي Giovanni Agnelli (شركة فيات FIAT) ، المركيز سيتادينى سيزي ورافائيل جيتروتى Raffaele Gitrotti،Merchese Cittadini Cesi (رئيس مجلس إدارة شركة ENI) ، ورايغو ليفي Arrigo Levi (من جريدة لاستمبا La Stampa).

من السويد : أولوف بالمه Olof Palme (رئيس الوزراء) ، ماركوس والنبرغ Marcus Wallenberg (رئيس مجلس إدارة سي _ بانكين) ، كريستر ويكمان Krister Wickman (حاكم البنك المركزى) .

من هولندا : اف.جي . فيليبس F.J. Philips (رئيس مجلس إدارة شركة فيليبس Philips)، غيريت أ. واجنر Gerrit A. Wagner ، وماكس كوهنستامم Max Kohnstamm (رئيس مجلس إدارة شركة رويال دتش شل Royal Dutch Shell).

يلاحظ هنا وجود كبار القائمين على الشركات النفطية الأمريكية والأوروبية ، ورجال المال والمصارف ، وهنري كيسنجر ممثلاً للبيت الأبيض ، وخبراء الطاقة ومسؤولين سياسيين وحزبيين أوروبيين ، ويكفي القول بأن عائلة والينبيرغ السويدية المصرفية ، التي استضافت الاجتماع في فيلتها ، تملك القرار والحصص في مؤسسات مالية وتجارية يتجاوز حجم مبيعاتها السنوية عام 1997 ، 112 مليار دولار، وهو رقم لا يتجاوز الناتج القومي الإجمالي لأكبر دولة مصدرة للنفط في تلك السنة فحسب ، بل يزيد على إجمالي المبيعات النفطية لسائر الدول الأعضاء في منظمة أوبك في العام المذكور .

وكانت الاستعدادات لاجتماع لجنة بيلديبرغ في مايو 1973 قد بدأت قبل ذلك بعدة أشهر . ففي يناير 1973 تم تعيين جورج شولتز George Shultz مساعدا للرئيس نيكسون للشؤون الاقتصادية، بالإضافة لمنصبه كوزير للخزانة . يذكر أن شولتز كان أحد الذين شاركوا في إلغاء نظام سعر صرف الدولار الذهبي الثابت طبقاً لاتفاقيات بريتون وودز ، كما تم تعيين تاجر سندات سابق في الـول ستريت على رأس لجنة سياسة النفط المهمة مع الاحتفاظ بمنصبه كنائب لوزير الخزانة . وشهد الشهر التالي تشكيل لجنة البيت الأبيض الخاصة بشؤون الطاقة ، والتي ضمت هنري كيسنجر، وجورج شولتز George Shultz ، وجون ايهـرليخمان John Ehrlichman ، وقد لعبت هذه اللجنة دوراً كبيراً في التحضير لاجتماع لجنة بيلديبرغ في مايو 1973 .

كيسنجر : خطوة خطوة لاحتلال مصادر البترول

اما سيناريو الحرب والدبلوماسية المكوكة التي ستليها ، فقد كان من مسؤولية كيسنجر . وفي حين كان الاعتقاد السائد في وزارة الخارجية بأن على إسرائيل الانسحاب إلى حدود 1967 طبقا لخطة روجرز ، فإن كيسنجر كان يفكر بصورة مختلفة . وفي ذلك كتب كيسنجر يقول في كتابه المعنون " سنوات الجيشان " ، كانت نقطة البدايه بالنسبة لي من الطيف العاطفي ... فمع أنني لست باليهودي الملتزم ، إلا أنني لم أستطع أن أنسى حقيقة أن 13 من أفراد عائلتي ماتوا في معسكرات الاعتقال النازية . ولهذا لا أحتمل التفكير بتشجيع حصول محرقة أخرى من خلال سياسات حسنة النوايا يمكن أن تخرج عن نطاق السيطرة " ، كما أن أجنده كيسنجر كانت تختلف عن الرئيس نيكسون ، حيث يقول في كتابه " كان نيكسون يؤمن بالكثير من الأفكار العنصرية المتجذرة في أبناء الطبقة المتوسطة في كاليفورنيا التي ينتمي إليها ، فقد كان يرى بأن اليهود يشكلون جماعة متنفذة مترابطة في المجتمع الأمريكي ... وبأن هيمنتهم على الإعلام تجعل منهم خصوماً خطيرين . وفوق ذلك ، كان نيكسون يعتقد بأنه يجب إجبار إسرائيل على القبول بتسوية سلمية ، وبأنه لا يسمح لها بتعريض علاقاتنا العربية للخطر " ، ومع أن خطة كيسنجر كانت تختلف عن تفكير الرئيس وعن تصورات وزارة الخارجية ، إلا أنه مع ذلك مضى في تنفيذها ، فكان أن فتح قنوات تفاوضية سرية مع الرئيس المصري أنور السادات دون علم وزارتي الخارجية والدفاع ولا السفارة الأمريكية في القاهرة . كان كيسنجر ينظر إلى كبار موظفي الخارجية باعتبارهم مؤيدين للعرب ، وهي نظرة إسرائيل نفسها إليهم . كان كل من هو على خلاف بالرأي مع إسرائيل أو اللوبي اليهودي يُعد حليفا للعرب ، وبالتالي يجب تجنبه .

كان نيكسون وقتها يعاني من فضيحة ووترغيت Watergate ، التي فجرتها الصحافة ، التي قال الرئيس الأمريكي بأنها تحت سيطرة اليهود . وقد تفاعلت القضية بفعل معلومات حصل عليها أحد الصحفيين المطلعين ، واستخدم خلالها تكتيكات أقرب إلى عمل أجهزة الاستخبارات . وفي ظل الوضع الصعب للرئيس ، كان كيسنجر في الواقع يتصرف كرئيس فعلي للولايات المتحدة . ومع أنه تجاوز وزارة الخارجية تماماً في محادثاته السرية ، إلا أنه كان بحاجة إلى الهيمنة الكاملة على الوزارة لإنجاح خطته القادمة التي ستعقب حرب أكتوبر المخطط لها ، وهي دبلوماسية الخطوة – خطوة . وفي سبيل ذلك ، تولى كيسنجر حقيبة الخارجية قبل حرب أكتوبر بأسابيع قليلة ؛ ليصبح صاحب الكلمة الفصل في سياسة الولايات المتحدة الخارجية ،

خاصة في ظل تعاظم الفضيحة التي كانت تحيط بالرئيس نيكسون ، وبشكل جعلته أقرب إلى الرئيس العاجز.

تحققت النتيجة الرئيسية بالنسبة لمخططيها ، وهي رفع أسعار النفط بنسبة 400% ، وطبقاً لما تم الاتفاق عليه في اجتماع مجموعة بيلديبرغ في مايو 1973 ، أي قبل اندلاع الحرب بخمسة أشهر. ومثل هذا الارتفاع الفلكي في سعر النفط أمر لم يكن بالإمكان السماح بحدوثه لولا رغبة الولايات المتحدة ومصالحاتها في المقام الأول. وطبقاً لدراسة أعدها البروفسور جورج . سي . لودج George C. Lodge ، وتشكل جزءاً من المنهج الذي يدرس لطلبة الماجستير في مساق شؤون النفط الدولي بكلية إدارة الأعمال بجامعة هارفارد ، فإن ضمان الإمدادات النفطية للغرب ليس وحده الذي يشكل أحد مطالب الأمن القومي فيما يتعلق بموضوع النفط ، بل هناك سعر النفط أيضاً . وفي أواخر السبعينات ، تم تشكيل قيادة خاصة للتدخل في دول الخليج المنتجة للنفط ، كما جاءت عقيدة كارتر لعام 1980 لتنص على أن نفط الخليج يشكل أهمية استراتيجية بالنسبة للأمن القومي للولايات المتحدة ، وبأن الولايات المتحدة ستستخدم كل الوسائل الضرورية ، بما فيها القوة العسكرية ، لضمان مصالحها والإمدادات النفطية من الدول المنتجة للنفط في الخليج العربي. كانت عقيدة كارتر هذه تكراراً لعقيدة لاندسداون Landsdowne الإنجليزية في العقد الأول من القرن العشرين ، والتي نصت على أن الخليج (الفارسي) والدول المحيطة تشكل مصدر أهمية كبيرة للإمبراطورية البريطانية آنذاك ، وعليه فلن يسمح لأحد ببسط نفوذه في المنطقة باستثناء بريطانيا العظمى.

سيناريو حرب الخليج الأولى خطط لها قبل 12 سنة

الواقع أن خطط الحرب الأمريكية الخاصة بالتدخل العسكري القادم بدأت قبل 12 عاماً من حرب الخليج الأولى . ففي الصفحة رقم 158 من عدد مجلة فورتشين Fortune Magazine ، الصادر بتاريخ 7 مايو 1979 ، تحدثت مقالة بعنوان " ماذا لو غزت العراق الكويت؟ " عن ردة الفعل الأمريكية تجاه غزو عراقي محتمل للكويت . وأعرب معد المقالة عن الرأي الأمريكي القائل بأن العمال اليمنيين في السعودية ، وحوالي 400 ألف فلسطيني في الكويت ، يشكلون عناصر عدم استقرار في الخليج . وهكذا جاءت حرب الخليج الأولى لتخلص البلدين من عبء مئات الألوف من أبناء الجنسيتين الذين غادروا دول الخليج النفطية بعد الحرب.

بتاريخ 8 يونيو 1974 ، وقع وزير الخارجية الأمريكي هنري كيسنجر اتفاقية خاصة بتشكيل لجنة أمريكية سعودية مشتركة للتعاون الاقتصادي ، وبهدف رئيسي هو التعاون في المجال المالي . وفي هذا السياق ، وقعت وزارة الخزانة الأمريكية اتفاقية مع سلطة النقد السعودية SAMA **بهدف "إقامة علاقات جديدة مع الخزانة الأمريكية فيما يتعلق بعمليات الإقراض ، وذلك من خلال بنك الاحتياط الفيدرالي - نيويورك"** ، وبموجب هذه الاتفاقية ، فإن سلطة النقد السعودية ستشتري سندات خزانة أمريكية جديدة مع فترة استحقاق سنة على الأقل.

تأثرت الدول المتقدمة في أوروبا واليابان بالصدمة النفطية التي أعقبت حرب أكتوبر 1973 ، إلا أن اقتصادياتها المتطورة وحقيقة أنها كانت على علم مسبق بما سيحدث ، حيث تلقت تحذيراً بذلك قبل ستة أشهر من الحرب ، وتحديداً بعد اجتماع مجموعة بيلديبرغ في مايو ، الأمر الذي مكن هذه الدول من استيعاب الصدمة من خلال تعديل سياساتها الاقتصادية بسرعة . وحدها الدول النامية كانت الأشد تأثراً بما حصل ، فقد أوقعتها آثار الصدمة النفطية في مصيدة الديون، التي لا تزال تعاني منها حتى الوقت الحاضر، بل إن أغنى الدول النفطية وجدت نفسها ، وبعد شهر عسل قصير ، تنضم إلى نادي الدول المدينة بما فيها السعودية بعد حرب الخليج الأولى. أما الرابحون الوحيدون من خطة كيسنجر تلك فكانوا : الـوول ستريت وبنوك نيويورك ولندن والشركات النفطية العملاقة.

بدأ العد التنازلي لاحتلال منابع النفط في الخليج خطوة خطوة. في سنة 1977 صرح وزير الدفاع الأمريكي هارولد براون Harold Brown أن مشكلة النفط "هي أكبر تهديد للأمن القومي الأمريكي على المدى البعيد". ثم نشرت مجلة فورتن في عددها الصادر في 1979/5/7 السيناريو المتوقع للعبة الحرب هذه في الخليج العربي، حيث وصفت الكيفية التي سيكون عليها رد الفعل الأمريكي في حال قيام العراق بغزو الكويت بسبب النزاعات الحدودية وغيرها. وفي الصفحة 158، وتحت عنوان "إذا قام العراق بغزو الكويت والسعودية..."، قالت المجلة: "تتمكن القوات المدرعة العراقية مستخدمة في معظمها معدات سوفيتية، من اجتياح أي من الدولتين بكل سرعة. وفي حال طلبها، فإن المساعدة الأميركية ستكون في البداية عبارة عن ضربات جوية تكتيكية أميركية ضد القوات المدرعة العراقية وقواتها الجوية - وربما بعض التهديدات بتدمير

المنشآت النفطية العراقية. ولطرد القوات البرية العراقية، فستكون هناك حاجة إلى قوات المارينز من الأسطولين السادس والسابع، ولقوات المشاة من الفرقتين ال 82 وال 101." وصوّرت هذه الخطة "جيشاً في السماء" لتحريك القوات واستخدام الجسر الجوي الاستراتيجي لقوات سلاح الجو الأميركي - المكون من 70 من طائرات C-5A العملاقة و 234 طائرة C-141 الأصغر حجماً، إلى جانب 700 من طائرات KC-135 المستخدمة في تزويد الطائرات بالوقود أثناء تحليقها في الجو." رأت تلك الدراسة نفسها بأن عرب الشمال (خصوصاً الفلسطينيين) في الخليج ، واليمنيين في الجزيرة العربية يشكلون عناصر عدم استقرار ، ويفضل العيش دون وجودهم في أول فرصة سانحة.

تم تكوين قيادة للتدخل السريع في الخليج العربي، وكذلك تكوين القيادة المركزية Central Command .

في "الرسالة للأمة" لسنة 1980 أعلن كارتر مبدأه، والذي عبر فيه "بالاعتماد الهائل للديمقراطيات الغربية على بترول الشرق الأوسط" مهدداً باستعمال القوة لتأمينها ، ومحفراً "بأن أي محاولة ... للسيطرة على الخليج الفارسي ستعتبر هجوماً على المصالح الحيوية للولايات المتحدة الأمريكية ... وسوف يتم صدها بكل الوسائل الضرورية، بما في ذلك استعمال القوة العسكرية".

ثم بدأنا نرى بنية تحتية جديدة من المطارات والموانئ ذات استعمال مزدوج (مدني وعسكري)، وكذلك المدن العسكرية التي أنشأها أهل النفط في سائر دول الجزيرة العربية، وكذلك زيادة في الأساطيل العسكرية التي جعلت من الخليج بحيرة أمريكية. أما كيف حصل ذلك خطوة خطوة وفق ذرائع مختلفة، فكان وفق سيناريوهات محكمة ، فأصحاب النظام العالمي الجديد هم أصحاب هوليوود ، لا تعوزهم السيناريوهات والإخراج، واستمر التصعيد خطوة خطوة ، حتى كانت حرب الخليج الأولى، درع صحراء انقلبت بقدرة قادر إلى عاصفة.

وضع فريد : قوة عظمى وحيدة بدون نفط

في عام 1990، كانت الولايات المتحدة في وضع فريد لم تعشه من قبل: لقد أمست القوة العظمى الوحيدة في العالم بعد الانهيار الداخلي والتفكك الذي حلّ بالاتحاد السوفييتي، وبات

ممكناً الآن إيجاد العولمة الاقتصادية وتوسيع "سوق الشركات العبر قطرية" لتشمل العالم بأسره بوصفه أصبح مهياً تماماً. وبصفتها القوة العظمى الوحيدة الآن، فقد بات بمقدور الولايات المتحدة، أكثر من أي وقت مضى، أن تتحكم في النفط وتسيطر عليه. فقد استوردت 45% من نفطها عام 1989، وتشير دراساتها أنه قد ينبغي عليها استيراد أكثر من 65% من النفط مع نهاية عقد التسعينيات! وقد كان حوالي 40% من العجز التجاري الأمريكي عام 1989 ناجماً عن الواردات النفطية، وتضاءل دور الطاقة النووية إلى أن همشت، حيث إنها كانت مصدراً لـ 7% من الطاقة فقط عام 1989، شكل النفط في عام 1989 ما نسبته 41.9% من إمدادات الطاقة للولايات المتحدة، فيما شكل الغاز 24%، والفحم والكوك 23.3%، والقوة الكهربائية المائية 3.5%، وبقية المصادر 0.5%. وأصبح بمتناول يد أميركا الآن أن "تساعد" جمهوريات بحر قزوين ودول آسيا الوسطى على أن تنال "استقلالها عن الاتحاد السوفييتي"، وبذلك تصبح مخزونات النفطية آمنة تحت السيطرة الأمريكية.

وعلى طريقة التحرير الأمريكية، التي أصبحت مألوفة للعالم هذه الأيام بوضوح أكثر مما مضى، ذهبت القوات الأمريكية إلى الصومال، خصوصاً بعد الانقلاب الذي أطاح بالنظام المالي لها. كانت 70% من الصومال قد أعطيت إلى أربع شركات نفط أمريكية، وتزايدت احتمالات الاستخراج بعد تطوير الحقول اليمنية. تقول جريدة لوس أنجلوس تايمز (Los Angeles Times) **"بأن شركة CONOCO للبترول قد سمحت أن يصبح مركز إدارتها في مقديشو وكأنه في واقع الأمر سفارة أمريكية، وذلك قبل هبوط قوات المارينز الأمريكية في العاصمة".**

التخطيط للقرن الأمريكي الجديد

بعد انتهاء حرب الخليج الأولى قامت مجموعة من موظفي وزارة الدفاع الأمريكية في عهد الرئيس بوش الأب بإصدار (توجيهات خطط الدفاع) " Defense Planning Guidance " وذلك سنة 1992. شارك في إعداد تلك التوجيهات ديك تشيني (وزير الدفاع آنذاك) ، بول ولفويتز Paul Walfowitz ، زلماي خليل زاد ، سكوتر ليببي Scooter Libby ، اريك إدلمان Eric Edelman ، وكولن باول ، وجميعهم خدموا في إدارة بوش الأول ، ثم جاءوا إلى إدارة بوش الثاني. ومن ضمن ما جاء في تلك التوجيهات : أن هدف الولايات المتحدة في الشرق الأوسط أن **"تبقى الولايات المتحدة القوة الخارجية المهيمنة**

للمحافظة على حصولها على إمدادات النفط". كما أن هذه التوجيهات قد أفصحت عن أحادية القطبية للولايات المتحدة وضرورة المحافظة عليها بسائر الوسائل، كما أشارت إلى اللجوء إلى الحروب الاستباقية وعدم ضرورة العمل ضمن أطر الأمم المتحدة، بل ضمن مجموعات من التحالفات لذوي المصالح المشتركة.

في سنة 1997 اتحد فريق مجموعة بوش الأول المذكور أعلاه، وأسسوا "مشروع القرن الأمريكي الجديد". كان من بين أعضاء هذا المشروع أيضاً دونالد رامسفيلد، حيث وقع هو مع الآخرين في تلك السنة على رسالة إلى الرئيس كلينتون يطالبون فيها بتغيير النظام في العراق.

أطل علينا القرن الواحد والعشرون وأطل معه جورج دبليو بوش، والذي تم ترشيحه داخل الحزب الجمهوري من جورج شولتز، وتم تدريبه على الشؤون العامة والخارجية أثناء حملته الانتخابية من قبل كونداليزا رايس وبول ولفوتيز . كانت عملية التدريس تتم كل يوم اثنين عبر اتصال هاتفي مشترك Conference Call . وحتى بعد مرحلة التدريب هذه، بقي الرئيس بوش قليل المعرفة بشؤون التاريخ والجغرافيا. فعندما سأله مراسل مجلة غلامور Glamor (عدد مايو 2000) إن كان يعرف ما هي (طالبان)، أجاب بوش بأنه سمع بهذا الاسم من قبل. وبعد فترة من التفكير قال: أظن أنها فرقة روك أند رول! فإذا كان بوش الثاني قليل المعرفة بشؤون الدنيا والآخرة ، فإن القوى التي أوصلته إلى الحكم لينفذ أجندتها تعرف تماماً ماذا تريد. لقد علق أحد القادة البارزين الأمريكيين أثناء تنصيب كلينتون للرئاسة "تغيير الوجوه في البيت الأبيض، أما القابضون على زمام الأمر فهم هم أنفسهم لا يتغيرون".

عندما كان لا يزال على رأس أكبر شركة لخدمات النفط في العالم "هاليبورتون Halliburton"، تحدث نائب الرئيس الأمريكي ديك تشيني Dick Cheney في اجتماع مغلق نظمته المعهد البريطاني للبترول – لندن في خريف 1999 عن اختلال التوازن بين العرض والطلب للبترول، ومما جاء في حديثه القول " من الواضح لنا جميعاً بأن إنتاج النفط آيل للنضوب، ولهذا يترتب استكشاف المزيد من الاحتياطات النفطية وتطويرها كل عام، بما يعادل حجم الإنتاج في ذلك العام، وذلك لتحقيق التعادل المطلوب، وهي حقيقة لا تمس الشركات النفطية فحسب، بل تمس القطاع الاقتصادي على مستوى العالم بشكل عام. وعلى سبيل المثال ، فإن شركة نفطية مثل إيكسون-موبيل Exxon-Mobil مطالبة بتأمين

احتياطات نفطية جديدة بحجم 1.5 مليار برميل سنوياً لتعويض حجم إنتاجها السنوي الحالي.. وهذا يعني استكشاف حقل نفطي رئيسي جديد بحجم 500 مليون برميل كل أربعة أشهر. أما على المستوى العالمي ، فإن الشركات النفطية مطالبة باستكشاف ما يكفي من النفط واستخراجه لتعويض الاستهلاك السنوي، الذي يتجاوز حالياً 71 مليون برميل يومياً (ذلك في 1999)، بالإضافة إلى تلبية الزيادة على الطلب الآخذ في التعاضد ، والذي تضعه بعض التقديرات بحدود 2% سنوياً ، يضاف إليها 3% هي نسبة التراجع الطبيعي في الإنتاج من الاحتياطات الحالية ، وهذا يعني أننا سنجد أنفسنا عام 2010 بحاجة إلى 50 مليون برميل إضافية يومياً لتلبية الزيادة في الاستهلاك العالمي من النفط ". ويضيف تشيني قائلاً : "في الوقت الذي توفر فيه بعض المناطق في العالم فرصاً حقيقية ، يظل الشرق الأوسط ، بما يملكه من ثلثي حجم الاحتياط العالمي من النفط ، يشكل منطقة الجائزة الكبرى".

طبقاً لحسابات تشيني فإن حجم الزيادة من استهلاك النفط عام 2010 سيتطلب اكتشافات جديدة، تقوم بإنتاج خمسة أضعاف ما تنتجه المملكة العربية السعودية في الوقت الحاضر... وهو أمر لن يتحقق كما تؤكد الدراسات كافة .

توقعات ديك تشيني قام بتكرارها هاري لونغويل Harry Longwell، مدير ونائب الرئيس التنفيذي لشركة إيكسون موبيل ، الذي كتب في مجلة وورلد انييريجي World Energy (العدد 3 لعام 2003) يقول : "الفكرة الأساسية هنا هي أن ازدياد الطلب على النفط يقابله نضوب في الإنتاج الحالي . وبلغة الأرقام ، تشير التوقعات إلى أنه بحلول عام 2010 سيحتاج العالم إلى رفع الإنتاج بمعدل يزيد على نصف حجم الإنتاج الحالي لتلبية الزيادة المتوقعة في الطلب على النفط ، وهي زيادة تفوق قدرة المنتجين الحالية ، الأمر الذي يشكل تحدياً كبيراً لهم".

أما جون ثومبسون John Thompson رئيس شركة إيكسون موبيل للاستكشاف ، فقال أمام اجتماع للهيئة العمومية عام 2003 : "بحلول عام 2015 سنكون في وضع يحتم علينا استكشاف كميات من النفط والغاز وتطويرها وإنتاجها ، تعادل 80% من حجم الإنتاج الحالي" وهو الرقم نفسه الذي أورده تشيني من قبل . وجاء تقرير لجنة دراسة الطاقة التي أمر بتشكيلها تشيني نفسه بعد أن أصبح نائباً للرئيس ونشر عام 2001، جاء على القدر نفسه

من التشاؤم والتحذير ، حيث جاء في التقرير "الفرق الأهم بين الحاضر وما كان عليه الوضع قبل عقد من الزمان هو التآكل السريع وغير العادي الحاصل للطاقات الاحتياطية في بعض قطاعات سلاسل الطاقة، وبخاصة في قطاع النفط".

أما وزير الطاقة الأمريكي سبنسر ابراهام Spencer Abraham فيقول في هذا الشأن "ستواجه أمريكا أزمة رئيسية في إمدادات الطاقة على مدار العقدین القادمين ، وأي فشل في مواجهة هذا التحدي من شأنه أن يهدد ازدهارنا الاقتصادي ويعرض أمننا القومي للخطر ، وسيكون له أثره الكبير في إحداث تغيرات جذرية في حياة الأمريكيين".

نجد في الفصل الثامن من وثيقة السياسة الوطنية للطاقة ، الصادرة عن مجموعة تطوير السياسة الوطنية للطاقة التي يرأسها ديك تشيني، إشارة واضحة إلى أهمية الشرق الأوسط كمورد نفطي رئيسي إن لم يكن الأهم في العالم . ومما جاء في الوثيقة القول "من المتوقع أن تنتج دول الخليج ما بين 54 – 67% من النفط العالمي بحلول عام 2020 ، الأمر الذي يستمر معه الاقتصاد العالمي في الاعتماد على نفط الدول الأعضاء في منظمة أوبك OPEC وبخاصة دول الخليج ... ولهذا ستبقى هذه المنطقة حيوية بالنسبة للمصالح الأمريكية".

بينما كان سعر البترول في حدود 20 – 30 دولاراً / البرميل توقعنا في كتابنا "حروب البترول الصليبية" بأن يتراوح سعر البترول بين 50 إلى 60 دولاراً للبرميل لسنة 2005 ، ولربما لسنة 2006 وهذا ما حصل فعلاً. إلا أنه مع ازدياد الفجوة ما بين العرض والطلب قبل دخول محطات توليد طاقة نووية قبل سنة 2010، فإن السعر عندئذٍ سيصل إلى ما بين 100 و 105 دولارات للبرميل . تبدو هذه الأرقام شبه خيالية ، لكنها ليست كذلك ، فلقد كان سعر البترول في سنة 1980 ، معدلاً بدولار اليوم ، يساوي أكثر من 75 دولاراً للبرميل ... ذلك قبل ربع قرن حين كانت هناك وفرة في الإنتاج.

إذا كان نصيب أوبك ، وبسعر 100 دولار للبرميل ، 35 مليون برميل في اليوم لسنة 2010؛ فذلك يعني أن بترول أوبك سيتيح فرصة لمطابع الدولار الأمريكية أن تطبع 3500 مليون دولار يومياً دونما أي غطاء، وبتكلفة خمسة سنتات لكل ورقة مئة دولار ، مادام الدولار هو العملة الوحيدة للمتاجرة بالبترول . إن مجرد السماح بتحويل تسعير البترول من الدولار إلى

عملات أخرى ، سيكون بمثابة سلاح دمار شامل للاقتصاد الأمريكي والإمبراطورية الأمريكية. نعم : سلاح دمار شامل!

مركز الكرة الأرضية النفطي في الخليج

في تقريرها الصادر في أبريل 2004 ، نشرت إدارة معلومات الطاقة Energy Information Administration توقعاتها الخاصة بحجم إنتاج منطقة الشرق الأوسط من النفط للسنوات العشرين القادمة:

مليون برميل يومياً		البلد
إنتاج 2025	إنتاج 2001	
22.5	10.2	السعودية
4.9	3.7	إيران
6.6	2.8	العراق
5.2	2.7	الإمارات العربية المتحدة
5.0	2.4	الكويت
0.8	0.6	قطر

وطبقاً للتقارير، فإن حجم إنتاج دول الخليج من النفط لعام 2001 كان يمثل 29% من إجمالي الإنتاج العالمي ، في حين أن التوقعات، كما يوضح الجدول أعلاه ، تشير إلى أن حصة دول الخليج سترتفع إلى 60% من الإنتاج العالمي بحلول عام 2025، مما يعني بأن الحياة الاقتصادية للولايات المتحدة ستعتمد وبشكل كبير على الشرق الأوسط ، وكذلك الأمر بالنسبة لنجاح أجندتها الخاصة بالرأسمالية والعولمة والإمبراطورية، ولهذا لم تعد الهيمنة على المنطقة بالوكالة بواسطة الأصدقاء أو العملاء كافية بحد ذاتها ، بل حان وقت الاحتلال المباشر ، وقد وقع الاختيار على العراق لتوافر ظروف مواتية جعلت من هذا البلد الضحية الأولى والأسهل للمخطط الأمريكي الكبير. ولو أن هناك تغييراً سيظراً على هذه الإستراتيجية فسيكون في الأسلوب لا في الهدف نفسه، اللهم إلا إذا كانت تجربة العراق المريرة قد استدعت إلى مراجعة،

لكن المشكلة هي أن الموضوع برمته يتعلق بمصير الإمبراطورية الأمريكية ومشروع قرننها الجديد.

وعودة إلى التقرير الصادر عن لجنة دراسة الطاقة ، التي أمر ديك تشيني بتشكيلها ، والصادر في أبريل 2001 (قبل هجمات 11 سبتمبر) ، فإن التقرير يتحدث عن خطط أمريكية للتعامل مع مشكلة النقص المتوقع في الإمدادات النفطية . فبعد توضيح حقيقة أن الشعب الأمريكي مستمر في المطالبة بتوفير كميات وافرة من النفط الرخيص ، دون الاستعداد لتقديم أي تضحيات ، ينتقل التقرير إلى القول بأن أمريكا تبقى أسيرة معضلة الطاقة ، الأمر الذي سيدفعها إلى الإقدام على "التدخل العسكري" لتأمين إمداداتها النفطية. وهكذا فإن خيار "التدخل العسكري" ورد قبل 11 سبتمبر.

إن السبب في الاندفاع المفاجئ نحو العراق ، واستعجال بوش في اتخاذ قرار الحرب ، وعلى الرغم من معارضة أكثر دول العالم له ، فيتعلق بما أطلق عليه الخبراء اسم "الذروة النفطية" ويعود التوقيت وسرعة اتخاذ القرار بالحرب إلى الصدمة القاسية التي تلقتها الخطط السياسية الأمريكية الخاصة بنفط بحر قزوين ، حيث انتهت الأحلام الأمريكية بالعثور على احتياطات نفطية هائلة تعوضها عن الاعتماد على نفط الشرق الأوسط ولو مؤقتاً.

ففي منتصف التسعينات ، كان المخططون في واشنطن على قناعة بأن السيطرة المباشرة للشركات النفطية الأمريكية والبريطانية على حقول نفط أذربيجان وقازاخستان ، من شأنه أن يمنح الولايات المتحدة الوقت الكافي المطلوب للتخطيط المتأني للانتقال إلى بدائل النفط، وكذلك للسيطرة العسكرية على حقول النفط الأضخم في الشرق الأوسط وبالتدريج. كانت ظروف دول حوض بحر قزوين مواتية للخطط الأمريكية ، فقد كانت تلك الدول ، الخارجة حديثاً من العباءة السوفياتية ، تعاني من الضعف والفوضى ومنزوعة السلاح تقريباً، الأمر الذي جعلها جاهزة لسيطرة النفوذ الأمريكي . وفي عام 1998 ، كانت النظرة الأمريكية إلى أفغانستان من زاوية كونها تشكل حلقة مهمة تربط بين حقول النفط والغاز الطبيعي في حوض بحر قزوين وطرق خطوط النفط الجديدة، الأمر الذي سيمنح الولايات المتحدة فسحة من الوقت قبل انفجار أزمة الذروة النفطية، الخارجة عن نطاق السيطرة الأمريكية .

الواقع أن بعض الصقور في البنتاغون تحدثوا صراحة عن أن الحرب على العراق هي من أجل النفط وليس نزع أسلحة الدمار الشامل العراقية المزعومة. فهذا نائب وزير الدفاع بول وولفوتز يقول في مقابلة في سنغافورة بتاريخ 31 مايو 2003 " دعونا ننظر إلى الأمر ببساطة ... فالفرق الأهم بين كوريا الشمالية والعراق يكمن في الناحية الاقتصادية ... لم يكن أمامنا من خيار آخر في العراق ، فتلك البلاد تطفو على بحر من النفط " . علماً بأن الحقول المستغلة في العراق لتاريخه هي فقط 17 حقلاً من أصل 80 حقلاً أثبتت الدراسات وجود كميات هائلة من البترول داخلها!

لا داعي لنا نحن لنسهب في الإشارة إلى الأكاذيب والذرائع التي استخدمت لاحتلال العراق. ولعلنا نكتفي بما كتبه بعض كبار السياسيين الأمريكيين أنفسهم. فقد قال الرئيس الأمريكي كارتر "لقد كانت حرباً لا مبرر لها على الإطلاق. ولقد تم تبريرها بناءً على ادعاءات كاذبة". أما مستشار الأمن القومي السابق Zbigniew Brezinski زبيغيو برجينسكي فقد كتب في صحيفة The Astralian بتاريخ 14 أكتوبر 2005 : "قبل حوالي 60 سنة لخص آرنولد توينبي Arnold Toynbee بحثه الكبير (دراسة التاريخ) بأن السبب النهائي لانهايار الإمبراطوريات كان (سياساتهم الانتحارية). وبكل أسف سيدخل جورج بوش التاريخ، بل وبكل أسف على مستقبل الولايات المتحدة، فإن (السياسة الانتحارية) تبدو أكثر فأكثر وصفاً ينطبق تماماً على سياسات الولايات المتحدة منذ 11 سبتمبر ". ويضيف برجينسكي : "كانت الدعوة إلى الحرب على العراق من قبل دائرة ضيقة من أصحاب القرار لأهداف مبهمه لم يتم الإفصاح عنها بعد ، لكن حججها كانت دموية وكلفتها كانت أكثر مما كان متوقعاً".

وهكذا تم احتلال دولة عربية ذات سيادة جهاراً ونهاراً ... بحرب استباقية، وبحجج كاذبة ... وسينكر الآخرون يوماً يروونه بعيداً ونراه قريباً أنهم أكلوا يوم أكل الثور الأبيض.

بول بريمر : مندوب سام أمريكي !

ابتداءً من 6 مايو 2003 ، وحتى 28 يونيو 2004 ، حكم العراق بول بريمر Paul Bremer بعد فترة قصيرة من حكم جي غارنر Gay Garner الذي عزله وزير الدفاع لتباين آرائه معه. وبول بريمر يتمتع بخبرة 4 عقود من العمل في القطاعين العام والخاص. عمل مع جورج شولتز، ودونالد رامسفيلد في الدولة، وفي القطاع الخاص عمل مع شركة

كيسنجر ومشاركوه كعضو مجلس الإدارة المنتدب. قبل الغزو بشهور قامت الولايات المتحدة بتكليف شركة بيرنغ بوينت Bearing Point بإعداد خطة Master Plan لإعادة هيكلة الاقتصاد العراقي ليصبح نظاماً اقتصادياً حراً. شركة بيرنغ بوينت كان اسمها KPMG Consulting قبل أن تغير اسمها، وكانت كلفة إعداد الدراسة 250 مليون دولار . كانت مهمة بريمر هي تنفيذ خطة Bearing Point بحذافيرها. بعد احتلال العراق كانت الخطة تقتضي تغيير النظام الاقتصادي العراقي من سيطرة الدولة إلى سيطرة السوق . أما سيطرة السوق فهي الاسم المستعار لسيطرة الشركات عبر القطرية. كان بريمر يتمتع بصلاحيات لا حدود لها، ويستطيع إصدار قوانين جديدة أو إلغاء قوانين قائمة بجرة قلم. وهذا ما فعله بإصداره 100 تعليمة أو أوامر لتغيير الخارطة السياسية والاقتصادية العراقية. أما تلك التعليمات فهي تحمل قوة القانون وتلغي كل ما يتعارض معها. كان الأمر الأول من أوامره المئة التي صدرت أثناء حكمه، يقضي بالاستغناء عن خدمات 120.000 موظف عراقي كبير في وزارات الدولة كافة ، ذلك أنه قد لا يمكن إحداث التغيرات الجوهرية المطلوبة بوجودهم. جاء بعد ذلك أمر تسريح سائر قوى وزارة الدفاع والجيش العراقي، والبالغ عددهم أكثر من 500.000 شخص. تتالت الأوامر الواحد بعد الآخر، بحيث تم تفكيك النظام السياسي والاقتصادي برمته. وهذه بعض من الأوامر والقرارات:

الأمر (39): (أ) يسمح بخصخصة 200 شركة عامة مملوكة من الدولة لتصبح قطاعاً خاصاً.
(ب) السماح للأجانب بامتلاك 100% من الشركات العراقية. (ج) إلغاء تفضيل العراقيين عن غيرهم لعقود الدولة . (د) تحويل أموال الأجانب والأرباح بلا قيود أو ضرائب.
الأمر (57) والأمر (77) : تعيين مفتشين عامين ومدققين من قبل الولايات المتحدة على سائر الوزارات ودوائر الدولة، ولعقود مدتها 5 سنوات ، وذلك لتنفيذ أوامر الاحتلال بشأن جميع البرامج والعقود والموظفين.
الأمر (17): يعطى المقاولون الأجانب ، بمن في ذلك المرتزقة المسمون مقاولو الدفاع، الحصانة ضد القانون العراقي. حتى لو قتل أحد هؤلاء عراقياً، فالمحاكم الأمريكية فقط هي المخولة بمحاكمتهم.

الأمر (40): يسمح للبنوك الأجنبية بشراء حصص كبرى في البنوك العراقية.

الأمر (49): يقضى بتخفيض الضرائب على الشركات من 40% إلى 15%.

الشركات العراقية المنهكة منذ أكثر من عشر سنوات من الحصار الاقتصادي صار عليها أن تتنافس مع الشركات الأمريكية عبر القطرية العملاقة، وبناءً عليه استحوذت تلك الشركات الأجنبية على عقود (إعادة الإعمار). ولقد أحضرت تلك الشركات موظفيها من الخارج، عدا بعض الوظائف الدنيا فكانت للعراقيين الذين رُفعت عنهم حقوق أفضلية المواطنة للعمل داخل أوطانهم، مما زاد في البطالة لتصبح أكثر قسوة حتى من أحلك أيام الحصار إبان النظام السابق.

ولقد تم إدخال العديد من أوامر بريمير ضمن الدستور العراقي الجديد. المادة 25 تتطلب اعتماد "مبادئ الاقتصاد الحديث (أي الرأسمالي) الذي يحقق الاستثمار الكامل للموارد، والذي يشجع تطوير القطاع الخاص". أما المادة 26 فتشجع الاستثمار (للعراقيين والأجانب على قدم وساق) في سائر المجالات، والمادة 27 تسمح بخصخصة ممتلكات الدولة. ولقد تم حذف الفقرات التي تمنع "استعمال العراق كقاعدة أو ممر للقوات الأجنبية" وحذف "منع إمكانية وجود قواعد عسكرية في العراق". وكانت هذه الفقرات موجودة في المسودة الأولى للدستور.

العراق على بحرٍ من النفط

كانت المرحلة الثالثة هي إصدار قانون النفط، والذي يتم السماح بموجبه لشركات البترول الأجنبية بالسيطرة على نفط العراق. لقد أحضرت الإدارة الأمريكية شركات البترول الأمريكية للتشاور معها قبل ستة شهور من غزو العراق. كذلك قامت "مجموعة مستقبل قطاع النفط والطاقة في العراق" التابعة لوزارة الخارجية، قامت بالتوصية بأن يتم فتح الأبواب "لشركات النفط العالمية بأسرع وقت ممكن بعد الغزو". كان أحد أعضاء هذه المجموعة العاملة في واشنطن إبراهيم بحر العلوم، والذي أصبح وزيراً للنفط العراقي بعد الاحتلال مرتين، أما رئيس الوزراء المؤقت إياد علاوي فقد قدم في سبتمبر 2004 مبادئ لقانون النفط الجديد في العراق، اقترح فيه "إنهاء التخطيط المركزي وهيمنة الدولة على الاقتصاد" وحث "الحكومة العراقية لتتوقف عن إدارة عمليات قطاع النفط". كما أنه أوصى بالخصخصة حيث وجه الأمور لتكون الصناعة "بشكل كامل مبنية على القطاع الخاص، بحيث يتم التدرج أيضاً بخصخصة عمليات تسويق النفط ومنتجاته، كما تكون سائر التوسعات للمصافي أو المصافي الجديدة مقامة على أساس القطاع الخاص المحلي منه والأجنبي". كما تم التوصية بأن يتم تطوير الحقول الجديدة غير المستغلة من قبل شركات النفط الدولية، علماً بأن الحقول المستغلة في العراق هي 17 حقلاً من أصل 80 حقلاً نفطياً كبيراً مثبناً لمخزون هائل من النفط. وهكذا فإن المادة 109

من الدستور العراقي الجديد تؤكد على هذا التوجيه، حين تقول بأن الدولة العراقية ستدير الحقوق الحالية فقط ؛ ولقد قام عادل عبد المهدي بالإعلان عن قانون النفط الجديد في واشنطن.

خطة الشرق الأوسط الكبير تحمل في ثناياها تأسيس منطقة تجارية شرق أوسطية حرة تسمى MEFTA، على غرار NAFTA للقارة الأمريكية الشمالية. والخطة تقضي بالسماح لكل دولة على حدة لكي تتمتع بامتيازات "النظام العام للتفضيل ، Generalized System of Preferences ، وذلك بدخول جنة التصدير بميزات خاصة لسوق الولايات المتحدة، باتفاقات ثلاثية بين الولايات المتحدة والدولة المعنية وإسرائيل!

بعد حرب الخليج الأولى سنة 1991، استطاع العراقيون والشركات العراقية بإمكانات متواضعة، وضمن حصار قاس، إعادة أنظمة الكهرباء والماء إلى مستوى مقبول خلال ثلاثة شهور. أما الشركات عبر القطرية فلم تستطع بعد ثلاث سنوات وعشرات بلايين الدولارات إرجاع خدمة الكهرباء والماء، مما حدا بأحد العراقيين لأن يقول لإحدى المجلات الأمريكية : لدينا الأنهر وليس لدينا الآن ماء لنشربه، ولدينا البترول وليس عندنا الآن بنزين. هذه هي بركات الديمقراطية والحرية الأمريكية، والتي وصفها الكاتبة الهندية المبدعة أروندهاتي روي بأنها ديمقراطية سريعة الذوبان Instant- Mix Democracy: اشتر واحد وخذ أخرى بالمجان، يتم إيصالها للشعوب كما يتم إيصال البيتزا للبيوت ، ولكن على رؤوس صواريخ الكروز. هذا هو النظام العالمي الجديد الذي بات علينا أن نموت به حباً وشغفاً... أو أن نموت.

من مونرو إلى بوش

يعود الإرث السياسي والعسكري الذي يطبقه بوش حالياً إلى سلفه الأقدم جايملز مونرو، الذي أصدر عام 1823 عقيدته القائمة على تعيين الولايات المتحدة نفسها وصية على مقدرات الأمريكيتين والنصف الغربي من العالم ، مع منحها الحق الكامل بالتدخل . وطبقاً لشهادة دين راسك وزير خارجية كندي أمام الكونغرس الأمريكي، فقد وصلت حالات التدخل التي أقدمت عليها الولايات المتحدة في شؤون الدول الأخرى 102 حالة خلال الفترة من 1798 – 1895.

في عام 1893 ، ضربت أمريكا حالة من الكساد العظيم استمرت معظم سنوات ذلك العقد ، وكان الخروج منها من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية بحاجة إلى الدخول في حرب ، أي حرب ... فالركود العظيم وضع أمريكا في حالة صراع طبقي ، ووضع اقتصادي خانق . وهنا كتب ثيودور روزفلت ، الذي أصبح رئيساً للولايات المتحدة في العقد الأول من القرن العشرين ، إلى صديق له يقول : "أريد أن أسر لك بشيء ... أنا في وضع يجعلني أرحب بأي حرب ... أعتقد أن هذه البلاد بحاجة إلى حرب".

الأمس كاليوم

عندما وجدت الولايات المتحدة بأن ثورتها الصناعية أدت إلى فائض في الإنتاج يحتاج إلى أسواق أجنبية ، قررت سلوك سبل الاستعمار ، فكانت الحرب الأمريكية الإسبانية عام 1898 ، حيث أقدمت أمريكا على غزو كوبا وجزر الكاريبي الأخرى ، واحتلت الفلبين. أما الدوافع السياسية والاقتصادية الحقيقية لاحتلال الفلبين ، فكانت تلك التي عبر عنها بوضوح السيناتور البرت بيفيردج Albert Beveridge ، بتاريخ 9 يناير 1900 ، بالقول : **"سيادة الرئيس ... هذا وقت الصراحة ... لقد أصبحت الفلبين لنا وستبقى كذلك إلى الأبد ... وخلف الفلبين تنتظرنا أسواق الصين اللا محدودة ... ولن نتراجع عن أي منهما ، ولن يتخلى الأمريكيون عن المهمة الملقاة على عاتقهم من السماء ، باعتبارنا أوصياء على الحضارة البشرية باسم الله إلى أين نتجه بحثاً عن مستهلكين للفائض من منتجاتنا ؟ الإجابة في الجغرافيا ... فالصين هي المستهلك الطبيعي لنا ... لقد منحنا الفلبين قاعدة على أبواب الشرق برمته .."**

كما أن بوش لم يكن أول رئيس أمريكي يزور الحقائق في سبيل تبرير الحروب ، أو يستخدم العامل الديني في استنفار التأييد للحرب. وكما كان عليه الحال في استخدام هجمات 11 سبتمبر كمبرر لشن حرب على العراق ، لأسباب سرعان ما ثبت زيفها، فإن الحرب الأمريكية الإسبانية الاستعمارية عام 1898 تم خوضها بناءً على ادعاء بأن العدو هو الذي فجر المدمرة الأمريكية مينين Maine في هافانا - كوبا ، ليتبين من التحقيقات لاحقاً (بعد احتلال كوبا بالطبع) بأن الانفجار الذي تعرضت له المدمرة لم يكن من فعل الإسبان بل كان مرده لأسباب داخلية ، قيل بأنها قد تكون حادثاً فنياً على الأغلب. وهنا يبرز السبب الرئيسي وراء الحرب الأمريكية الإسبانية عام 1898 ، والذي لم يكن انفجار المدمرة ، بل انفجار الثورة الصناعية وحاجة أمريكا لأسواق الشرق الأقصى وبخاصة الصين ، ولتأمين حركة الملاحة البحرية للسفن

الأمريكية إلى تلك المنطقة، بل احتلال الفلبين . وهنا يظهر كيف أن الرئيس مكنللي ، كما هو الحال مع بوش ، ادعى بأنه تحرك بوازع ديني، حاملاً رسالة سماوية تبرر له احتلال أراضي الآخرين وضمها ، وكيف أنه تعرض لإلهام مفاجئ جعله يسارع لضم الفلبين. ومما قاله الرئيس مكنللي أمام مجموعة من زوار البيت الأبيض بهذا الشأن: " أود أن أقول لكم شيئاً حول موضوع الفلبين، فالحقيقة أنني لم أكن أريد الجزر الفلبينية ، وعندما هبطت علينا هدية من السماء ، لم أكن أدري ما أفعل بها ... حاولت الحصول على مشورة الديمقراطيين والجمهوريين ولم أخرج بفائدة تذكر . فكرت في البداية بالاكْتفاء بالعاصمة مانيل **Manila** ثم **Luzon** ، وبعد ذلك قلت في نفسي لم لا نسيطر على باقي الجزر! شغلني هذا الموضوع معظم الليالي ، ولا يراودني أي شعور بالخجل ... إذا قلت لكم أيها السادة بأنني كنت أركع على ركبتَي وأصلي لله العظيم طالباً منه الرشد ، وفعلت ذلك في أكثر من ليلة ، وفي إحدى الليالي جاءني الإلهام... من أين ، لا أدري ولكن هذا ما ألهمني به الله" . ولقد نتج عن الاحتلال الأمريكي أن ذبح الجيش الأمريكي أكثر من 600.000 من أفراد المقاومة الفلبينية.

بعد تلك الرؤيا السماوية التي نزلت على مكنللي ، استدعى الرئيس الأمريكي مهندسي الجيش الأمريكي ، وطلب منهم تغيير الخرائط بشكل تظهر فيه الفلبين جزءاً من أراضي الولايات المتحدة.. وهكذا أصبحت الفلبين تحت الاحتلال الأمريكي ، إلى أن احتلها اليابانيون في الحرب العالمية الثانية بعد ذلك بخمسين سنة، وبقيت القواعد العسكرية الأمريكية في اليابان وألمانيا منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية وحتى يومنا هذا.

أصبح البنتاغون الأكثر نفوذاً في تقرير السياسة الأمريكية في الخارج . ومن ناحية عملية أصبحت مهمة القوات المسلحة الأمريكية هي الاستيلاء على المصادر الطبيعية في الدول المغلوب على أمرها من الإمبراطورية الأمريكية. وقسمت العالم إلى أباطرة عسكريين صغار **Mini – Emperors** من الجنرالات قادة مراكز القيادة العسكرية الأمريكية:

تم توسيع القيادة المركزية الوسطى (**CENCOM**) لتشمل دول نفط أوسط آسيا بالإضافة إلى دول نفط الشرق الأوسط العربي. وتم توسيع مهام القيادة الأوروبية **Eurocommand** لتشمل غرب أفريقيا، لتأمين حقول نيجيريا، حيث ستقوم الولايات المتحدة ببناء قاعدة ضخمة

في جزر ساو تومي Sao Tome حيث هناك عمليات حفر وتطوير لحقول واعدة في المياه بين تلك الجزر ونيجيريا.

وتقوم قيادة الجنوب Southcom بحراسة خطوط النفط التابعة لشركة النفط Occidental في كولومبيا، كما تقوم بمساعدة ميليشيا وطنية لتفويضها بهذه المهمة. وتقوم قيادة الباسيفيك Pacific Command بتوظيف مجموعة من الطرادات العسكرية البحرية لمراقبة خطوط إمدادات النفط في الممر المائي بين ماليزيا وسومترا.

كما أقامت الولايات المتحدة قواعد عسكرية على طول أنابيب النفط الممتدة من أواسط آسيا إلى تركيا حتى قبل البداية في إنشاء الخط، والذي تم استكماله حديثاً . ولإيصال النفط بالأنابيب إلى البحر الأبيض المتوسط، تم التوقيع مؤخراً في نهاية 2004 على مذكرة للسماح ببناء خط أنابيب ينقل البترول من تركيا عبر ألبانيا، ومكدونيا، وبلغاريا، وهو خط Trans - Balkan Pipeline حيث تم إقامة قواعد عسكرية لحماية هذا الخط المستقبلي.

وتم تغيير النظام في أفغانستان بعد فشل إقناع الطالبان بخط UNOCAL لنقل غاز تركمستان كابول إلى كراتشي. كما تم سنة 2004 تكوين "فرقة للتدخل السريع" في كازاخستان لحماية منشآت النفط في بحر قزوين تابعة للقيادة الوسطى.

وهكذا أصبحت القوات المسلحة الأمريكية في الخدمة المباشرة لشركات النفط. بل إن شركة إكسون Exxon قد كونت قوات محلية لحماية منشآتها النفطية وحقول الغاز في إتش Aceh تدفع نفقاتهم، ويقوم أبناء Aceh بتسمية هذا الجيش جيش Exxon ، وهذا ما كانت تفعله شركة الهند الشرقية .

انهيار الإمبراطورية الأمريكية

أصبحت نظرية انهيار الإمبراطورية الأمريكية، وبطريقة فجائية كما انهيار الاتحاد السوفيتي، مقبولة من العديد من الأكاديميين والسياسيين الغربيين أيضاً ، فهذا Eric J. Hobsbawn (أريك جيه هوبسون) يحاضر في جامعة هارفارد بتاريخ 19-10-2005 متنبئاً بالسقوط

الذريع للإمبراطورية الأمريكية ، وكما ورد في صحيفة جامعة هارفارد 20-10-2005 (Harvard Crimson) ، حيث تنبأ بأن الإمبراطورية الأمريكية ستسبب الفوضى (Disorder) والوحشية (Barbarism) بدلاً من السلام والاستقرار ، ومما قاله هوبسون " يكاد يكون من المؤكد سقوط الإمبراطورية الأمريكية ، فهل تتعلم من دروس التاريخ أم نها ستحاول الاحتفاظ بمركزها العالمي الذي يزداد تآكلاً ، معتمدة على قوتها السياسية الفاشلة وقوتها العسكرية التي لا تكفي لتنفيذ أغراض الحكومة الأمريكية الحالية ؟". هوبسون أيضاً هو مؤرخ متميز ، تخرج من جامعة كامبردج سنة 1939 ودرّس في جامعات لندن ، ستانفورد ، MIT ، كورنيل ، وكتابه "عصر التطرف" تمت ترجمته إلى 36 لغة.

سيكون انهيار الإمبراطورية الأمريكية مفاجئاً ؛ لقد خلقت العولمة ما يسمى Interdependencies أي تبادل الاعتماد على الآخر ، فأصبح الاقتصاد الأمريكي رهينة تحويلات خارجية من الصين واليابان ، يمكن أن يؤدي توقفها لسبب أو لآخر إلى انهيار النظام الأمريكي والأسمالي العالمي . كذلك لو كان بمقدور دول النفط تحرير العملة الرسمية لشراء النفط بعيداً عن الدولار لانهار الاقتصاد الأمريكي ومعه الإمبراطورية الأمريكية ، فذلك سلاح دمار شامل ، حيث أن إجبار العالم على شراء الدولار لشراء البترول يعطي مطابع الدولار الأمريكي إمكانية شراء 85 مليون برميل يومياً بسعر $70 \times \$$ / البرميل أي ما يساوي 5.950.000.000 دولار كل يوم وبدون غطاء ... أي بكلفة 5 سنتات لكل مئة دولار يتم طباعتها...! لكن هذا يحتاج إلى اجماع عربي ، في وقت أصبحت الفارقة بيننا قد وصلت إلى ما بين المرء وظله.

سيكون انهيار الإمبراطورية الأمريكية مفاجئاً وسريعاً على غرار انهيار إمبراطوريات شركاته العملاقة، كما انهارت شركة ENRON أو شركة LTCM . شركتنا السيارات العملاقة جنرال موتورز وفورد هما على شفا الانهيار ، ولقد تم تصنيف سنداتها مؤخراً بأدنى الدرجات Junk Bonds في حين أن أرباحهما تأتي من فروعها المالية التي تعمل بالإقراض وأعمال المال الأخرى .

يقول الكاتب الأمريكي Kevin Phillips ، وهو أحد أقطاب الحزب الجمهوري في آخر كتبه (الدولة الدينية) ، "قوة قاندة كالولايات المتحدة هذه الأيام قد أصبحت دولة ثيوقراطية (دينية غير علمانية) ... فرئيس الدولة المنتخب يعتقد أنه يتكلم نيابة عن الله ، والحزب الحاكم يمثل

المتدينين الذين يعتقدون بضرورة تبني الحكومة لشريعة الدين، وعلى رأس ذلك كله هناك البيت الأبيض الذي يتبنى أجندة مبنية على النبوءات الدينية". ويضيف "منذ انتخابات 2000 ، وخصوصاً انتخابات 2004 ، أصبحت ثلاثة أعمدة هي الأساس في السياسة الأمريكية : عقدة النفط وانعكاساته على الأمن القومي والمنتفعون منه ، واليمين الديني المتطرف وقوته الانتخابية المؤثرة والكبيرة، وقطاع المال القائم على الإقراض والديون في الداخل والخارج ...". ويضيف كيفين "ولقد رتبت الولايات المتحدة قوتها العسكرية منذ سبتمبر 11 ، 2001 حول الدفاع عن حقول النفط ، وأنابيبه وخطوط إمداداته البحرية . أما سياسة الولايات المتحدة بالنسبة للشرق الأوسط فتأخذ بعداً آخر إضافة إلى النفط وهو ما يسمى بمحاربة الإرهاب، فالبيت الأبيض يغازل المتدينين والناخبين الذين يرون بأن الأراضي المقدسة – فلسطين – ما هي إلا أراضٍ لمعركة مصير المسيحية. ولذلك فإن المكونين الأساسيين للسياسة الأمريكية في الشرق الأوسط هما النفط والنبوءات الإنجيلية...".

إدارة رائجتها النفط

القابضون على السلطة من وراء ستار في الولايات المتحدة من أصحاب التجمع النفطي الصناعي العسكري، قدّموا لواشنطن والعالم سنة 2000 طاقماً رائجته البترول. فالرئيس جورج دبليو بوش يأتي من إحدى أكبر الولايات التي تنتج البترول في الولايات المتحدة – تكساس – وهو ووالده من أصحاب شركات البترول ، ونائب الرئيس ديك تشيني كان لتوه الرئيس التنفيذي لأكبر شركة لخدمات البترول – هالبرتون - ، ومستشارة الأمن القومي كونداليزا رايس جاءت لتوها من عضوية مجلس إدارة شركة شيفرون تكسسو العملاقة، ولقد دُشنت ناقلة نفط كبرى باسمها . النفط الذي يحرك طائرات B52 ، F16 ، والغواصات الحاملة لصواريخ كروز بدأ بالنضوب داخل الولايات المتحدة.

كان العراق، لولا أعمال المقاومة التي لم يحسب لها الأمريكيون أي حساب في خططهم ، هو الحلقة الأولى من مسلسل التغيرات لدول أخرى بالقوة العسكرية حيناً ، وبالجزرة حيناً آخر. وكانت الخطط تستهدف أصدقاء واشنطن تماماً كما تستهدف أعداءها .

إذا كانت قراءة التاريخ هي أداة لاستقراء الحاضر والمستقبل، فماذا يكون استقراؤنا لأعظم وأعتى قوة في التاريخ بأساطيلها وأسراب طيرانها ، وترساناتها النووية ، وهيمنتها الاقتصادية والسياسية ، وجبروت وكالاتها الاستخبارية الخمس عشرة ، كونها لم تستطع أن تهزم مقاومة مكونة من السنة، وهم حوالي 20% من سكان بلد صغير كالعراق لا يساوي في مجموع سكانه 9% من عدد سكان الولايات المتحدة ، ولا يساوي اقتصاده 3% من حجم الاقتصاد الأمريكي؟ أجاب عن هذا السؤال الكاتب الأمريكي المعروف جيمس رايزن James Risen في كتابه الأخير حالة حرب State of War كان آخر جملة فيه : "تموت الأحلام بصعوبة، وأما أحلام إدارة بوش (الابن) فلقد ماتت في أماكن مثل الفلوجة والرمادي وتل عفار". جواب أوجهه إلى النخبة من "المضبوعين" أو "المنبطحين" ممن يسمون بالنخبة في العالم العربي. ودعنا نذكرهم ناصحين لو نفعت الذكرى بما جاء في الصفحة الرابعة من كتابنا "إمبراطورية الشر الجديدة": "بينما كان حلفاء الإمبراطورية البريطانية العرب يقاتلون الدولة العثمانية إبان الحرب العالمية الأولى، كانت حكومة صاحب الجلالة تخطط سراً لنظام ما بعد الحرب ، نظام دويلات سايكس بيكو. وأعطيت فلسطين ممن لا يملك لمن لا يستحق. وكان حلفاء الإمبراطورية العرب أول الضحايا: فكلام الإمبراطوريات في الليل يحويه النهار. لقد علمنا التاريخ قديمه وحديثه بأن حلفاء الإمبراطورية الجديدة اليوم لن يكونوا أكثر حظاً من حلفاء الأمس، فالיום ينتظر حلفاء الإمبراطورية الجديدة العرب "خريطة طريق" للشرق الأوسط الجديد يرسمها الصهاينة والصهاينة المسيحيون، الذين استولوا على حكم الإمبراطورية الجديدة. وإلى أين ستأخذنا وتأخذهم هذه الخارطة؟ كانت آنئذٍ اسمها اتفاقية سايكس بيكو واليوم فإنها اتفاقية شارون بوش.

فليس للإمبراطوريات أصدقاء ولا صداقات. مات ماركوس في منفاه، وضاعت الأرض بما رحبت بقبر يواري جثمان شاه إيران. جندت الولايات المتحدة ألوف المتطوعين البسطاء ليجاهدوا معها ضد الكفار السوفييت في أفغانستان. وبعد أن قُضي الأمر، أين أصبح هؤلاء؟ منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر في غوانتنامو! ثم أين هو سوهارتو؟ وأما مانويل نوربيغا فلقد بدأ حياته مخبراً ثم عميلاً من الدرجة الممتازة لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية، حيث أوصلته إلى حكم جمهورية بنما. أما اليوم فهو السجين رقم 41586 في أحد سجون ميامي الفيدرالية بولاية فلوريدا".

شعارات الحكم في عهد صدام حسين كانت الحرية، الوحدة، والاشتراكية. وخلال عشرات سنين حكمه لم ينعم العراق لا بالحرية ولا بالوحدة ولا بالاشتراكية. وشعارات النظام الإمبريالي الأمريكي وغزواته الاستباقية كانت الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان. وبعد أكثر من ثلاث سنوات في العراق، وقرن كامل من التدخل الأمريكي في الشؤون العالمية، لم ينعم العراق ، ولا العالم من قبله لا بالحرية ولا بالديمقراطية ولا بحقوق الإنسان والتي تم انتهاكها الآن حتى في عقر الدار الأمريكية.

بول كريغ روبرتس- وهو من أبطال اقتصاد السوق في عهد ريغن كمساعد لوزير الخزانة ، وكاتب عمود في الصحف المحافظة الموافقة دوماً على اقتصاد السوق مثل الـول ستريت جورنال - يقول :” مع أنني لا أستطيع التنبؤ بالمستقبل ، لكنني أستطيع القول بأن هذه الأزمة لا يمكن علاجها بالوصفات التقليدية السابقة، والتي مثلها لن تنجح في إعادة عافية الاقتصاد الأمريكي . فلقد كانت استدانة المستهلكين الأمريكيين من البنوك مصدراً رئيسياً للاستهلاك حتى أصبح هؤلاء المستهلكون غارقين في الديون ، وغير قادرين على الاستدانة ، وكان استهلاك هؤلاء، معتمدين على الدين، هو مصدر النمو للاقتصاد الأمريكي مؤخراً . وبذلك يتم استبعاد السياسة النقدية لأي وسيلة كمعالجة الأزمة . أما المشاريع التنموية للبنية التحتية (كما في الصفقة الجديدة أيام الكساد الكبير) فتحتاج إلى تريليونات الدولارات التي لا نملكها، فمن الذي سيمولها ونحن نعتمد على الاستدانة من الآخرين ؟ كذلك فإن الحجز على المنازل هي بالملايين . أما البطالة ، فإن في الولايات المتحدة 10 ملايين عاطل عن العمل ، لكننا لو قسنا البطالة حسب المقاييس التي كانت سائدة قبل أن يغيرها كلينتون فإنها اليوم بحدود 15%. إذا ما توقف أو قلل الأجانب من شراء سندات خزنتنا ، فليس أمامنا سوى طباعة المزيد من الدولارات”.

الفصل السادس

النظام المارق

عماده الحروب والعبودية والكذب

في كتابه المعنون (الدولة المارقة) يبين الكاتب الأمريكي ويليام بلوم William Blum أن أهداف الإمبراطورية الأمريكية ثلاثة:

- خدمة المال وشركاته وفتح الأسواق لها في أرجاء العالم كافة بتطويع قوانين الدول لتنسجم مع متطلبات تلك الشركات العابرة للقارات باسم العولمة.
- عدم السماح بقيام أي مجتمع يمكن أن يمثل نموذجاً ناجحاً يتنافس مع النظام الرأسمالي الأمريكي، والذي اعتبرته عقيدة بوش الثاني النظام العالمي الصالح لكل الدول والأفراد ولكل زمان ومكان.
- الهيمنة الكاملة على دول العالم بأجمعه لتحقيق الهدفين أعلاه.
- إن الدراسة المتعمقة للتاريخ تظهر أن الرؤساء الأميركيين مارسوا الكذب لدفع الشعب الأميركي للذهاب للحرب. وما إن يستفيق الأميركيون على حقيقة هذه الأكاذيب حتى تكون عملية الاحتجاج على الحرب قد تحولت إلى ممارسة أقرب للخيانة، باعتبار أنه سيكون من غير الوطنية إظهار أي معارضة في وقت يخوض فيه أبناء الوطن القتال بعيداً في الخارج. إنها دائرة شريرة تلك التي أحاقت بالأميركيين وحولت الولايات المتحدة إلى دولة محكومة بشعارات الأمن القومي، على مدار معظم سنوات القرن العشرين، حيث تحول شخص واحد هو مدير مكتب التحقيقات الفيدرالية ج. إدغار هوفر إلى مصدر رعب حتى لرؤساء الولايات المتحدة أنفسهم لأكثر من نصف قرن.
- يحظى رجال المال في نيويورك بأسباب السيطرة على السوق والسياسيين في الوقت ذاته، والمتمثلة في: المال والإعلام والتسويق ، الأمر الذي يجرد الحديث عن الديمقراطية من أي معنى لأنها أضحت ديموقراطية الصوت مقابل الدولار. وباختصار يمكن القول بأن من يملك المال في الولايات المتحدة يملك زمام السياسيين والبلاد بشكل عام.

ويقول شامبرز جونسون Chambers Johnson ، رئيس المعهد الياباني للأبحاث السياسية في كاليفورنيا ومؤلف كتاب "أحزان إمبراطورية : العسكرية والسرية ونهاية الجمهورية"، الصادر في نيويورك عام 2004 ، يقول بأن الولايات المتحدة تميل منذ سنوات طويلة تدريجياً ولكن بثبات باتجاه المشروع الإمبريالي الذي تسعى لتنفيذه تحت مسميات مختلفة إحداها العولمة.

ويضيف جونسون بأن الاحتلال السريع للعراق جاء ليؤكد فقط على صحة الآراء المعارضة للحرب، من أنها كانت "مذبحة فعلية للعراقيين بدون مقاومة تذكر، وبأنها أقرب إلى الاجتياح المغولي لبغداد التي كانت وقتها مهداً للحضارة". ويعتقد شامبرز بأن المشروع الإمبريالي الأمريكي، الذي نصت عليه استراتيجية الأمن القومي، سيعترب عليه أربع عواقب وخيمة رئيسية، هي :

- أولاً : سيعاني العالم من حرب متواصلة ستقود إلى المزيد من الإرهاب ضد الأمريكيين أينما وجدوا ، وانتشار السلاح النووي بين الدول الأصغر، الذي ستجد فيه أحد أسلحة الردع في مواجهة الهجمة الاستعمارية الكاسحة.
- ثانياً : فقدان الديمقراطية والحقوق الدستورية داخل الولايات المتحدة في ظل تجاهل الرئاسة للكونغرس ، وتحولها هي نفسها من سلطة تنفيذية مساوية للسلطة التشريعية إلى حكومة عسكرية متسلطة.
- ثالثاً : غياب الحقيقة التي ستطغى عليها الدعاية وتشويه الحقائق وتمجيد الحروب والسلطة والفيالق العسكرية.
- رابعاً : الإفلاس في ظل إهدار الولايات المتحدة لمواردها الاقتصادية على المزيد من المشاريع العسكرية الضخمة، على حساب الإنفاق على التعليم والصحة وسلامة مواطنيها".

الأمريكيون ضحايا نظامهم كما الآخرون

يشاطر الكثيرون "جونسون" توقعاته بنهاية الإمبراطورية الأمريكية بالطريقة نفسها التي انهار بها الاتحاد السوفياتي ، مادام الذي يحدد السياسة الأمريكية على المستويين المحلي والخارجي هم أرباب الود ستريت وأتباعهم في واشنطن، ممن لا يخوضون الحروب ولا يرسلون أبناءهم إليها. وبدلاً من ذلك يرسلون أبناء فقراء أمريكا ممن يشكلون الأغلبية من الجنود، وبالتالي يقعون ضحايا أكثر من غيرهم وأكثر مما تورده وسائل الإعلام. وهنا لندع الكلام للأرقام : ففي حرب الخليج الأولى عام 1991 بلغ حجم القوات المشاركة في الحرب 696.778 فرداً أغلبهم من الأمريكيين، سقط منهم حسب الإحصائيات الرسمية 148 قتيلاً في ميدان القتال، و 145 في حوادث متفرقة، و 467 مصاباً في أرض المعركة . غير أن هذه الأرقام لا تشكل النهاية . ففي مايو 2002 أوردت إدارة المقاتلين القدامى أرقامها الخاصة للخسائر الأمريكية في الحرب المذكورة، حيث قالت بأن 8306 جنود أمريكيين سقطوا نتيجة أعراض تعرضوا لها أثناء الحرب بينما بلغ عدد المصابين 159705 جنود للأسباب ذاتها. وفوق ذلك وطبقاً لتقرير الإدارة ، فإن حوالي ثلث جيش شوارزكوبف وتحديداً 206.861 جندياً أمريكياً تقدموا بطلبات تعويض أو طلبات للعلاج أو حقوق رعاية

على أساس التعرض للإصابة أو المرض الناجم عن المشاركة في العمليات القتالية في حرب 1991 . أما الشيء الأكثر إثارة في هذا الأمر فهو أن 168011 ممن تقدموا بطلبات كهذه تم تصنيفهم من قبل إدارة المقاتلين القدامى على أنهم يعانون من "إعاقة جسمية أو نفسية".

أما السبب الأكثر احتمالاً لإصابتهم بالإعاقة أو الوفاة، فكان استخدام ذخيرة اليورانيوم المنضب في الحرب المذكورة ، خاصة وأن التقارير الصحية تشير إلى تعاضم حالات الإصابة بالسرطان أو بتشوهات الولادة بين أطفال العراق في الفترة التي تلت الحرب . وكانت القوات الأمريكية قد حولت أرض العراق وشعبها (بمن فيهم الجنود الأمريكيون) إلى مكب مناسب للنفايات النووية، من خلال استخدام اليورانيوم المنضب الناجم عن مخلفات المفاعلات النووية ، حيث تشير الأرقام إلى إطلاق هذه القوات 944 ألف قذيفة مزودة بهذه المادة خلال الحرب المذكورة وحدها ، بل إن البنتاغون اعترفت رسمياً بأن القوات الأمريكية خلفت وراءها 320 طناً مترياً من اليورانيوم المنضب في الميدان. غير أن وزارة الدفاع الأمريكية احتاجت لأكثر من ثلاثة أعوام للاعتراف فعلياً بالأمراض الناجمة عن مشاركة جنودها في حرب الخليج.

يعتقد العديد من الخبراء بأن مغامرات أمريكا العسكرية تحمل في طياتها الهزيمة لأصحابها، وسيكون لها عكس النتائج المتوخاة من الهدف المعلن للمشروع الاستعماري وهو محاربة الإرهاب ونشر الديمقراطية ، وإذا كانت حرب الخليج الأولى قد كلفت 61 مليار دولار، تحملت السعودية والكويت والإمارات العربية المتحدة وألمانيا وكوريا الجنوبية واليابان الجزء الأعظم منها، بحيث لم تتحمل الخزينة الأمريكية سوى سبعة مليارات دولار ، فإن الوضع اختلف تماماً في المغامرة الأمريكية التالية وهي احتلال العراق . فقد تجاوزت كلفة الحرب الجديدة خلال الأشهر الـ 18 الأولى من الاحتلال المفتوح للعراق 200 مليار دولار، دفعت الخزينة الأمريكية 90% منها. وكان العجز الاتحادي قد أصبح يقارب تريليون دولار في عام 2006 وحده.

في كتابه "أحزان إمبراطورية" يتوصل شامبرز جونسون إلى نتيجة مؤداها "أخشى أن تكون الولايات المتحدة عبرت روبيكون (النهر الذي عبره يوليوس قيصر مشعلاً الحرب الأهلية) وبأنه لم يعد هناك من أمل في استعادة الحكومة الدستورية بدون تعريض النظام الديمقراطي الأمريكي لعملية إصلاح ثورية . فبدون عملية الإصلاح التي تطل الجذور والأغصان ، فإن آلهة الانتقام - نيميسيس - بالانتظار وهي تشاهد الولايات المتحدة وهي تسير باتجاهها بخطى ثابتة".

لا أحد اشد عى من أولئك الذين لا يريدون أن يبصروا

تعجّ الولايات الأميركية بأكثر أنواع الاستخبارات تعقيداً في العالم، إلى جانب قدراتها الفائقة على المستوى التقني. وهي لا تملك وكالة استخبارات واحدة، بل إنها تقوم على عدة وكالات للمخابرات التي تعمل على المستويين المحلي والدولي. كما أن هناك أنظمة تعاون وتنسيق غاية في التعقيد تربط ما بينها، وقد أثبتت كلها نجاعتها. ومن بين هذه الوكالات نذكر: وكالة المخابرات المركزية (*Central Intelligence Agency*)، وكالة استخبارات وزارة الدفاع (*Defense Intelligence Agency*)، واستخبارات الجيش (*Army*)، واستخبارات البحرية (*Navy*)، وخدمات استخبارات سلاح الجو (*Air Force Intelligence Services*)، ووكالة الاستخبارات التابعة لوزارة الخارجية، وهو مكتب الاستخبارات والبحث (*The Bureau of Intelligence and Research (INR)*)، واستخبارات مفوضية الطاقة الذرية (*The Atomic Energy Commission Intelligence*)، ومكتب التحقيقات الفيدرالي (*FBI*)، وأخيراً وإن كان ليس آخراً، وكالة الامن القومي (*The NSA*)، وهي كبرى وكالات الاستخبارات الأميركية على الإطلاق. وتعمل وكالة الأمن القومي (*NSA*) بمراقبة كل الاتصالات الخاصة والحكومية في العالم، من خلال تقنيات عالية التطور والتعقيد، حيث تعتبر الذراع الالكتروني الذي يسترق السمع على العالم لحساب الاستخبارات الأميركية. وقد قامت هذه الاستخبارات بتحذير كلينتون من أن سفارة دولة أجنبية معينة كانت تنصت على مكالماته الهاتفية مع مونيكا لوينسكي (*Monica Lewinsky*)، ممّا دفعه إلى الكف عن تلك المكالمات. وعندما أنكر الاتحاد السوفييتي أنه قام بإعطاء الأوامر لإسقاط الطائرة الكورية المدنية، التي كانت تحلق فوق منطقة روسية، قامت وكالة الأمن القومي (*NSA*) بعرض الشريط الصوتي الكامل الذي يحتوي الاتصالات التي دارت بين قائد طائرة الميغ *MiG* الروسية وبين محطة القيادة الأرضية، حيث كانت محطة القيادة تعطي أوامرها للطيار بإطلاق النار على الطائرة المدنية الكورية وإسقاطها.

وحتى في المراحل الأولى من عصر التقاط الصور بالأقمار الصناعية، كان بإمكان وكالة الأمن القومي أن تحصي الدبابات السوفييتية عدداً، ومن خلال تقنية الصور الأولية كان بمقدورهم أن يحددوا جاهزية تلك الآليات للعمل. وتمتلك وكالة الأمن القومي، سفن تجسس في المحيطات، وأقماراً صناعية وطائرات أواكس *AWACS* تجوب أرجاء السماء على مدار الساعة، مغطية كل أنحاء العالم. ويتم اعتراض كل حركات الاتصال من الولايات المتحدة وإليها، كما تصنّف الرسائل التي يتم اعتراضها ومن ثم تُوجّه لمن هم معنيون بها. وفي مقر وكالة المخابرات المركزية *CIA*، ثبت جهاز المقارن *Comparator* على لوح من الجرانيت يزن 7 أطنان، ليجعل آلية عمله الحساسة بمعزل عن اهتزازات المبنى. أما العقل المدبر في مقر

الوكالة في لانجلي *Langley* فهو عبارة عن مزرعة ديسكات كمبيوتر في غرفة تماثل مساحتها مساحة ملعب كرة قدم، إضافة إلى سبع صوامع عملاقة تحتوي كل منها على (6) آلاف شريط كمبيوتر مغناطيسي تقوم الروبوتات بتحميلها. وتتم تغذية عشرات الآلاف من صور الأقمار الصناعية في كمبيوترات فائقة السرعة *Cray 4MP*، والتي تعيد عرض رسوم كرتونية للشوارع والأسواق والبنائيات أو أي شيء آخر ترى الوكالة أو أي من عملياتها ضرورة لمراقبته. وتستطيع وكالات الاستخبارات اقتحام أجهزة الكمبيوتر الشخصية ونسخ المعلومات الموجودة عليها دون الحاجة إلى اقتحامها فعلياً في مواقعها. وباستخدام شعاع صغير غير مرئي يرسل من محوّل على بعد مئات الأمتار من النافذة ، بحيث يتم تضخيم اهتزازات النوافذ وبالتالي تسجيل المحادثات التي تجري داخل الغرف. وهذا جزء لا يذكر إذا ما قورن بالمعجزات التقنية التي لا يتم نشرها على الملأ.

ومع ذلك فقد أعلنت الولايات المتحدة مباشرة بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر، أن رجلاً يعيش في كهف على مبعده عنهم تقدر بنصف محيط الكرة الأرضية هو المسؤول عن هذه الهجمات، وأن هذا الرجل الخارق قد تفوّق على جيوش وكالات الاستخبارات المذكورة في مهاراته وذكائه. وهذا الرجل المزعوم هو أسامة بن لادن، وهو ملياردير من مواليد المملكة العربية السعودية كانت وكالة الاستخبارات المركزية قد أغرته بشن حرب الجهاد المقدس ضد الوجود الشيوعي للاتحاد السوفييتي الذي غزا أفغانستان. ومع أن دوافعه كانت في الواقع تتمثل في الجهاد لتحرير بلد مسلم، إلا أنه من أجل ذلك نسّق نشاطاته مع وكالة المخابرات المركزية *CIA* عن قناعة منه، وليس نظير مكافأة مادية. ولذلك، فقد كان تكوينه النفسي، ومصادره، وإمكاناته التنظيمية وكل شيء عنه معلوماً تماماً لدى الوكالة وأجهزة الاستخبارات الأميركية الأخرى. ولما كانت الوكالة تخرق الأصدقاء والأعداء على حد سواء، فإن من الفرضيات المعقولة والمنطقية أن تنظيم ابن لادن كان مخترقاً تماماً خلال وبعد فترة حكم السوفييت لأفغانستان. ومن المعلوم أن طالبان هي صنعة الاستخبارات الباكستانية التي تتمتع بروابط "خاصة" مهنية وتقنية مع وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية. ومن الأهمية الإشارة إلى أن الاستخبارات الأميركية كان لديها أمر تنفيذي يعود تاريخه إلى زمن إدارة الرئيس كلينتون لمراقبة ابن لادن والقاعدة، وهذا ما يجعل من المستحيل على القاعدة أن تخفي عن أعين الاستخبارات الأميركية عملية بحجم عملية الحادي عشر من سبتمبر. أفصح الديمقراطيون في مايو 2002 عن حقائق حول توجيه الاستخبارات الأميركية تحذيرات متتالية قبل الحادي عشر من سبتمبر بهجوم وشيك سيؤيد هذه الفرضية. وحتى مبنى مركز التجارة العالمي كان قد تم ذكره تحديداً وبالاسم كهدف محتمل.

قال البروفيسور أوجست براديتو (August Pradetto) من جامعة العلوم العسكرية الألمانية في مقابلة أجرتها معه صحيفة دي فيلت *Die Welt* اليومية يوم التاسع عشر من سبتمبر، قال: "إن عملية بحجم ما وقع يوم 11 سبتمبر تحتاج على الأقل سنة كاملة من التحضيرات التي لم يكن لها أن تُدبر أنياً من على متن الطائرات". ويضيف براديتو (Pradetto): "ويعرب البروفيسور براديتو (Pradetto) عن اعتقاده أن أحداث 11 سبتمبر ما كان لها أن تتم من دون مساهمة فاعلة من وكالة استخبارات بالغة التطور والتقدم في بلد "قد يكون هدفه جرّ حلف شمال الأطلسي (الناتو NATO) إلى حرب ضد العالم الإسلامي...".

في مصر: في مقابلة له مع شبكة الكوابل الأميركية *CNN* بعد أيام من هجمات 11 سبتمبر، قال الرئيس المصري حسني مبارك إنه كان طياراً محترفاً وقاد كل أنواع الطائرات المقاتلة وطائرات الشحن، وبصفته ضابطاً سابقاً في سلاح الجو، فإنه يؤمن بأن أولئك الذين قادوا الطائرات ونفذوا الهجمات كانوا على مستوى عالٍ من الخبرة، ولم يكونوا على علم فقط بالمنطقة التي تقع فيها أهدافهم، بل لا بد وأنهم قد حلّقوا في سماء تلك المنطقة من قبل مرات عدة. وقد كشف النقاب فيما بعد عن أن المخابرات المصرية كانت قد حذرت الولايات المتحدة من أن متطرفين قد يقومون بتحطيم طائرة في إحدى المباني، وكان ذلك التحذير قد وجه للحكومة الأميركية في منتصف تموز من عام 2001. وبعيد ذلك، صرح مبارك من جديد لصحيفة نيويورك تايمز في الخامس من يونيو 2002 أن مصر قد حذرت وأخبرت الولايات المتحدة باحتمالية كبيرة لوقوع هجمات ضد الولايات المتحدة قبل الحادي عشر من سبتمبر.

إن تلك الطائرات المخطوفة لم تكن لتتمكن من الهروب من الرقابة الصارمة التي تفرضها قيادة دفاع شمال أميركا (North American Defense Command) (NORAD)، لاسيما وأن أحد طياري الطائرات المخطوفة قد اتصل بوكالة الطيران الاتحادية (FAA) ليخبرها بأن تلك الطائرة مخطوفة.

في إسرائيل: أوردت نشرة (I&P Strategic Update) ثلاثة سياقات محتملة للمؤامرة التي دبرت الهجمات. أول هذه السياقات أن منفذي الهجمات هم "إرهابيون عرب"، والثاني هو أنهم قد يكونون عبارة عن "دولة محرّضة موالية لأميركا، مثل إسرائيل، والتي ترغب في جرّ الولايات المتحدة وكل العالم إلى حرب صليبية ضد المسلمين". أما السيناريو الثالث فهو يتمحور حول عصابة أميركية يمينية تضم سياسيين وعسكريين وتستخدم رجالاً متعصبين، سواء أكانوا عرباً أم من رجال الميليشيات البيض".

■ أورد تقرير من مكتبة الكونغرس في سبتمبر 1999 أن "مفجرين انتحاريين" قد "يحطمون – أي يهبطون بطائرة ... في مبنى البنتاغون"

■ وقبيل أحداث الحادي عشر من سبتمبر، أصدرت وكالة الطيران الاتحادية *FAA* تحذيرات عدة حول عمليات اختطاف طائرات وشبكة داخل الولايات المتحدة وقد ذكرت اسم أسامة بن لادن تحديداً كمشتبه به.

■ 28 يونيو 2001:

صرح مدير الاستخبارات المركزية *CIA* جورج تينيت (*George Tenet*) إلى مستشارة الأمن القومي (*NSA*) للرئيس بوش "أن من المرجح جداً حصول هجمات من تنظيم القاعدة في المستقبل القريب."

■ 5 يوليو 2001:

حذر مسؤولو مكافحة الإرهاب كلاً من مكتب التحقيقات الفيدرالي *FBI*، ووكالة الطيران الاتحادية (*FAA*) ومستشارة الأمن القومي (*NSA*) وغيرهم من أن هجوماً ضخماً على الولايات المتحدة سيقع قريباً جداً.

■ 10 يوليو 2001:

حذر عميل من مكتب التحقيقات الفيدرالي *FBI* في فينيكس (*Phoenix*) أريزونا (*Arizona*) من أن أعداداً كبيرة وغير اعتيادية من مواطني الشرق الأوسط يلتحقون بمدارس الطيران، وأنه يشتبه في كونهم عناصر في شبكة أسامة بن لادن.

■ منتصف يوليو 2001:

سلمت الحكومة المصرية للاستخبارات الأميركية خطة لما أسمته "إرهابيين مسلمين" لتحطيم طائرة في أحد المباني في الولايات المتحدة الأميركية.

■ 6 أغسطس 2001:

أطلع الرئيس بوش في مزرعته بولاية تكساس على خطة هجمات محتملة ضد الولايات المتحدة باستخدام طائرات مخطوفة، حيث تم ربط ابن لادن وشبكتة بهذه الهجمات المحتملة.

■ 17 أغسطس 2001:

قبل أيام من وقوع هجمات 11 سبتمبر، حذر عميل من مكتب التحقيقات الفيدرالي *FBI* من أن زكريا موسوي في إطار التخطيط "للتحقيق بشيء ما والاصطدام به في مركز التجارة العالمي". وكان هذا التحذير مبنياً على أساس أقوال صدرت عن مدربي موسوي في مدرسة الطيران التي كان ملتحقاً بها، وقد تم اعتقال موسوي بناء على ذلك قبل أحداث سبتمبر بأسابيع.

■ 9 سبتمبر 2001:

كان في حوزة مستشارة الأمن القومي (NSA) توجيهات عسكرية جاهزة وضعتها على مكتب الرئيس قبل يومين من وقوع الهجمات. وكانت هذه هي المخطط نفسه الذي استخدم بعد الحادي عشر من سبتمبر للهجوم على أفغانستان مع دعم رئيس من حلف الشمال.

بيرل هاربر Pearl Harbor – الوجه الآخر للحكاية

بعد عام من بداية حرب الخليج عام 1991 ضد العراق، كان مؤلف هذا الكتاب في رحلة جوية إلى اسطنبول لقضاء إجازة مع العائلة، وعلى متن الطائرة ذاتها في الخامس من يناير عام 1992 كان دونالد فان إيتن (Donald Van Etten) في طريقه أيضاً لقضاء إجازة في تركيا. وقد سألني عن شعوري حيال حرب الخليج، وأعربت عن اعتقادي باستحالة ألا تستطيع الولايات المتحدة "رؤية" 100 ألف جندي عراقي يزحفون بأرتال من الدبابات تزيد على 5000 دبابة ومركبة وهم يتجهون نحو الكويت. وكان لدى الولايات المتحدة من الإمكانيات البشرية والالكترونية وغيرها ما يمكنها من معرفة ساعة الصفر لبدء الغزو وإجهاضه قبل بدئه لو كانت معنية بالحيلولة دون وقوعه. وعلى النقيض من ذلك، فإن سفيرة أميركا لدى بغداد ضللت القيادة العراقية عن سبق إصرار وتصميم، وأعلنت أن بلادها تعتبر الخلاف العراقي الكويتي خلافاً عربياً عربياً ولا تزمع التدخل فيه. وغادرت السفارة بغداد إلى واشنطن قبل أسبوع من بداية الغزو حيث بقيت هناك. وكانت حرب الخليج في رأيي استهلالاً للنظام العالمي الجديد للسيطرة على النفط العالمي الذي كان على رأس أولويات أجندة النظام الجديد.

وأجاب فان إيتن (Van Etten) أستاذ التاريخ في جامعات كاليفورنيا بأن افتراضي قد يكون صحيحاً إذا ما رأت الولايات المتحدة أن هذا النزاع يخدم مصالحها. واستطرد قائلاً بأنه وضع دراسة يوضح فيها ليس فقط أن الولايات المتحدة علمت بمعركة بيرل هاربر (Pearl Harbor) قبل وقوعها، والتي هاجم بها اليابانيون ميناء بيرل هاربر، بل إنها أرادت أن تقع ومهدت لها. وأدت استفزازات أميركية معينة توختها أميركا إلى تأزيم الموقف وتسريع الهجوم على بيرل هاربر لإيجاد المسوغ أمام أميركا لدخول الحرب العالمية الثانية. وقد طلبت منه هذه الدراسة والسماح لي بنشرها في هذا الكتاب، وفيما يلي بعض مما جاء فيها (أما النص الكامل فيمكن قراءته في نذر العولمة الفصل التاسع)

"كنا نجلس كالبط العائم على وجه الماء" (كناية عن كونهم مكشوفين ومعرضين للهجوم) ... هذا ما قاله أحد الناجين في معركة بيرل هاربر، واصفاً الشعور العام للجنود البحارة على متن السفن المربوطة بإحكام على مقربة من فورد أيلاند (Ford Island) في ديسمبر من عام 1941. ولم يسمح لهؤلاء

البحارة وسفنهم بالبحث عن ملجأ على الساحل الغربي أو حتى الاختباء في المحيط مترامي الأطراف. وقد فرض عليهم البقاء في بيرل هاربر حيث يشكلون أهدافاً للعدو يسيل لها اللعاب.

أما الحقائق التي لم يعرفها هؤلاء فهي أنهم نُقلوا أو سيقوا إلى هذا المكان ووضِعوا في المصيدة، دون أن يتطوعوا لأداء هذا الواجب الذي كلفهم حياتهم من أجل الحفاظ على المجتمع الذي يقومون على خدمته، والذي حرمهم حقوقهم الشرعية. لقد كان رجال الحربية في جزر هاواي أبرياء من أية جريمة تتعلق بعدم الاستعداد للحرب لأنهم كانوا يجهلون الظروف كافة التي سبقت الهجوم. أما الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفيلت (*Franklin Roosevelt*) فلم يكن جاهلاً بهذه الظروف وبالتالي لم يكن بريئاً من تبعاتها...

ولم يكن الرئيس فرانكلين ديلاانو روزفيلت يعلم بأن الهجوم على بيرل هاربر وشيك فحسب، بل إنه تعدد أن يؤزم الموقف ويزيده تعقيداً، إذ إنه بدون مناورات روزفيلت الميكافيلية، ما كان لهجوم السابع من كانون الأول ديسمبر 1941 الذي شنّه اليابانيون على بيرل هاربر أن يقع. فلماذا فعل معارضو روزفيلت ذلك إذًا؟ لأنه رأى الصورة الأشمل والأعم لمجريات الحرب وكأنها غير منظورة لدى معارضي اشتراك الولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية. لقد رأى ما لم يتمكنوا من رؤيته، وظن أنه ما لم يخض غمار هذه الحرب في أسرع وقت ممكن إلى جانب الحلفاء؛ فإن كل شيء قد يضيع هباءً. هذه هي المقدمة المنطقية الرئيسة لمقولة إن بيرل هاربر كانت عملية مخططاً لها سلفاً حيث إن المعلومات المقدمة في هذا المقال لم تكن اختراعاً جديداً، بل إن الواقع يشير إلى أن الدليل كان معروفاً تماماً وعلى درجة عالية من الوضوح. وربما يكون القول الأمريكي المأثور أن لا أحد أشد عمى من أولئك الذين لا يريدون أن يبصروا، خير تفسير لقصر وجهة نظر الأميركيين حيال بيرل هاربر. أما لو نظرنا إلى الأمر من زاوية مختلفة فسيكون صعباً علينا التخلص من النتائج.

المقدمة الأولى: كان على الولايات المتحدة أن تدخل الحرب كشريك ملتزم فعلاً فيها بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وبخلاف ذلك فإن الفوز في الحرب العالمية الثانية سيكون من نصيب دول المحور.

شهد عام 1940 سيطرة أدولف هتلر (*Adolph Hitler*) الكاملة على أوروبا، وكان إخفاقه في احتلال مدينتي موسكو وليننغراد، وعجز الألمان عن تنفيذ عملية أسد البحر لغزو إنجلترا، سبباً في إلقاء الظلال القاتمة على الصورة اللامعة للعظمة الألمانية. وقد توقع الكثيرون أن يحل التدمير لا محالة بالقوة

الشيوعية في روسيا، على الرغم من قانون الإعارة والتأجير الذي أصدرته الولايات المتحدة عام 1941، وقدمت بموجبه المساعدات المادية إلى الدول الحليفة في حربها ضد دول المحور.

إن سيطرة اليابان على مواطن الثروة في منشوريا والمساحات الشاسعة من الصين التي باتت تحت نفوذ الجنود اليابانيين. مضافاً إليها التوسع في جنوب شرق آسيا وما تبعه من سهولة الوصول إلى نفط شركة الهند الشرقية الهولندية، كلها كانت عوامل رئيسة في جعل وضع اليابان الآسيوي عام 1941 في ذورته.

المقدمة الثانية: أن المعارضة السياسية لدخول أميركا معترك الحرب العالمية الثانية كان ممكناً التغلب عليها من خلال هجوم عنيف وحشي ضد الولايات المتحدة.

وقد سبق للرئيس روزفيلت أن أعلن خلال حملته الرئاسية يوم 30 أكتوبر تشرين الأول عام 1940 "إن أولادنا لن يذهبوا ولن يزج بهم في أية حروب أجنبية، وبالطبع إذا هوجمنا فإننا سنقاتل، وإذا قام أحدهم بمهاجمتنا فلن تكون عندها حرباً أجنبية... أليس كذلك؟"

... شرح تشارلز ليندبرغ (Charles Lindbergh) بأسلوب مترابط منسق، الموقف المعارض للحرب في أوساط المؤسسة الأميركية، فمعارضة الكونغرس جعلت من الصعب تمرير قانوني الإعارة والتأجير، والخدمة العسكرية الإلزامية.

وبذلك لم يكن أي شيء لينقذ الرئيس فرانكلين روزفيلت سوى الهجوم على الأميركيين، فهو الذي سيعطيه موقفاً أخلاقياً هو الدفاع عن النفس لإسكات منتقديه وتوحيد البلاد تجاه هذه الحرب.

المقدمة الثالثة: كان ينبغي لليابان أن تكون هي الطرف المبادر بالهجوم على أميركا، فقد رفض هتلر التحدي الأميركي في المحيط الأطلسي. ولم تفلح الاستفزازات الأميركية، مثل الأعمال العسكرية الفعلية، بتوجيه سفن الحراسة البحرية في قوافل نحو أيسلندا والاحتلال العسكري لها، والسفن التجارية المسلحة والهجوم على الغواصات الألمانية، كل هذه العمليات، لم تفلح في توليد رد فعل ألماني على أميركا. وبذلك رفضت ألمانيا الاستفزازات ولم تعلن الحرب، فكان على أميركا أن تستفز اليابان لدخول الحرب بدلاً من ذلك.

وكخطوة أولى في ذلك الاستفزاز، فرض روزفيلت عقوبات اقتصادية على اليابان باعتبارها رداً على عدوان الجيش الياباني على الصين، ولم تعتبر استفزازاً ولكنها في حقيقة الأمر كانت كذلك، وأتبع ذلك بمقاطعة وحظر على الحديد ثم النفط ثم تجميد الأرصادة والموجودات اليابانية في الولايات المتحدة. وقد أوجدت هذه الممارسات رد فعل فورياً واضحاً ومنطقياً، فأصبح ضرورياً أن تحصل اليابان على النفط من مكان آخر وهو شركة الأنديز الهولندية، الأمر الذي يعني إعلان الحرب.

وكان السفير الياباني لدى الولايات المتحدة الأدميرال كيشي سابورو نومورا (*Kichi Saburo Nomura*) قد تلقى تعليمات من حكومته في السابع عشر من نوفمبر تشرين الثاني عام 1941 بالتفاوض مع وزير الخارجية الأميركي كورديل هول (*Cordell Hull*) في مسعى يرمي إلى حل العضلات القائمة بين البلدين وعودة أميركا إلى شحن النفط إلى اليابان. وبدأ أن الإنذار النهائي الذي وجهه هول يوم السادس والعشرين من نوفمبر تشرين الثاني عام 1941 قد صيغ بطريقة لا تدع لليابانيين أية فرصة لخيار مشرف لحفظ ماء وجههم سوى الاعتداء.

كتب وليام راندولف هيست (*William Randolph Heast*) في الثالث من ديسمبر 1941: "إن اليابان لا تهدد أميركا بل إن الولايات المتحدة هي التي تهدد اليابان." أما هنري إل ستيمسون (*Henry L. Stimson*) وزير الخارجية الأميركي فقد كتب في الخامس والعشرين من نوفمبر عام 1941 قائلاً: "إن المسألة تتلخص في كيفية مناورتنا لهم (اليابان) لكي نجرهم إلى موقع إطلاق الرصاصة الأولى."

لقد برهنا على الدوافع التي حثت روزفيلت على القيام بما فعله، فقد أدرك أن الحلفاء سيخسرون الحرب دون مشاركة أميركا، حيث تطلبت المعارضة السياسية هجوماً يسكت المعارضين ويوحد الأمة ويخلق رغبة في الفوز والانتصار، واستهدفت اليابان كونها محدودة المصادر ومتشعبة الالتزامات العسكرية.

لقد كان موقف أميركا عام 1941 واضحاً، تماماً كما كان موقف اليابان، فقد كانت الأخيرة بزعامة الإمبراطور هيروهيتو (*Hiro Hito*) تستطيع إما أن تخطو إلى الأمام في شرف وإباء، وإما أن تتراجع مجللة بالخزي والعار. ولقد اختاروا المضي قدماً يوم التاسع والعشرين من نوفمبر من عام 1941 متجهين شرقاً نحو هاواي *Hawaii*.

وكان روزفيلت يعلم أن هجوماً سيقع لأنه كان يريد هذا الهجوم حتى يتسلح بذريعة الدفاع عن النفس، وما توفره من ميزات أخلاقية ذات أسس راسخة، كما أنه كان على علم بأنه لم يعد لليابان من خيار سوى

الهجوم، لا سيما أن المفاوضات من أجل استئناف شحن النفط إلى اليابان لم تفض إلى نتيجة. وبذلك يكون قد دفع اليابان إلى أكثر مما يسمح به كبرياؤهم الوطني وعزتهم. إلى ذلك كان على روزفيلت أن يعرف الهدف، لأنه ببساطة لم يكن هناك منطقياً أي مكان آخر لشن هجوم عليه. يقول الميجر جنرال جورج سترونغ (George V. Strong): "في أي مكان وجد فيه الأسطول كانت خطورة التعرض للهجوم تتزايد، وكان بيرل هاربر (Pearl Harbor) هو الهدف الوحيد الممكن لأن الأسطول كان موجوداً فيه."

ومن العوامل الأخرى التي توحى باختيار بيرل هاربر هدفاً للهجوم، استعدادات البحرية الأميركية منذ عام 1924 لخوض حرب مع اليابان، حيث كانت "عملية البرتقال" (Operation Orange) هي خطة البحرية للمواجهة والتعامل مع هجوم ياباني على بيرل هاربر. وفي عام 1932، استخدم الأدميرال هاري يارنيل (Harry E. Yarnell) وأثناء تأديته دور اليابان في تدريبات عملية البرتقال، طائرات أقلعت من حاملتي الطائرات الأميركيتين ليكسنغتون USS Lexington وساراتوغا USS Saratoga لتقوم بنجاح بقصف ميناء بيرل هاربر بالقنابل، علماً بأن المراقبين اليابانيين كانوا موجودين خلال العرض، عندما واجه الأسطول ما سمي بالمشكلة 19 للأسطول Fleet Problem XIX عام 1938. وقد فعل الأدميرال الكونغ الشيء ذاته في تمرين مماثل لسابقه. لم يكن هناك ثمة عدو آخر متوقع ولا هدف آخر.

ومنذ العام 1937 بات مطلوباً من خريجي الأكاديمية البحرية اليابانية أن يكتبوا بحثاً عن "كيفية تنفيذ هجوم على بيرل هاربر".

هناك عاملان آخران جديران بالذكر. فقد أعفى الأدميرال جيمس ريتشاردسون (James O. Richardson) من منصبه في الأول من فبراير شباط 1941 كقائد للأسطول الأميركي في المحيط الهادي، بعد ثلاثة عشر شهراً من توليه ذلك المنصب بسبب إصراره على تحريك الأسطول من بيرل هاربر إلى ساحل المحيط الهادي لضمان مزيد من الأمن. وقد خلفه الأدميرال كيميل (Admiral Kimmel) الذي "خاطر" بإبقاء الأسطول في بيرل هاربر.

ولما كان روزفيلت على علم بأن الهجوم واقع لا محالة وعلى الهدف الوحيد المحتمل له، فقد تبقى عليه أن يجيب عن سؤال واحد فقط هو متى يحتمل وقوع الهجوم؟ إن تصاعد التوتر في المنطقة والناجم عن عوامل عديدة، منها الإنذار النهائي ذو النقاط العشر الذي وجهه هول إلى نومورا والتغييرات في الحكومة

اليابانية، واختفاء أسطول حاملات الطائرات الياباني بعد 1941/12/2، إلى جانب السكوت التام لأجهزة اللاسلكي والراديو، والتلميح الصادر في إبريل 1941، مشيراً إلى احتمال وقوع الهجوم في "عطلة نهاية الأسبوع أو عطلة أخرى"، والمعرفة بالتاريخ العسكري الياباني، كل هذه عوامل أظهرت دلالة واضحة على أن اليابانيين قد يقومون بهجومهم بصورة مباغتة ومن ثم يعلنون الحرب في الوقت ذاته .

كانت المخابرات الأميركية قد تمكنت من فك رموز الشيفرة الدبلوماسية اليابانية (*the Japanese Diplomatic Purple Code*) وبذلك أصبح روزفيلت على علم برد اليابان على إنذار هول، إلى جانب معرفته بأن الحكومة اليابانية طلبت من سفارتها في واشنطن أن تدمر كل ما لديها من وسائل وأدوات الكتابة السرية "الشيفرة"، وأن تسلم إلى وزير الخارجية رسالة في موعد أقصاه الساعة الواحدة من بعد الظهر بتوقيت واشنطن من السابع من ديسمبر 1941. وعن ذلك قال روزفيلت يوم السبت 1941/12/6: "إن هذا يعني الحرب"، غير أنه لم يفعل شيئاً إزاء ذلك.

أما الخلاصة التي لا مفر منها فهي أنه كان على فرانكلين روزفيلت أن يعلم بأن الهجوم على بيرل هاربر واقع لا محالة. وهو ما ستثبته الدلائل الظرفية في نهاية الأمر، وهنا نعيد ترتيب مراحل السيناريو على النحو التالي:

تجد أميركا نفسها مضطرة لدخول معترك الحرب العالمية الثانية، ومن أجل أن تتمكن من ذلك، وتلتف على المعارضة السياسية لدخول أميركا الحرب، ولتكتسب توحيد البلاد، بات لازماً أن تتعرض الولايات المتحدة إلى هجوم. اليابان هي البلد الوحيد الذي يمكن أن يكون المهاجم وهو قادر على ذلك. ثم توفير الحافز لليابان لتنهض بهذه المهمة، حيث تمثل ذلك الدافع في توفير الهدف والفرصة، كما أحسن روزفيلت تهيئة الظروف التي ستؤدي إلى شن الهجوم، حيث أعد ترتيباته لجعل الهدف مثبتاً بكل وضوح في ميناء بيرل هاربر، لذا فلا يعقل أن يكون قد غفل عن الموعد الذي سينطلق فيه الهجوم..."

إن هذه المزاعم تنطوي على تشابه صارخ مع تلك التي تروج لنظرية المؤامرة التي أدت إلى أحداث 11 سبتمبر.

" قبل أقل من ستة شهور (سنة 1997) كان النظام المالي العالمي على شفير الهاوية ، وكان ذلك النظام لا يبعد سوى أيام قليلة عن الانهيار التام . وحقيقة الأمر أن اقتصادات كثيرة من الدول النامية قاست هبوطات حادة كما لم يحصل إلا أيام الكساد العظيم . ولقد أصاب البؤس شعوب بلدان مثل اندونيسيا وتايلند . ولكن تلك الشعوب بعيدة جداً عنا ثم ان اقتصادات دول المركز – الولايات المتحدة وأوروبا – قد استفادت من مصائبهم ... وذلك بتدني أسعار المواد الخام وكذلك انخفاض أسعار المستوردات الأجنبية من تلك البلدان التي وقعت ضحية الانهيار الاقتصادي... ولنقولها بصراحة: هناك خياران أمامنا فإما أن نصح وننظم قوى الأسواق العالمية عن طريق عمل عالمي ، وإلا فالخيار الثاني سيدفع الدول لتصبح صمامات أمان تسمح بدخول المال العالمي وتمنع خروجه ... إن هناك حاجة ملحة بإعادة التفكير وإصلاح النظام الرأسمالي العالمي ... وإني أخشى أن تؤدي النتائج السياسية الناتجة عن الأزمات المالية الأخيرة إلى انهيار النظام الرأسمالي برمته " (المضارب العالمي جورج سورس ، من كتابه أزمة الرأسمالية العالمية)

"تختلف المفاهيم الإسلامية عن الرأسمالية في أنها تعارض كنز الثروات، وعن الاشتراكية من حيث أنها لا تنكر حقوق الملكية، بما فيها ملكية وسائل الإنتاج. فالمجتمع الإسلامي الصحيح ليس بأي حال من الأحوال حلبة تتصارع فيها المصالح المختلفة وتتناحر، بل إنه مكان تسوده العلاقات المنسجمة التي يمكن تحقيقها والوصول إليها من خلال الإحساس بالمسؤوليات المشتركة. ولا بد لحقوق الأفراد أن تكون متوازنة مع مصالح المجتمع بأكمله على نحو متساوٍ"

منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية

Organization for Economic Cooperation and Development

الفصل السابع

أمريكا والعالم ...

إلى أين؟؟

لم تكن أجندة فترة ولاية جورج دبليو بوش جنوحاً لشخص حلم بالليل وأدار حلمه بالنهار ليصبح حقيقة . كانت أجندته هي أجندة المؤسسة الحقيقية الدائمة التي أتت به وتأتي بمثله من الرؤساء وتذهب بهم متى تشاء. ولعل أحد قراء الكاتب الإسرائيلي يوري افنيري قد أصاب حينما كتب له يقول : سوف يستبدل الصهاينة من المحافظين الجدد ، بصهاينة آخرين من صهاينة بيل كلينتون عند قدوم باراك أوباما . وليس عجباً أنه لم يكن أول تعيين له لرئاسة أركان البيت الأبيض فقط لصهيوني بل كان لإسرائيلي خدم في جيش إسرائيل وحمل والده السلاح في عهد الانتداب البريطاني مع المنظمة الإرهابية ETZL وشارك في مذبة دير ياسين . قبل قدوم المحافظين الجدد أيام بوش ، كانت الإدارة الأمريكية أيام كلنتون تعج بالصهاينة في كل حذب وصوب . كان وزير ماليته روبرت روبن من الناس أنفسهم ومن كبرى مؤسسات وول ستريت المالية – غولدمان ساكس ، وكان وزير مالية بوش من الناس إياهم أيضاً، ومن تلك المؤسسة المالية نفسها، غولدمان ساكس ! يا للصدفة! أم هل هي صدفة ؟ كان مستشار الأمن القومي ، ورئيس المخابرات المركزية الأمريكية ، ووزير الدفاع ، ووزيرة الخارجية منهم أنفسهم . كان معظم السفراء في الدول العالمية الهامة من الفئة نفسها ، بمن فيهم السفير الأمريكي في مصر وإسرائيل ! هؤلاء صهاينة كلينتون وهم أنفسهم صهاينة أوباما.

إن لنا أمام شخصية هذا الرئيس وذاك ، فهناك فئة قليلة قد استولت على زمام الأمور منذ أمد بعيد ودمجت نفوذها المالي والإعلامي لتهيمن على أقوى دولة في التاريخ . إن محاولة شخصية المشاكل بهذا الرئيس أو ذاك ما هي إلا لعبة أتقنها هؤلاء القابضون على السلطة الدائمة والحقيقية في الولايات المتحدة . ولربما أرادت المؤسسات الداعمة لأوباما أن يواجه أيام أمريكا السوداء القادمة رجل أسود يحافظ على ولاء الملونين والسود، وهم الذين سيكونون أول وأكبر ضحايا الـ وول ستريت . للمرة الأولى في التاريخ قام الرئيس روزفيلت بتعيين أفارقة أمريكيين في الصف الثاني من وزارته، ولذلك أسمى البعض وزارته بالوزارة السوداء، وكان هدفه المحافظة على ولاء السود أثناء الكساد العظيم.

بوش هرب من فقاعةٍ إلى أخرى أكبر منها

إن التغيرات التي حصلت في عهد دبلو بوش كانت عميقة مضت كلها في محاولة الهروب إلى الأمام بفقاعة اقتصاد بني على الأوهام والأكاذيب ، وكانت النتيجة أن تم بناء فقاعة أكبر وجاء الأجل المحتوم. كتب Robert Samuelson في نيوزويك عدد Nov. 10. 2008 صفحة 50 "ويبدو أن الاقتصاد الأمريكي قد وصل إلى مرحلة تاريخية أصبح فيه سلوك الاقتصاد في الماضي لا ينطبق بالضرورة على المستقبل. لقد استولت الحكومة على شركات الرهونات العقارية Fannie Mae و Freddie Mac ، واستثمرت وزارة المالية في العديد من البنوك الرئيسية . ويضخ البنك المركزي 1000 بليون دولار لوقف تراجع الأسواق ، والبطالة في ارتفاع . أغلب الظن أن عهد الرخاء بلا حدود قد ولى عهده ، وأن حقبة اقتصادية جديدة ستمر بها الولايات المتحدة " . ويصل Samuelson إلى النتيجة " مع الأسف فإن نمواً أبطأ هو ما سنتسم به الحقبة الأمريكية الجديدة ، وعلى الرئيس الأمريكي الجديد (بعد جورج بوش) وعلى الجميع كذلك أن يتفهموا أن هذه الأزمة الاقتصادية سيتبعها عهد اقتصادي جديد".

قصة سيتي غروب Citigroup هي قصة أمريكا :

دي وأكاديمي الولايات المتحدة بمن فيهم جيفري غارتن ، بأن الإجراءات التي الكثيرون من اقتصا يعتقد الغربية عموماً ، والأمريكية خصوصاً ما زالت غير كافية إذ أنهم يرون أن هذه الأزمة اتخذتها الحكوات تتعمق يوماً بعد يوم وبشكل دراماتيكي وخطير . ولعل الحقائق والأرقام تساند صحة ما وصل إليه هؤلاء . Merrill كانت بداية حزم "الإنقاذ" الجمبو من العيار الكبير قد بدأت في سبتمبر 2008 لشركة ميريل لينش والتي بدأت AIG بقيمة \$38 مليار كانت الأضخم لتاريخه . ثم جاءت خطة إنقاذ شركة أي جي Lynch برقم متواضع نسبياً في سبتمبر 2008 إلى أن ارتفعت إلى \$123 خلال شهر أكتوبر ! ثم جاءت كارثة لتنفجر في الأسبوع الثالث من نوفمبر 2008. وقد تصل فاتورة الإنقاذ لهذا البنك Citigroup سيتي غروب إلى \$326 مليار دولار ! ولا يعرف أحد من هي الشركة الأخرى أو الشركات التي تحتاج إلى إنقاذ ، بل إن كانت رُزَم الإنقاذ لتاريخه حتى لتلك الشركات كافية لإنقاذها.

“هناك أربعة أو خمسة من بنوك نيويورك تتحكم بتجارة الأسهم ، أكبرها سيتي غروب Citigroup ، ومورغان تيشيز، وتملك هذه البنوك تأثيراً هائلاً على النظام المالي العالمي، وفي حالة انهيارها كما حصل مع LTCM ، سينهار النظام المالي العالمي برمته.“

عن كتاب حروب البترول الصليبية الصادر سنة 2005

بالرغم من ضخامة مشاكل الاقتصاد الأمريكي فلقد تحسن وضع الدولار عن بقية العملات لأن قراءة بارونات المال العالمي بأنه ما زال أفضل من العملات العالمية الأخرى لأن اقتصاداتها قد تكون في ورطة أشد وأعنف من ورطة الاقتصاد الأمريكي على ضخامتها وخطورتها . والغريب أن هناك تدفقاً لشراء سندات الخزينة الأمريكية قصيرة أو متوسطة المدى (3 سنين) حتى بفائدة صفر مئوية – الأمر الذي له دلالاته على تقدير بارونات المال للأوضاع الاقتصادية الأخرى في الرأسمالية الغربية خصوصاً غرب أوروبا. هذا في نفس الوقت الذي يرى فيه هؤلاء الاقتصاديون والأكاديميون بأن على الولايات المتحدة أن تتفق وتتفق وتتفق ، وأن هذا الإنفاق سيجرب عليه عجوزات فلكية غير مسبوقه في التاريخ ! كما يعتقد هؤلاء بأن الولايات المتحدة غير قادرة على معالجة الأزمة بمفردها فهي بحاجة ماسة إلى التناغم في ضخ وعمل ما يلزم من إجراءات ليس فقط مع أوروبا ولكن مع الاقتصادات الكثيرة الصاعدة كالصين والهند والبرازيل . لذلك جاءت المؤسسة الأمريكية ، وهي الحاكم الحقيقي للنظام الأمريكي بباراك أوباما ووظفت له أكبر حملة تسويق في التاريخ داخل أمريكا لانتخابه وخارجها ليقوم بالعمل المشترك الضروري ولإطفاء الحرائق السياسية التي أشعلها نظامهم تحت إدارة المحافظين الجدد. ويصل هؤلاء إلى النتيجة أن هراء ترك قوى السوق لتعمل على فكفكة هذه الأزمة هو جزء من الماضي ، والآن جاء دور الحكومات لتتولى قيادة السوق والرأسمالية علها تخرج من هذه الأزمة ولو بشكل آخر من الرأسمالية.

بنك سيتي غروب Citigroup هو أكبر مؤسسة مالية في الولايات المتحدة بلغت أصوله حوالي 2 تريليون دولار. ذلك يعني أن أصول هذا البنك تعادل مرة ونصف بل وأكثر ، من مجموع أصول البنوك العربية مجتمعة من المحيط إلى الخليج ! ومنذ نهايات 2006 بدأت علامات الوهن تطفو للسطح بحيث أنه فقد \$200 مليار دولار من قيمته السوقية خلال هاتين السنتين. كان سعر سهمه في يناير 2007 يبلغ \$ 54 بقيمة سوقية تعادل 250 مليار دولار، أما اليوم وبعد كل مئات مليارات الحكومة من كفالات وسيولة فسر سهمه قد وصل إلى \$ 2.35 للسهم قبل خطة الإنقاذ الحكومية ليرتفع إلى \$6.08 للسهم بعدها . وضمن شروط أخرى في خطة الحكومة فسوف تشتري الحكومة 254 مليون سهم بسعر \$ 10.61 في وقت كان يمكن شراؤه بـ \$2.35! وفي الأسبوع ما قبل خطة الإنقاذ الحكومية انهار سهم سيتي غروب 60% من قيمته السوقية وأخرجت سيتي غروب citigroup 52000 موظفاً من وظائفهم، أما تفاصيل الخطة والتي شارك بها وزير مالية أوباما المعين:

- تضخ الحكومة مبلغ 20 مليار دولار فوراً كسيولة للبنك فوق \$25 مليار تم ضخها قبل ذلك بأسابيع ولم تجدي نفعاً . وهذان المبلغان جاءا من أصل الـ 700 مليار دولار التي خصصها الكونغرس لعمليات الإنقاذ.
- تضمن وزارة الخزانة تحمل خسائر بحدود 306 مليار دولار من القروض والأوراق المشكوك بأمورها مقابل ضمانات الروهونات (السامة) الآيلة للسقوط.
- تتحمل سيتي غروب خسائر أول 29 مليار دولار لوحدها وبعد ذلك تتحمل الحكومة 90% من تلك الخسائر ! وتتحمّل وزارة المالية ومؤسسة تأمين الودائع الخسائر الناجمة عن ذلك.
- مقابل الضمانات الحكومية ستحصل الحكومة على 7 بليون دولار من أسهم سيتي غروب.

- تدفع سيتي غروب واحد سنت أرباح لكل سهم بدلاً من 32 سنت كانت تدفع للسهم قبل ذلك بستة شهور.

السؤال هنا : لماذا لم تدفع هذه المبالغ مباشرة إلى أصحاب القروض المتعثرة لتقوم بدورها بالدفع للمؤسسات المصرفية وبهذا يبقى هؤلاء في بيوتهم.

الجواب : في النظام الاقتصادي الرأسمالي الأمريكي ، أصحاب البنوك هم فقط من يتم إنقاذهم أيام الأزمات، وهم وحدهم الذين يدخرون أرباحهم أيام الرخاء . فهم الراحون في الصيف والشتاء وفي السلم وفي الحرب وفي حالة الكساد أو حالة الإزدهار ... فهم أولاً وأخيراً أصحاب النظام

من هو بن شلومو برنانكي؟

دعنا نتوقف قليلاً عند صاحبنا بن شلومو برنانكي، ولماذا جيء به في هذا الزمان بالذات، والذي أصابت فيه الولايات المتحدة أزمة اقتصادية تفاوتت تسمياتها من أزمة جادة ، إلى تراجع حاد ، إلى انصهار اقتصادي إلاّ الاسم الذي قد يصفها بدقة أكثر وهو الكساد الكبير . كان موضوع رسالة الدكتوراة لبرنانكي عن الأسباب التي أدت إلى الكساد الكبير سنة 1929 وامتد لأكثر من عشر سنوات، لم تخرج منه الولايات المتحدة إلاّ بعد دخولها الحرب العالمية الثانية ، وبناء اقتصاد تلك الحرب ، والحرب الباردة ومنها مشروع مارشال الذي تلاها . رأى بن شلومو آنذاك أن سبب المشكلة هو الخطأ الفادح بأن سمحت الدولة بانهيارات البنوك ، حيث تم إفلاس أكثر من 40% من بنوك أمريكا آنذاك ، وأن معالجة مثل هذه الأزمات هو بعدم السماح لتلك البنوك بالانهيار ! يا سبحان الله ... المهم ألاّ تنهار البنوك، ولكن أليس الأهم عدم السماح للأخطاء والممارسات التي أدت إلى انهيارها بالتكرار ، أم إن تلك الممارسات هي أصلاً من طبيعة النظام ، ولا تزول تلك الأخطاء والممارسات إلاّ بتغيير النظام الذي أدى إلى تلك النتائج ؟ كانت غولدمان ساكس وليمان بروذر آنذاك ، واليوم هي نفسها ، وتلعب اللعبة نفسها ، وتؤدي إلى النتائج نفسها.

إذا كان من يأتي ويسمى أي محافظ مركزي هو وول ستريت وهذا هو الواقع والمعلوم ، فلقد جاء وول ستريت ومؤسساته المالية لمن ينقذه من الإفلاس تحت كل الظروف . ولعل من الطريف أن الأستاذ المشرف على رسالة دكتوراة بن شلومو في جامعة MIT المشهورة ، كان ستانلي فيشر، أستاذ الاقتصاد هناك ثم كبير موظفي صندوق النقد الدولي أثناء الأزمة التي عصفت في بلدان جنوب شرق آسيا في التسعينات ،

وهو اليوم محافظ بنك إسرائيل المركزي ... أما صاحبنا الآخر ، وزير الخزانة الأمريكي هنري بولسن Henry Paulson فكان رئيساً لمؤسسة غولدمن ساكس Goldman Sachs، والتي هي من أكبر لاعبي وول ستريت في فترة ما قبل الكساد الكبير لسنة 1929 ، وهذه (الأزمة الاقتصادية الحادة) أو سمها ما شئت.

لا نود هنا أن نناقش أطروحة بن شلومو برنانكي، هذا فهو اتبن النظام وجاء لحمايته . لكنها من البساطة التي تصل إلى حد السذاجة أن يتم مقارنة أسباب علاج "الأزمات" الكبرى مثل هذه التي نراها اليوم بإعادة عقارب التاريخ ، فهناك 4 عناصر هامة مختلفة :

1. سرعة انتقال الأموال هذه الأيام بعد أن حولها المضاربون وبيروقراطياتهم الحكومية الأمريكية إلى سلعة كسائر السلع، هدفها جمع المزيد من الأموال بعد أن كانت خادمة للاقتصاد المنتج ومخزناً للقيمة، ومقياساً للمبادلة ، فأصبحت نبضات كمبيوتر في اقتصاد جعلته كازينو لمغامراتها ، تنتقل بسرعة الضوء أي 186.000 ميل بالثانية .

2. ضخامة الأموال والالتزامات على القطاع المالي بشكل خيالي وأرقام فلكية نتجت عن انفكاك القوانين الرقابية والبرامج الاقتصادية والاجتماعية التي جاءت لتعالج تجربة الكساد الكبير.

• ديون العقارات القائمة هي حوالي 14 تريليون دولار ، أي بحجم الاقتصاد الكلي لمدة سنة كاملة لأكبر اقتصاد في العالم وهو اقتصاد الولايات المتحدة.

• مضافاً إليها 10 تريليونات ديون الدولة، والتي عليها أن تخدم فوائدها الهائلة للدول المقرضة.

• مضافاً إلى أعلاه 11 تريليوناً على الشركات الأمريكية التي أغرقت نفسها بدين رخيص.

• فيصبح مجموع الديون يساوي 300% من حجم GNP الاقتصاد الكلي الأمريكي.

• أما كبرى المشاكل فهي المشتقات Derivatives وهي أدوات مراهنه تصدرها البنوك ...

وقيمتها خرافية ... تبلغ 668 تريليوناً ، أي بحجم اقتصاد الولايات المتحدة GNP لمدة خمسين

سنة . ومع أن هذا المبلغ يشكل التزاماً حقيقياً على البنوك ، نستطيع القول إن معظم كبرى البنوك

الأمريكية قد أصبحت مفلسة ، ولسنا ندري إن كان التدخل الحكومي سيكون كافياً لإخراجها من

هذه الورطة الكبرى، وقد كاد أن ينهار أكبر بنك في الولايات المتحدة Citigroup لولا التدخل

السريع من الدولة، والذي يعتقد البعض بأنه لن يكون كافياً ... هل هذا هو طوفان غرينسبان

وأسباب ذهوله؟

3. إن عولمة الاقتصاد العالمي قد أحدث تشابكاً لا مثيل له ، فأصبح الأمر يحتاج إلى تنسيق كان يمكن حدوثه في ظل الأزمات البسيطة، وفي ظل أحادية القطبية والعصا الغليظة التي صاحبته.

إذا كانت المحافظة على البنوك في الأزمات المالية أمراً ضرورياً ، يتساءل قارئ لمجلة الايكونومست البريطانية، فلماذا أصر صندوق النقد الدولي، بدعم من الولايات المتحدة بشروطه على دول شرق جنوب آسيا، على ضرورة السماح للبنوك بالانهيار (ليقوم وول ستريت بشرائها بأبخس الأسعار)، لأن قوى الحكومة يجب ألا تتدخل ضد قوى السوق وهي الأمر الناهي في اقتصاد السوق كما يدعون ؟ ويضيف ، ما أشبه هذه الأزمة بأزمة جنوب شرق آسيا اللهم إلا أن صندوق النقد الدولي هو الغائب في هذه الأزمة.

عمل الرئيس الماليزي ماهتير محمد على حماية اقتصاد بلاده آنذاك بإهمال أوامر صندوق النقد الدولي وبدأت مأكنة الإعلام "الصندوقية" تحذره بأن الويل الاقتصادي قادم له لا محالة ، فكان اقتصاده هو الوحيد الذي خرج من الأزمة بأقل الخسائر . ولكن عندما حاول الرئيس الأندونيسي عمل الشيء نفسه ورفض وصفات الصندوق، اتصل به الرئيس كلينتون قائلاً " عليك اتباع تلك الصفات كأنها قادمة من السماء". و انهارت 260 شركة من أصل 282 في سوق جاكارتا المالي.

4. أصبح اقتصاد الولايات المتحدة يعيش على الديون الخارجية بحدود 1000 بليون دولار سنوياً، ولم يكن الأمر كذلك في العشرينات والثلاثينات ، حيث نقلت العولمة كثيراً من المصانع من الولايات المتحدة إلى خارجها ، فأصبح الاقتصاد الأمريكي في أكثره اقتصاد خدمات وأسواق مالية.

حسب أكثر التقديرات فإن الاقتصاد الأمريكي في مشكلة عويصة. لقد أسى روبرت رينخ هذه الأزمة ، وهو مستشار اقتصادي للرئيس المنتخب أوباما بأنها "كساد صغير"، لكن هذه التسمية قد تكون متفائلة. بول كريغ روبرتس— وهو من أبطال اقتصاد السوق في عهد ريغن كمساعد لوزير الخزانة ، وكاتب عمود في الصحف المحافظة الموافقة دوماً عن اقتصاد السوق، مثل الـ وول ستريت جورنال — يقول : "مع اني لا أستطيع التنبؤ بالمستقبل ، لكني أستطيع القول بأن هذه الأزمة لا يمكن علاجها بالوصفات التقليدية السابقة، والتي مثلها لن تنجح في إعادة عافية الاقتصاد الأمريكي . فلقد كانت استدانة المستهلكين الأمريكيين من البنوك مصدراً رئيسياً للاستهلاك، حتى أصبح هؤلاء المستهلكون غارقين في الديون ، وغير قادرين على الاستدانة ، وكان استهلاك هؤلاء، معتمدين على الدين هو مصدر النمو للاقتصاد الأمريكي مؤخراً . وبذلك يتم استبعاد السياسة النقدية لأي وسيلة كمعالجة الأزمة . أما المشاريع التنموية

للبنية التحتية (كما في الصفقة الجديدة أيام الكساد الكبير) فتحتاج إلى تريليونات الدولارات التي لا نملكها ، فمن الذي سيمولها ونحن نعتمد على الاستدانة من الآخرين ؟ كذلك فإن الحجز على المنازل هو بالملايين . أما البطالة ، فإن في الولايات المتحدة 10 ملايين عاطل عن العمل ، لكننا لو قسنا البطالة حسب المقاييس التي كانت سائدة قبل أن يغيرها كلينتون فإنها اليوم بحدود 15%. إذا ما توقف أو قلل الأجانب من شراء سندات خزنتنا ، فليس أمامنا سوى طباعة المزيد من الدولارات".

ما لا تريد المؤسسة الاقتصادية الأمريكية أن تفهمه، يقول بول روبرت،س أن كلمة تباطؤ لا تنطبق على حالة هذه الأزمة . فليس هناك صناعة يمكن تحفيزها (حيث انتقلت إلى الخارج) ولا حوافز لخلق طلب يعيد المسرحين إلى وظائفهم، وليست المشكلة مشكلة سيولة ، فالعكس هو الصحيح ... ذهبت المصانع إلى الصين وغيرها، والتي كان التحفيز الاقتصادي يعيد العاطلين عن العمل منها وإليها ... مع الأيام ستتسع الأزمة . سيضاف إليها أزمة بطاقات الائتمان (Credit Cards) وقروض السيارات ... أصبحت شركتا السيارات الأكبر جنرال موتورز وفورد بحاجة إلى الإنقاذ من أموال الشعب لمجرد البقاء . أعلنت جنرال موتورز أن وحدة الرهونات التابعة لها سوف تفلس ، أما دويتش بانك فأعلنت بأنها أصبحت بدون قيمة". إن صفقة اخراج البنوك من ورطتها كانت قراراً مغلوطاً، حسب بول روبرتس، فالأصح كان إعطاء أصحاب المنازل المحجوزة مساعدة لفك حجوزاتهم ، وهذا بدوره كان سيفتح تلك الأموال في الجهاز المالي ... وما تم لم يكن سوى إضافة مصيبة مالية إلى أخرى.

ما أصاب أمريكا هذه المرة لن يمر مرور الكرام . سينتج عن هذا الإعصار أو الانصهار المالي تغيرات عميقة سيكون أولها انتهاء عهد القطب الواحد ، وليس آخرها انتهاء سياسة مبدأ بوش وحروبه الاستباقية .

براك أوباما أو إيهود باراك : لا فرق

السانجون في عالمنا العربي ، وهم كثر ، ابتهلوا إلى الله العلي القدير أن ينجح باراك أوباما كرئيس للولايات المتحدة، علّ الخير والسلام والمحبة تأتي على يديه ، ويكفي أن اسمه هو باراك حسين أوباما ! أنريد أكثر من ذلك.

ولكن من هو باراك أوباما؟

لم يكن ممكناً لهذا الشاب المغمور أن يصبح سياسياً من الدرجة العاشرة، دون دعم قوي من اللوبي الإسرائيلي في الولايات المتحدة ، لا أن يكون سانتورا لولاية ايلينوي ، ولا مرشحاً لبلدية . فولاء من مثله يجب أن يكون مطلقاً إلى إسرائيل ويهود أمريكا ، خصوصاً بارونات المال وول ستريت. دعنا نتكلم بالحقائق، بالمقتطفات التالية:

- في مقابلة مع جريدة لوس انجيلوس تايمز مع الرئيس الأمريكي كارتر، بعد الزوبعة التي أثارها اللوبي الصهيوني ضده وضد كتابه "فلسطين : سلام لا فصل عنصري"، قال كارتر "إن إجراء نقاش هادف في الولايات المتحدة هو حلم لا يمكن تحقيقه . لا يوجد مرشح واحد في أمريكا لمنصب حاكم ولاية أو عضوية في الكونغرس أو لمنصب الرئاسة الأمريكية يجرؤ أن يتفوه بما لا يُرضي إسرائيل".
- "الأميرال توماس مورر Thomas Moorer الرئيس السابق لهيئة أركان القوات المسلحة الأمريكية Washington Report 12 / 1999. P 124
"لم أرى أي رئيس – ولا يهمني من يكون – يستطيع مواجهتهم (اليهود واسرائيل) . إنه أمر يعطل التفكير . إنهم دائماً يفوزون بما يريدون . يعرف الإسرائيليون كل ما يدور كل الوقت ، حتى وصلت إلى نقطة أصبحت لا أكتب شيئاً ، لو يعلم الأمريكيون القبضة الحديدية لهؤلاء الناس على حكومتهم لربما حملوا السلاح. انهم مواطنون ليس لديهم أية فكرة على ما يدور."
- منذ بدايات سيرته السياسية في شيكاغو كان مؤيدوه من اليهود . ولقد عبر Obama أثناء حملته الانتخابية هذه عن امتنانه "للدعم من الأصدقاء من الكثيرين من الجالية اليهودية ، والتي ترجع قديماً إلى أيام بداياتي في السياسة في شيكاغو".
- ولا تربطه بطبقة السود الأمريكيين إلا بعض لونه ، فهو من أم بيضاء انغلو ساكسونية ، ومن خريجي جامعة هارفارد، لا يعرف هموم الفقراء ولا السود.
- اختار أوباما نائباً للرئاسة هو جو بايدن، والذي وصف نفسه "أنا صهيوني ... ليس ضرورياً أن تكون يهودياً لتصبح صهيونياً". قال ذلك في مقابلة مع تلفزيون أمريكي، ويمكن مشاهدة المقابلة وتصريح جو بايدن هذا بفيلم قصير على الإنترنت بالرابط التالي

<http://www.dailynewscaster.com/2008/08/24/joe-biden-i-am-a-zionist/>

- قال جو بايدن في خطاب بتاريخ 2008/9/28 أمام المجلس الوطني اليهودي الديمقراطي:
"أمضيت 35 سنة من حياتي أتعامل مع قضايا تخص إسرائيل . إن مساندتي لإسرائيل تبدأ من معدتي ، ثم إلى قلبي ، ثم إلى عقلي . أعدكم ، بل أتعهد لكم بأني ما كنت قبلت منصب نائب لأوباما

لو كان عندي شك ، وأعني أدنى شك ، بأنه يشاركني الانتماء والولاء لإسرائيل. أنا أضمن ذلك بكل بساطة ، لأنها الحقيقة"".

- باراك أوباما في أول خطاب له بعد فوزه بالانتخابات.
- "إنني ممتن إلى الأبد إلى مدير حملتي الانتخابية ديفيد بلوف (يهودي) ورئيس استراتيجي الحملة الانتخابية ديفيد آكلرود (يهودي) لقد جعلتم انتخابي ممكناً ...". كانت كلفة حملته الانتخابية 600 مليون دولار، جاء معظمها من الممولين الصهاينة الأمريكيين.
- كان أول تعيين لإدارته هو رام إسرائيل اماتيويل ، وهو ليس يهودياً فقط ، بل إسرائيلياً لأب إسرائيلي كان ينتمي إلى جماعة ETZL الإرهابية، التي شاركت في مذابح دير ياسين بفلسطين . شارك متطوعاً في احتياط الجيش الإسرائيلي أثناء الحرب الأمريكية الأولى في الخليج ، علماً بأنه كان بإمكانه التطوع مع الجيش الأمريكي آنذاك
- الكاتب الإسرائيلي يوري أفيري كتب بمقالته بتاريخ 2008/10/4: "لقد استلمت رسالة بالإيميل من مواطن بريطاني يقول فيها : إذن فإننا سنستبدل اليهود من المحافظين الجدد بعهد بوش باليهود الصهاينة الذين حكموا في عهد كلينتون . ما الفرق بربكم؟؟!"
- عين أوباما Paul Volcher رئيس البنك المركزي في عهد ريغان كبير مستشاريه الاقتصاديين، وهو معروف بسياساته التي أدت إلى فككة القوانين الرقابية، مما نتج عنه الانفلات الاقتصادي الذي أدى إلى انهيار سنة 1987.

جاءت مؤسسة الظل صاحبة القول الفصل في الولايات المتحدة برجل أسود لأيام سوداء تتوقعها ، سيكون أكبر الخاسرين لبيوتهم ومخدراتهم ووظائفهم من السود واللاتين ، فتطلبت المرحلة هذا الرجل . وتذكر تلك المؤسسة الأحداث الدامية بل الثورة التي قام بها السود في لوس انجيلوس، والتي كادت تنتشر كالنار في سائر أرجاء مواطن السود في أمريكا . سيشعر السود بأنهم هم الحاكمون اليوم، وستضمن المؤسسة الدائمة ما أمكن ولاء أكثر فئة قابلة للاشتعال في الأيام الصعبة القادمة.

حملة تسويق أوباما من مؤسسة الظل كانت الأعلى في تاريخ الولايات المتحدة . كانت كلفة الحملة الانتخابية للرئاسة رقماً فلكياً بلغ حوالي 1250 مليون دولار، كان نصيب الأسد منها لباراك أوباما، وقام بتمويل أكثرها صهاينة أمريكا وقوى الظل العالمية والأمريكية. وكانت تلك الحملة هي إحدى أنجح قصص العلاقات العامة في التاريخ الحديث . بعد أن تم حرق أوراق بوش والمحافظين الجدد وانتهاء دورهم، وبقدوم عهد جديد يتطلب العمل التعددي لا الانفرادي في الخارج، وكذلك احتواء ثورة السود والمولنيين داخل الولايات

المتحدة وهم المتضررون الأكبر من الأزمة المالية الحالية، حيث فقدوا منازلهم ومدخراتهم ووظائفهم. كان أيضاً من المفيد أن يكون أحدهم على رأس السلطة في البيت الأبيض. فصاحب البيت الأبيض، أبيض كان أم أسود، يدير فقط أجندة قوى الظل لا أكثر من ذلك ولا أقل، ولن يكون الحال مع باراك أوباما مختلفاً في شيء.

أجندة قوة النخبة الممسكة بزمام أمور أمريكا:

البروفيسور كارول كويغلي Carroll Quigly وكان يدرس في جامعة جورج تاون في واشنطن ، بالإضافة إلى كونه مستشاراً بوزارة الدفاع ، كما ذكر روجر موريس في كتابه (شركاء في النفوذ) كان شديد الإعجاب بمؤسسة العلاقات الخارجية القديمة ، التي يعتبرها جزءاً من المؤسسة المالية ونخبة رجال الأعمال الأنغلو ساكسون ، وهي القوى النافذة بين نيويورك ولندن ، والتي اخترقت وتسيطر بعمق على النظام الجامعي والصحافة ، وعلى كل ما له علاقة بالسياسة الخارجية .

ويضيف موريس بأن كويغلي كان يرى في مجلس العلاقات الخارجية الشهير شبكة دولية متناغمة ، إن لم يكن شبكة تآمرية في المقام الأول . ومما كان يقوله كويغلي لطلبته ، بأنه ليس هناك من فروقات بين برامج الجمهوريين والديمقراطيين ، وهو وضع طبيعي في نظره . وهنا قال أحد طلبة كويغلي ، معلقاً على التصويت في الانتخابات الرئاسية : "لن يهم إذن لمن سنصوت يوم الانتخابات الرئاسية في نوفمبر".

بينما بوضوح أن مجلس العلاقات الخارجية هو إحدى قوى الظل الرئيسية في الولايات المتحدة، والتي ترسم سياساتها وترسل رجالها لتكوين اللجان والدراسات والتوصيات، وحتى "إعارتهم" إلى داخل الإدارات الأمريكية لينفذوا ما قاموا به من دراسات. بين كتاب نذر العولمة بطبعته الأولى أن نظام ما بعد الحرب العالمية الثانية الاقتصادي منه والسياسي قام به "لجان الحرب والسلام" السرية، والتي انعقدت قبل وأثناء الحرب العالمية الثانية لتخطط لنظام النفوذ الأمريكي بعد تلك الحرب، خلفاً لنظام النفوذ البريطاني وما قبله. ولقد نشأ عن توصياتها الاقتصادية اتفاقية بريتون وود ومؤسساتها، ومنها صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، وكذلك المؤسسات الدولية والسياسية ومنها الأمم المتحدة .

أجندة أوباما الاقتصادية والسياسية

ما جاء على لسان رئيس مجلس العلاقات الخارجية CFG ريتشارد هاس Richard N. Haass قبل يوم من الانتخابات التي فاز بها براك أوباما (Newsweek Nov. 3 p 34) ، 2008: يغير من رأي المؤسسة الحاكمة، وهو برأينا سيكون برنامج أوباما الاقتصادي والسياسي، وسوف تكشف السنوات القادمة صدق هذا الاستقراء:

"سيكون هناك أيام تتساعل خلالها لماذا أتعبت نفسك لتصبح في هذا المنصب. ومما يجعل من منصب الرئيس القادم أمراً بالغ الصعوبة هو ليس فقط ما ينتظرك من مشاكل ، ولكن أيضاً العوامل المقيدة لما تستطيع فعله حقاً".

- بين هاس " إن ثماني سنوات جورج دبليو بوش كانت بدايتها سلام في أكثر بقاع الأرض ، كانت فيها القوات الأمريكية في حالة راحة واسترخاء . كان سعر برميل النفط 23 دولاراً، وكان الاقتصاد ينمو بمعدل 3% ... وكان الدين الحكومي حوالي 6\$ تريليونات فيما كانت ميزانية الدولة بها فائض لا بأس به ... وفي المقابل فسوف، أيها الرئيس الجديد ، تراث حروباً في العراق وأفغانستان، وستجد قواتنا المسلحة منهكة ، وأن سعر برميل النفط قد وصل يوماً إلى 150\$ ، وسترى دولاراً أضعف عن ذي قبل وعجزاً في ميزانية الحكومة يصل إلى حوالي تريليون دولار في سنة رئاستك الأولى ، وأن حجم الدين العام الحكومي قد ارتفع إلى 10\$ تريليونات ، وأزمات اقتصادية تسود أكثر بلدان العالم مما يعرضها إلى حالات عدم الاستقرار" .

ولعل أهم ما جاء في ما قاله هاس :

- أصبحت القطبية الأحادية جزءاً من الماضي، وستصبح القوة الاقتصادية والسياسية في أيادي متعددة . هذا لا يعني أن الولايات المتحدة قد أصابها الضعف ، فسوف تبقى أقوى قوة في العالم ، لكن الولايات المتحدة لن تصبح قادرة على الهيمنة ، ولا من باب أولى، على الإملاء على الآخرين برامجها . هناك حدود لموارد الولايات المتحدة فليست الولايات المتحدة قادرة على املاء شروطها على الآخرين ، وليس لديها ما تستطيع إقناعهم بأن يتخذوها قدوة بعد أحداث انهيار انرون ، وفضائح أبو غريب ، والإعصار كاترينا، والأزمة الاقتصادية الراهنة .
- يرى هاس أن الإدارة الجديدة عليها تخفيض القوات الأمريكية في العراق ، ودمج الأقلية السنية في المؤسسات الوطنية العراقية ، وحث الدول العربية على مساعدة الحكومة العراقية ، وكذلك الاتفاق مع إيران على مستقبل العراق . وهو يرى أن الأمور تسير باتجاه ايجابي ، لكن المشكلة هي في

أفغانستان، والذي تتدهور فيه الأمور بسرعة لصالح طالبان ، وعلى الإدارة الجديدة تشجيع

الطالبان

على المفاوضات.

- على الإدارة الجديدة أن تعتبر مشكلة أفغانستان وباكستان مشكلة واحدة ، فمن الواضح أن باكستان غير قادرة أو غير راغبة في مراقبة حدودها . هاس يرى أن باكستان ، ثاني أكبر دولة إسلامية ذات العشرات من الرؤوس النووية والـ 170 مليوناً ، ستصبح دولة منهاره Failed State .
- إيران هي تحدٍ كبير آخر فـ (هاس) لا يوافق على أن الحل في أحد خيارين ، إما الحل العسكري وإما قبول إيران نووية ، فالحل العسكري خيار سيء ، فقدرة إيران على الانتقام متوفرة، وسوف تقفز اسعار البترول إلى عنان السماء . فالحل الأمثل هو مفاوضات مباشرة بدون شروط مسبقة.
- بالنسبة للقضية الفلسطينية فيرى هاس وهو يهودي صهيوني أيضاً ، أن حالة الجمود الحالية تمثل خطراً على إسرائيل ومستقبلها كدولة يهودية ديمقراطية آمنة ومزدهرة . فالوضع الراهن يساعد على التطرف الفلسطيني والعربي والإسلامي، وهو عامل هام في انتشار العداء للولايات المتحدة.
- على الولايات المتحدة ابتداء استراتيجية جديدة ، علينا أن نطوي صفحة القرن الأمريكي الجديد ومبدأ بوش للحروب الاستباقية ، كما على الولايات المتحدة أن تتعامل مع مكونات العولمة وإيجاد أطر جديدة يتم بناؤها لسد الهوة بين التحديات الجديدة والبنية التحتية للقوانين والمؤسسات لمراقبتها، كما تم عمله بعد الحرب العالمية الثانية بإيجاد المؤسسات الاقتصادية والسياسية الآتية الذكر . وأن التعددية لا الانفرادية هي سبيلنا الوحيد الممكن للتقدم إلى الأمام لتحقيق أهدافنا.
- كما ينصح الرئيس الجديد بالابتعاد عن الحزبية، وعمل الحزبين معاً للخروج من الأزمات العديدة والحادة التي تواجهها الولايات المتحدة.

هذه هي الأجندة التي كان سينفذها أي من المرشحين ...

لذلك نجد أن هذه السياسات لم تنتظر قدوم الرئيس أوباما بل بدأت حتى في عهد الرئيس جورج بوش:

- بدأت المفاوضات المباشرة مع إيران، حيث أرسلت الخارجية الأمريكية ثاني أهم رجالها لحضور الاجتماع مع الإيرانيين والأوروبيين، حول تحفيز الإيرانيين لوقف تخصيب اليورانيوم، وكان

اجتماعاً وجهاً لوجه ، كذلك اجتمعت الوفود الأمريكية مع الإيرانية لبحث موضوع العراق . كان هذا في عهد بوش.

- بدأت التسريبات من وزارة الدفاع الأمريكية بعدم معارضتها لاتفاق بين طالبان والحكومة الأفغانية، وفي الوقت ذاته بدأت التسريبات بأن إحدى الدول المعروفة بتعاونها مع واشنطن قد جمعت بين طالبان والحكومة الأفغانية لإيجاد سبل اتفاق بينهما.
- بدأت السياسة الأمريكية ووزارة خارجيتها بالعمل الدؤوب مع إسرائيل لإيجاد دولة فلسطينية منقوصة السيادة، تقوم بأعمال الكناسة (البلديات)، والحراسة (لقمع المتطرفين)، بعد أن قال إيهود أولمرت، وهو من علاة الصهاينة، جهاراً نهاراً أن على إسرائيل السعي "الآن الآن وليس غداً" إلى الاتفاق مع الفلسطينيين على دولتين ، لأن الوقت والديمقراطية لا يسيران لصالح إسرائيل ، وهو القول نفسه لـ هاس، وهو أيضاً يهودي صهيوني العقيدة ، أي أن حل الدولتين بالشروط الإسرائيلية هو مصلحة إسرائيلية لا تحتمل التأخير.

ثم ماذا ؟

إنها أزمة نظام

خلال عقد الثمانينات أطلق رجل يدعى ميخائيل غورباتشوف العنان لحركة لم تتوقف، حيث ظن أو قال إنها ستنتهي. وسواء كان يعمل علانية بمفرده أو سراً مع الآخرين، فإن الطاقة التي أطلقها داخل الاتحاد السوفيتي قد أدت إلى تدمير ذلك النظام، وأفضت إلى انهيار النظام الشيوعي والاتحاد السوفيتي وغورباتشوف نفسه . ومن الجائز أنه لم يكن يعتقد تماماً أن الأمور ستصل إلى هذا الحد عندما بدأ مشروع البريسترويكا. وإذا كانت البريسترويكا تهدف إلى "ترميم" سد للمياه، فإن البريسترويكا التي بدأها غورباتشوف قد دمرت جدران السد دون التخطيط لما سيتم عمله بالنسبة للمياه داخله .

ولعل أحد أهم نتائج بريسترويكا العولمة كان تعطيل الدور التاريخي للأموال من كونها مخزناً للقيمة، ومقياساً للتبادل، ووسيلة للدفع لتصبح سلعة كأى سلعة أخرى، مما نتج عنه بروز اقتصاد مالي امتصاصي لا هدف له سوى المضاربة والمتاجرة بالأموال . وانقلب المال من خادم للاقتصاد المنتج إلى عبء طفيلي عليه، وانتقل المال من حقيقة ملموسة إلى خيال يتجسد في نبضات الكترونية داخل كمبيوترات كازينو المال العالمي. ولقد نعى جويل كيرتزمان Joel

Kurtzman محرر مجلة هارفارد بزنس ريفيو Harvard Business Review موت المال كما يعرفه الناس في كتابه (موت الأموال The Death Of Money)، حيث قدّر في ذلك الكتاب بأن ما معدّله 3% فقط من المعاملات المالية اليومية (والتي تزيد على 1200 مليار دولار باليوم) تستثمر في تجارة السلع والخدمات في الاقتصاد المنتج، بينما يتم تسخير حوالي 97% من حجم تلك المبادلات المالية اليومية في أعمال المضاربة، والتي تُزهِق وتستلب الاقتصاد المنتج وفق آليات وأدوات مالية مستحدثة.

قال ويليس هارمن (Willis Harman): إن النظام الحالي، شأنه شأن المريض الذي يذهب إلى الطبيب، فيقول للطبيب انه يقاسي من عمله الذي يضره، لكنه يحب ما يتعاطاه من الكحول في المساء فهي تنسيه هموم النهار، وهو يدخن ثلاث علب سجائر في اليوم وهو يطلب العلاج ولكن دونما أي تغيير في عمله أو شربه او دخانه! ويبدو أن مجرد الترقيع في النظام الرأسمالي المعلوماتي لم يعد كافياً. ويضيف "ويتعمق شعور الشعوب في العالم الحالي بأنهم أصبحوا بلا حول ولا قوة.. وهم في أكثر الأحيان يعزّون تلك المشاعر لإخفاق سياسات قوى النفوذ أو إلى اليساريين المتعصبين، أو إلى الرأسماليين الجشعين. ولكن حقيقة الأمر هي أعمق من ذلك، وتتطلب تغييراً عميقاً أساسياً في المفاهيم والافتراضات (للنظام نفسه)".

وهكذا وصف رؤساء النظام الرأسمالي الانجلوأميركي نظامهم منذ أيام الرئيس لينكولن إلى يومنا هذا. فلقد قال الرئيس لينكولن "لقد تم تمجيد الشركات وترويجها... وسيتبع ذلك عهد من الفساد في المناصب العليا الرفيعة، وسيتم تسخير الأموال ونفوذها في تكريس حكم أصحابها، من خلال الإجحاف بحقوق الآخرين وتعرضها للانتقاص. إلى أن تتجمع الثروة في أيدي قلة قليلة..." ولقد صدق الرئيس لينكولن...! وقال الرئيس الأمريكي روزر فورد بي هيز Rutherford B. Hays : "إن مقولة: هذه حكومة الشعب، ومن الشعب وللشعب، لم تعد قائمة... إنها حكومة الشركات، ومن الشركات وللشركات..." ولقد صدق الرئيس روزر فورد بي هيز...! ، ولقد قال الرئيس الأمريكي جيمي كارتر Jimmy Carter: "في دولة كانت تنبأ بالعمل الجاد، والعائلات المترابطة، والمجتمعات المتينة في بنائها، وإيمانها، أصبحت اليوم تميل إلى عبادة الانغماس الذاتي والاستهلاك. ولم يعد تعريف الهوية الإنسانية بما يفعله الإنسان بل بما يملكه. ولكننا اكتشفنا أن امتلاك الأشياء واستهلاكها لا يشبع حاجتنا إلى الأمور المعنوية والروحية، وقد تعلمنا أن تكديس السلع المادية لا يكفي لملء الفراغ

الذي يكتنف الحياة عندما لا يكون لديها إيمان أو غرض". وقد صدق الرئيس كارتر...! ، وعندما كان طالباً في جامعة ييل YALE قدم الطالب بيل كلينتون قبل أن يصبح رئيساً للولايات المتحدة، بحثاً في مساق (الشركات والمجتمع) قال فيه "بأن نظام التعددية الأمريكية هو نظام فاشل لأن الشركات تملك المال، وبواسطة المال فقد تم إفشال وإفساد هذا النظام". ونقول هنا صدق الطالب بيل كلينتون...! ، فإذا كان أهل مكة أدرى بشعابها، فما علينا إلا أن نوافق رؤساء نظام المعلوماتية -تآلف وشنطن وول ستريت- بأنه نظام فاسد ومفسد.

لعل أخلاقيات النظام التي 'تسوّقه' الرأسمالية المعلوماتية ليصبح نموذجاً للعالم 'يحتذى به' قد تم وصفه جيداً من والدته الرئيس الأمريكي كلينتون، حينما وصفت مدينة هوت سبرنغز التي نشأ بها الرئيس كلينتون بأنها "مكان 'ينظر فيه' إلى الخارجين على القانون باحترام، حيث يتم وضع القوانين لتتكسر، وحيث المال والقوة -كيفية- تم الحصول عليهما- هما المعيار لقيمة الإنسان". أو كوصف الكاتب الأمريكي روجر موريس Roger Morris حين وصف المدينة نفسها هكذا: "وفي الخمسينات، أصبح الفساد أكبر من ماكنات قمار وبنات هوى... وكما في بقية أميركا، تم مؤسسة الفساد وأعمال الهوى فأضحت مؤسسات وشركات، وأصبح أصحاب الجريمة المنظمة وتآلف أصحاب تلك المؤسسات مع الدولة يتحكمون في السوق السوداء لنوادي الليل والقمار وما هو أكثر... ولقد أصبح كل شيء خاضعاً للشراء بمن في ذلك السياسيون أنفسهم..." ص37 (شركاء في النفوذ).

ولعل ما جهدنا بالوصول إليه في كتابنا قد جاء أخيراً على لسان شيخ مضاربي الرأسمالية في كتابه "أزمة الرأسمالية العالمية". يقول سورس: "لا يعير أصوليو الأسواق اهتمامهم إلى المثل الاجتماعية، بحجة أنها تجد تعبيراً لها في سلوكيات السوق... ولكي أثبت كذب هذا الادعاء فلا حاجة لي إلى الحجج النظرية... ولكن دعني أستند إلى خبرتي الشخصية. فعندما ضاربت على الجنيه الاسترليني عام 1992، كان البنك المركزي البريطاني على الجبهة المقابلة ليجابه مضارباتي. وما كنت أفعله في الحقيقة أنني كنت آخذ النقود من جيوب دافعي الضرائب البريطانيين. ولو أنني أردت أن آخذ النتائج الاجتماعية لأعمالي لأصاب الخطأ نتائج حساباتي..." (ص 196). ويضيف سورس القول: "إن طغيان معايير المال وتأثيراتها على السياسة قد جعلت العملية السياسية أقل تأثيراً لخدمة المصلحة العامة عن الماضي عندما كانت المعايير الاجتماعية أكثر أهمية... إن مؤسسات الديمقراطية التمثيلية التي عملت بشكل

جيد في الولايات المتحدة، وأكثر أوروبا قد أصبحت في خطر... (P200). ويضيف : "من المفروض أن تقدم الديمقراطية ميكانيكية لاتخاذ القرارات المشتركة لمصلحة المجتمع... ولكن هذه العملية قد تم افسادها حينما دخلت الأموال داخل اللعبة. ففي الولايات المتحدة لا يستطيع النجاح في الانتخابات إلا أولئك الذين عقدوا الصفقات مع مراكز القوى ليحصلوا على ما يكفيهم من أموال لإنجاح حملاتهم الانتخابية" ص 201

يقول روجر تري (Roger Terry) في كتابه (جنون الاقتصاد - Economic Insanity): "يعرف الأمريكيون ان هناك خطأ ما في أميركا، ولكنهم لا يعرفون ما هو، ولا يعرفون لماذا ذاك الخطأ، والاهم من كل ذلك فهم لا يعرفون كيف يصلحون ذلك الخطأ.. وكل ما بإمكانهم هو الإشارة إلى أعراض المرض فقط... وفي الحقيقة فإن بعضاً مما يسمى حلاً يزد الطين بلة، ذلك ان تلك الحلول تحاول ان تغير نتائج النظام دون تغيير النظام الذي افرز تلك النتائج... ان المشكلة لا تكمن في كيف نطبق نظامنا الاقتصادي، فنظامنا الاقتصادي بعينه هو المشكلة. ان الخطأ هو في التركيبة الاساسية لنظامنا الاقتصادي، ولن تكون الحلول الجزئية وتضميد النتائج حلاً يذهب بالمشاكل. اذا أردنا الوصول إلى 'مثلاً فيجب اقتلاع المشاكل من جذورها لا بقصاصة بعض الأوراق، وعلينا ان نحاكم كل الأسس والافتراضات التي تُسير نظامنا، وكشفها كما هي على حقيقتها".

لعل أول حقيقة يجب أن نواجهها أن واجب الاقتصاد هو خدمة المجتمع، لا أن 'يسخر المجتمع كله لخدمة النمو الاقتصادي، والذي 'يجبر بكله وجله إلى فئة الواحد بالمائة في النظام المالي المعلوماتي الحالي. ولقد تم الارتقاء بالنمو الاقتصادي ليصبح ديناً ما أنزل الله به من سلطان.

ولعل الحقيقة الثانية هي أن الاقتصاد لم يرتق إلى مرتبة العلوم، علماً بأن أرباب المال العالمي قد قدّموه وكأنه أبو العلوم، يضاهي في دقته قوانين نيوتن للحركة، وارتقوا بالاقتصاديين المتحالفين معهم ليكونوا أبواقهم ليبشروا بمبادئهم غير المقدسة باعتبارها غاية في القداسة، وأضحى مثل هؤلاء الاقتصاديين كهنة النظام. ولعله لا يهمننا ان يكون كبير هؤلاء الكهنة من أصحاب الشذوذ الجنسي وبتفاخره بأنه بلا أخلاق (immoralist) لكن يهمننا كثيراً مقولته بأنه (علينا أن نتظاهر أمام أنفسنا وأمام الجميع بأن العدل خطأ وأن الخطأ عدل) فهذه المقولة هي جوهر العقيدة الرأسمالية، ولم تمض علينا سوى 25 سنة من بعده حتى خرج علينا مليتون فريدمان بكتابه (التاريخ النقدي للولايات المتحدة) ليقول لنا بأن مبادئ الكينزية هي الخطأ

بعينه، لا خطأ بعدها ولا قبلها، مع أنها كانت العقيدة التي طبّلت وزمّرت لها بل و بنيت على أساسها الأنظمة الرأسمالية لربع قرن من الزمان بعد الحرب العالمية الثانية، وكانت تلك المبادئ و كينز نفسه من بناء أنظمة وادوات بريتون وودز كصندوق النقد الدولي والبنك الدولي

قامت جمعية الاقتصاديين الأميركيين بتشكيل "لجنة التعليم العالي في الاقتصاد" بعضوية لامعين من الاقتصاديين مثل آلان بلايندر (Alan Blinder) و كينيث أرو (Kenneth Arrow) ولورنس سمرز (Lawrence Summers)، قاموا بمسح دوائر الاقتصاد في 91 جامعة امريكية تقوم بتخريج أكثر من 90% من حملة الدكتوراة في الاقتصاد. وجاء في *التقرير "لم يعد الاقتصاديون على وفاق او اتفاق على ما يشكل ماهية مهنتهم... كما اتفق 61% من اساتذة الاقتصاد في تلك الجامعات ان الارقام والادوات الحسابية والاحصائية قد طغت على جوهر الموضوع". (ص72-بناء عالم يربح به الجميع).* أما بيزنس ويك فقالت متهمكة (7000 اقتصادي ولا حلول) وقالت بأن الاختلال في الوسائل المتبعة للاقتصاديين جعلتهم غير قادرين على المساعدة في إصلاح الاقتصاد الحقيقي". أما جيفري أي غارتن Jeffrey E. Garten عميد كلية الإدارة بجامعة ييل YALE فيقول "ان سجل الاقتصاديين مُخجل. فلقد تنبأوا بانتهاء اليابان أيام الصدمة النفطية لاوبك حيث ان اليابان كانت تعتمد بنسبة 99% على المستوردات النفطية، ثم لم يتنبأوا بالصعود الياباني المذهل إبان عقد الثمانينات من القرن العشرين، ولا هم تنبأوا متى ستنفقع الفقاعة الاقتصادية اليابانية في عقد التسعينات من القرن العشرين".

والحقيقة الثالثة التي نود الإشارة إليها ان فصل عرى الاقتصاد عن الأخلاق والمجتمع والمثل، كما في النظام المعلوماتي، وكما وصفه البروفيسور ليستر ثورو من (MIT) بأنه نظام لا تحكمه مبادئ بل تحكمه المصالح، ولكل شيء ثمنه، يخلق غابة من المجتمع، ينتج عنه الإجرام، والتشرد والظلم الاجتماعي... وأن أي نظام اقتصادي يجب ان يكون قائماً على أساس العدل، لا كما قال كينز قبل سبعين سنة بأن العدل هو خطأ والخطأ هو العدل .

والحقيقة الرابعة هي ان النظام الاقتصادي لا يأتي معزولاً عن غيره من الأنظمة، فمفهوم الحياة وغرضها وهدفها تتحكم في النظام الاقتصادي نفسه، ولا يمكن لنا شراء النظام الاقتصادي الغربي دونما شراء المثل الغربية أيضاً.

وأجرت منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية -Co (Organization for Economic operation and Development – OECD) دراسة عن النظام الاقتصادي في الاسلام وكيف يتميز عن الرأسمالية والشيوعية . وجاء في التقرير : (ان التعاليم الإسلامية تختلف عن الرأسمالية لمعارضتها تراكم الثروات الفاحش ، وتختلف عن الاشتراكية لأنها تحافظ على حقوق التملك لوسائل الإنتاج . ففي مجتمع حقيقي يتبع تعاليم الاسلام يجب ألا تتعارض مصالح طبقات المجتمع ، بل يجب ان تتعايش بالتواصل والتراحم عبر المشاركة والمسؤولية الواعية . كما يجب مراعاة حقوق الفرد ولكن بطريقة عادلة تتوازن مع مصلحة المجتمع بأكمله) . ولكن تعطيل باب الاجتهاد منذ قديم الزمان كان تعطيلاً للعقل ودوره فبدأت الهوة تتسع بين مبادئ الفكر السامي ووسائل العصر اللازمة لتطبيقه فنشأ عن ذلك شيزوفرانيا بين علو الفكر وانحطاط الأساليب. وبقيت وسائل ذلك الفكر والحضارة العظيمة في ثلاجة الزمن البعيد، بينما تفقد المبادئ المادية العنصرية الخرقاء مركبة فضاء.

حقق النظام الرأسمالي المعلوماتي انجازات علمية وتكنولوجية هائلة، صاحبها خواء روحي وانحطاط اخلاقي كبيران، كما حقق إنجازات مادية لشعوبه على جانبي الاطلسي والبالغة حوالي 10% من سكان الكرة الارضية، وذلك باستلاب مقدرات ال 90% من بقية سكانها الاخرين، وجاءت ادوات العولمة واقتصادها لتزيد من عملية الاستلاب تلك، واستلبت فئة الواحد بالمائة من كل شعب من شعوبها مقدراته ثم استلبت خيرات ومقدرات البقية الباقية من الشعوب فأصبح العالم مضطرباً كالواقف على رأسه لا يقوى على مثل هذا الوضع ولا يمكن الاستمرار به حتى ان النظام المعلوماتي بجبروته ووحدانيته هذه الأيام كان قاب قوسين او أدنى من الانهيار. قال جورج سوروس: "قبل أقل من ستة شهور كان النظام المالي العالمي على شفير الهاوية... وكان ذلك النظام لا يبعد سوى أيام قليلة من الانهيار التام... وأني أخشى ان تؤدي النتائج السياسية الناجمة عن الازمات المالية الأخيرة إلى انهيار النظام الرأسمالي العالمي برمته!".

ولقد علمنا التاريخ قديمه منذ أيام الروم والفرس، وحديثه قبل بضع سنين في الاتحاد السوفيتي، ان كثيراً من الدول العظمى تكون في حقيقتها أوهى من بيوت العنكبوت.

والذي رحمه الله كان دائماً يقول : "اللهم ولّ عليهم أتيئهم " ... ويبدو أن الله قد استجاب لهذا الدعاء.